

أثر الكتابات البابلية
في
المدونات التوراتية
الأب
سهيل قاشا
بيسان
Bibliotheca Alexandrina
0014759



أثر الكتابات البابلية
في
المدوّنات التوراتية



الأب سهيل قاشا

أَثَرُ الكِتَابَاتِ البَابِلِيَّة في المُدَوَّنَات التَوْرَاتِيَّة

نيســان

الكتاب في أصله بحث قدّمه المؤلف في المؤتمر العلمي الأول لكلية التربية/ جامعة الموصل (آذار 1985) وفاز بالمرتبة الأولى وقدّم إلى المؤتمر العلمي السابع لجامعات العراق الذي أقيم في بغداد (نيسان 1985) وفاز بالمرتبة الثانية وكان تحت إشراف الدكتور جابر خليل التكريتي فله الشكر الجزيل مع عمق التقدير.

* **أثر الكتابات البابلية في المدوّنات التوراتية**
* تأليف: **الأب سهيل قاشا**
* الطبعة الأولى 1998 م.

* الناشر: **بيسان للنشر والتوزيع والإعلام**
□ ص.ب 5261 ـ 13 بيروت ـ لبنان
□ هاتف: 351291 ـ فاكس 747089 ـ 1 ـ 961

الإهداء

إلى أخي جلال

وأخواتي

بدرية

أميرة

سهام

مع أمّي الحبيبة

فيض محبة

وعمق اعتزاز

س. ق



المقدمة

عاش الإنسان قروناً عديدة تحت وطأة العرف والتقليد البدائيين، قبل أن يعرف الكتابة والتدوين، وحينما راحت يراعه تتقن الكتابة، صار بالتدوين، وخاصة حينما بدأ يعيش تحت نظام حكم معين، في ظل **فجر السلالات، ونظام دويلات المدن** وما تبعها حيث افرزت لنا شرائع عدة، منها: شريعة أورنمو، وشريعة لبت عشتار، وشريعة ايشنونا، وشريعة أوركاجينا. أو تحت نظام الدولة الموحدة، أو الامبراطورية التي بلغ بها الإنسان العراقي القديم، اسمى مراتب التشريع وأفضل بنود للقانون. وراح الملك حمورابي (1793 ـ 1750 ق. م) يصنع لشعبه ودولته نظاماً تشريعياً موحداً، كان خلاصة الشرائع التي سبقته حتى أضحىٰ معيناً لشعوب، وملوك عديدين، كالأشوريين، والعبرانيين، والحثيين، ومنهم موسى النبي الذي سنّ لشعبه شريعة ذات أصول، عامة، تعتبر من الشرائع السامية التي تركها الإنسان إلى جانب أخواتها من الشرائع السابقة أو اللاحقة قبل تحريفها وتحويرها.

إن القصص التي كتبها اليهود استناداً إلى الرواية المتناقلة، ليست بتاريخ إنما فيها نفحة تاريخية وطيلة عشرين قرناً الماضية، تمكن اليهود من تكريس الكثير من المفاهيم المخطوءة القائمة على التحريف والانتساب المزوّر للحوادث والشخصيات التاريخية، من أجل أن يجعلوا لهم امتداداً تاريخياً مرتبطاً بحضارات العالم القديم، وعلى الأخص الحضارتين، العراقية والمصرية العريقتين.

وتحسّ بكل تأكيد، إن أحبار اليهود، قد اقتبسوا من تواريخ الأقطار المجاورة لهم فهودوا كل المعلومات والحكايات، التي رأوا فيها فائدة بعد أن زوروها.

إذ أن تاريخ اليهود القديم ـ الذي تضمنته التوراة ـ قد وضعه كتّاب عاشوا في بابل بعد وقوع حوادثه بمئات السنين، واستندوا في رواياتهم عن قصص مروية تناقلتها أجيال من أسلاف اليهود الذين كانوا قد تزاوجوا مع سكان البلاد الأصليين من كنعانيين، وحوريين، وحثيين، وبابليين، وآشوريين، وكلدانيين، وفقد الكثير من أصوله العرقية الجزرية (الفرات الأوسط)، وبالتالي خضعت تلك القصص إلى التأثيرات التي أملتها مصالح الفئات المتناحرة، إلى ما كان يكنه اليهود أساساً من نوايا غير نزيهة تجاه الشعوب الجزرية القديمة، حيث استوطنوا أرضهم بالقوة والخداع، أو عاشوا هنالك تحت مظلة الأسر.

وقد توصل العديد من **العلماء** إلى أن ما تضمنته أسفار (العهد القديم) من قصص وأساطير وشرائع، إنما يرجع أصله إلى المدونات السومرية، والبابلية، والأشورية، وإن اليهود اقتبسوا منها ما ينفعهم، وحذفوا بلا هوادة، كل ما لم يلق استحسانهم[1].

وحتى الوصايا العشر التي يكاد العلماء يجمعون على أنها الشيء الوحيد المتبقي من التوراة الأصلية لم تكن بكاملها، وعلى هيئتها الحالية كالتي جاء بها موسى. وهناك الكثير من التشابه والتطابق بين قوانين موسى، والقوانين البابلية التي سبقتها بأمد بعيد[2].

لقد أسهمت في تأليف كتاب العهد القديم مجموعة متباينة من الأحبار والمعلمين والكتبة. وظهر المشرع الأول للأسفار الخمسة في

---

(1) ادوار كييرا ـ كتبوا على الطين ـ ترجمة وتعليق الدكتور محمود حسين الأمين، ط 2، بغداد، 1964، ص 135 ـ 149.

(2) حسن النجفي ـ الشيقل ـ مطبعة البنك المركزي ـ بغداد، 1981، ص 9، 12، 13.

التوراة ويمثله النبي موسى وهو يتكلم بلسان (يهوه)[3]. ومن الغريب أن لهذه الأسفار ما يقابلها في قوانين حمورابي التي كانت قد سبقتها بأكثر من قرنين.

ولقد توصل العديد من **العلماء الأركيولوجيين** (الآثاريين) مؤخراً إلى أن (سفر الخروج) نفسه، الذي يعتبره الكتبة اليهود واحداً من الأسفار الخمسة التي نزلت على النبي موسى قد تضمن قصصاً تشبه تماماً تلك التي جاءت في الحوليات البابلية. ومنها على سبيل المثال. قصة موسى الذي قاد اليهود إلى فلسطين تبقىٰ على حالها، وقضوها في مصر في القهر والعبودية[4]. تتشابه وتتطابق لما دونه أحد الكتبة البابليين عن ولادة سرجون الآكدي (2350 ـ 2295 ق.م) وهو يتحدث عن نفسه[5].

وهناك تشابه بين (قصة الخليقة) (إيلوما ـ أيليش) البابلية، وبين قصة خلق العالم، كما وردت في سفر التكوين في أكثر من حدث[6]. والتشابه نفسه نلاحظه في قصة (خلق الإنسان) السومرية وتطابقها مع الأحداث التي ترويها التوراة عن أصل الخليقة[7]. وكان لفكرة البعث والنشوء في ملحمة (كلكامش) الخالدة تأثيراتها الواضحة في التوراة بالرغم من أن التوراة دوّنت بعدها بحوالي ألفي سنة[8].

ومن بين قصائد الغناء التي عثر عليها منقوشة على لوح من الطين، قصيدة سومرية تصف (أرض الخلود) التي لا يوجد فيها مرض أو موت

---

(3) سفر الخروج 20/ 19، 22.

(4) راجع القصة في سفر الخروج 1.

(5) راجع قصته في كتاب الدكتور أحمد سوسه «العرب واليهود في التاريخ» بغداد 1970.

(6) انظر ذلك في سفر التكوين 1/ 27، 5/ 1 ـ 2.

(7) أيضاً راجع سفر التكوين 2/ 7 ـ 9.

(8) الأب ديلي ـ تاريخ شعب العهد العقديم ـ بيروت ـ ص 81 ـ 84.

أو حزن. . . . هذه القصيدة فيها تطابق مذهل مع وصف التوراة (لجنة عدن)[9].

لقد وردت (قصة الطوفان) في أكثر من موقع في المدونات السومرية والبالية لا سيما ملحمة كلكامش، حين غطى المعمورة، ولم ينج من أهلها إلا زعيم ديني وأفراد أسرته والحيوانات التي حملها معه في الفلك التي أوحي إليه ببنائها من قبل. ولقد أورد سفر التكوين هذه القصة، بعد ألفين ونيف من السنوات مما أوردته الحوليات البابلية، ولكن كتبة اليهود كعادتهم نسبوا هذه القصة إلى مدوناتهم الدينية ولم يذكروا مصدر الاقتباس[10].

وهناك أسفار أخرى ذات تشابه مع المدونات السومرية والبابلية والأكدية والأشورية[11].

من هذا نستخلص أن الشريعة الجديدة ـ شريعة موسى ـ فيها من الاقتباسات والمتشابهات من التراث والتشريع العراقي القديم الشيء

---

(9) راجع سفر اشعيا النبي.

(10) سفر القضاة 9/ 8 وسفر التكوين 6/ 19، 7/ 19، 8/ 19.

(11) بخصوص هذه المقتبسات والتشابهات، راجع:

1 ـ المطران غريغوريوس بولس بهنام: احيقار الحكيم، مطبوعات مجمع اللغة السريانية، بغداد، 1976، ص 151 ـ 178.

2 ـ سهيل قاشا: الحكمة في وادي الرافدين، مطبعة شفيق، بغداد، 1983.

3 ـ صمويل كريمر: من ألواح سومر، ترجمة طه باقر، مكتبة المثنى ببغداد. بلا تاريخ.

4 ـ جان أمل ريك: مركز المرأة في قانون حمورابي وفي القانون الموسوي تعريب سليم العقاد. المطبعة العصرية بمصر 1926.

5 ـ جورج بوبيه سمار: المسؤولية الجزائية في الآداب الأشورية والبابلية ـ ترجمة سليم الصويص. منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1981 وغيرها من المصادر المنشورة بلغات أجنبية مختلفة.

الكثير، نقدم منها هنا للبحث والنقاش.

وقد كسرنا البحث إلى قسمين، تناولنا في الأول مقتبسات شريعة موسى من شريعة حمورابي وأثر الحكمة العراقية القديمة في أسفار التوراة.

وفي القسم الثاني تناولنا المواضيع التالية: بابل والتوراة، وملحمة الخلق (اينوما ايليش) وسفر التكوين وألواح السومريين وجنة عدن والفردوس المفقود وحكاية الطوفان الكبير البابلية، والطوفان بين النص التوراتي والنصوص السومرية والبابلية ثم ملحمة كلكامش وسفر التكوين وبين سرجون الأكري وموسى، وصبر أيوب بين النصوص المسمارية والتوارة، وغيرها.

ثم جعلنا للكتاب خلاصة شاملة مع أربعة ملاحق إيضاحية مفيدة وختمناه بفهارس عديدة للإعلام والأماكن والاقاليم والشعوب، معتمدين على أدق المصادر والمراجع وأصدقها.

الموصل 25/ 4/ 1984



القسم الأول

حمورابي الملك وموسى النبي



يعتبر حمورابي[12]، من أعاظم ملوك العراق القديم، فقد انصرف في أولىٰ سنوات حكمه إلى الإصلاحات الداخلية، وترفيه حالة السكان المعاشية، وإقامة المشاريع، وذلك لكسب رضا الناس ومحبتهم. ثم انصرف إلى إصلاح الجهاز الإداري والقضاء على الرشوات ورفع المظالم، وتثبيت الأسعار والإهتمام بحفر الترع وإقامة السدود وتقوية الجيش، وكل ذلك لأجل تثبيت العدل.

وقد ساعدت الظروف هذا الملك النابه القوي على إزاحة أعدائه ومناوئيه من مسرح السياسة واحداً بعد الآخر، فتحطم النطاق الذي كان مطبقاً عليه. وقد بدأ الحظ يخدمه في إزاحة أقوى عدو له هو الملك العتيد «شمشي ادد»[13] الجاثم على قمة البلاد. فما كان من حمورابي إلا أن يلتحم بمعركة عنيفة مع خصمه القوي «ريمسن» وذلك في السنة الواحدة والثلاثين من حكمه الذي دام اثنتان وأربعين سنة فدحره وهرب

---

(12) حمورابي وتقرأ في البابلية خمّورابي ومعناه السيد العظيم. وكذلك يعني رئيس العائلة. وقد تأتي الحرارة الدافئة.

(13) شمشي ادد: كان قد ضيق الخناق على بلاد بابل، وكان نفوذه في زمن حمورابي يمتد حتىٰ شمالي بابل وكان أحاط حمورابي بنطاق قوي من الأحلاف من دول متعددة، مثل دولة ماري التي كانت خاضعة له والتي كان يشرف على إدارتها ابنه (يشمع ـ ادد) ثم مملكة اشنوناك، وبلاد ياموتبل وعيلام، والدول التابعة لها، ثم مملكة لارسا التي كان ملكها آنذاك «ريمسن» القوي.

«ريمسن» من عاصمته لارسا التي سقطت بيد حمورابي، وبذلك استولى على جنوب العراق وبلاد عيلام واشنوناك وياموتيل. ثم التفت إلى دولة «ماري» وغزاها وقضىٰ على ملكها «زمري لم» ثم تقدم نحو بلاد أشور واحتل جزءاً منها وكذلك احتل بلاد سوبارتو الواقعة شمال كركوك (كرخ سلوخ) الحالية وشرقيها. وبذلك أصبح ملك الجهات الأربع.

أما موسى النبي، فكان من أولئك الذين قضي عليهم بالموت منذ الولادة. وكان، في ظروف أخرى يرعى الغنم طول حياته ولا يذكر التاريخ أن فرعوناً أصابه بسوء، بل كان له منقذ ومعين حين رفعه من الحضيض إلى مرتبة الزعيم المطاع.

بل جعلته أمه في سفط من بردي، ووضعته بين الخيزران، ولما أقبلت بنت فرعون إلى النهر لتغتسل أخذتها الشفقة على الطفل «واتخذته ابناً لها»[14].

وتلقن الطفل في القصر الملكي ما يتلقىٰ الأمراء المصريون، من علوم القانون، والإدارة، والسياسة، والحرب، ليعدّ بها نفسه ليقوم غداً بدور الزعيم في شعبه.

فيتفاوض مع قبائل الصحراء، ويحارب الذين يقطعون عليه السبيل، فيرسي قواعد الناموس لشعبه لكي يسوسه به حتىٰ مجيء السيّد المسيح[15].

---

(14) سفر الخروج 2/ 11.

(15) راجع ترجمة حياة موسى النبي بالتفصيل في سفر الخروج من العهد القديم وانظر كتاب «تاريخ شعب العهد القديم» تأليف الأب ديلي وعربه الأب جرجس مارديني ـ المطبعة الكاثوليكية بيروت ـ 1962 ص 135 ـ 157. وكتاب «تاريخ الكتاب المقدس» للعلامة شوستر وماري ترجمة الأبوان فرنسيس دونيلك ويوسف علوان ـ الطبعة الخامسة ـ مطبعة بطريركية اللاتين بالقدس 1962 ص 30 ـ 49.

المسلة والأسفار

إن شريعة حمورابي كما يبدو من موادها هي عبارة عن جمع منقح لمواد الشرائع التي سبقتها إذ أن حمورابي قد حذف من مواد الشرائع السابقة ما كان لا يتفق وطبيعة العصر الذي يعيش فيه وأضاف إلى شريعته مواد اقتضتها مصلحة الدولة آنذاك ولا سيما القوانين الصارمة الخاصة بعقوبة الموت والقصاص بالمثل لأن القوانين السومرية كانت تتجنب مبدأ القصاص وترجح التعويض والغرامة المادية.

سجل حمورابي هذه القوانين على مسلة كبيرة من حجر الديورانت الأسود، طولها 225 سم وقطرها 60 سم، وهي أسطوانية الشكل. وقد وجدت في مدينة سوسة عاصمة عيلام، أثناء حفريات البعثة التنقيبية الفرنسية (1901 ـ 1902). وموجودة الآن في متحف اللوفر بباريس.

رتبت مواد شريعة حمورابي في أربعة وأربعين حقلاً. وكتبت باللغة البابلية على غرار شريعة لبت عشتار، وبالخط المسماري. تحتوي المسلة على 282 مادة، ومن المرجح أنها كانت تزيد على 300 مادة. وكان قد نقلها إلى مدينة سوسة الملك العيلامي «شتروك ناخونتي» الذي غزا بابل حوالي سنة 1171 قبل الميلاد، وقد محا عدداً من الأسطر ليسجل مكانها على ما يبدو اسمه، ولكن اللعنات التي تحويها خاتمة الشريعة بخصوص من يغيّر في نصوصها قد منعت الملك المذكور على ما يرجح من تدوين اسمه[16].

(16) د. فوزي رشيد: الشرائع العراقية القديمة، دار الحرية للطباعة، منشورات =

في القسم الأعلى من المسلة نحت بارز يمثل الإله شماش إله الشمس جالساً على عرشه يسلم بيده اليمنى الملك حمورابي الواقف أمامه بخشوع أدوات القياس ليتسنى له بواسطة القياسات الدقيقة إعمار البلاد وتثبيت الملكية.

بدأ حمورابي قوانينه بمقدمة على غرار مقدمات شريعتي أورنمو ولبت عشتار، ولكنهما ـ كما قلنا سابقاً ـ قد كتبت بكثير من التفصيل، إذ أنها قد ذكرت أعمال حمورابي في جميع المدن التي خضعت لسلطانه من الخليج العربي حتى أقصى الحدود الشمالية، كما أنه قد أطرى في تمجيد آلهة هذه المدن وتعظيمها إضافة إلى تأكيده البالغ على شرعية قوانينه، وإنها ما قننت إلا لتساعد على توطيد العدل، وإحقاق الحق، وهداية الحكام والولاة في تطبيق الأحكام على الناس. وأخيراً ختم قوانينه بخاتمة طويلة كتبت بنفس الأسلوب التي كتب بها المقدمة، وفيها يذكر جميع ما قام به من الأعمال، وطلب من جميع آلهة البلاد إفناء كل من لا يعمل بهذه القوانين ومن يحاول طمسها وتخريبها أو إضافة اسمه عليها[17].

هذا وقد عرضت مواد شريعة حمورابي في ثلاثة عشر قسماً، وهي على الوجه التالي:

القسم الأول: يحتوي على المواد 1 ـ 5 التي تتعلق بالقضاء والشهود.

القسم الثاني: يحتوي على المواد من 6 ـ 25 وتتعلق بالسرقة والنهب والسلب.

القسم الثالث: يحتوي على المواد من 26 ـ 41، وتتعلق بشؤون الجيش.

= وزراة الثقافة والإعلام، بغداد، 1973 ص 80 ـ 81.

(17) د. فوزي رشيد: الشرائع العراقية القديمة ـ ص 1. ـ 82.

القسم الرابع: يحتوي على المواد من 42 ـ 100 وتتعلق بشؤون الحقل والبيت والبساتين.

القسم الخامس: يحتوي على المواد من 101 ـ 107 وتتعلق بالقروض، ونسبة الفائدة والتعامل مع صغار التجار وكبارهم. وبمخازن البيع بالجملة ودكاكين التجار والرهينة.

القسم السادس: يحتوي على المواد من 108 ـ 111 وتتعلق بساقية الخمر.

القسم السابع: يحتوي على المواد من 112 ـ 126 وتتعلق بالائتمان والديون.

القسم الثامن: يحتوي على المواد من 127 ـ 194، وتتعلق هذه المواد، بالشؤون العائلية كالزواج والطلاق، والإرث، والتبني، وكل ما له علاقة في الرابطة العائلية.

القسم التاسع: يحتوي على المواد من 195 ـ 214، وتتعلق بعقوبات القصاص، والغرامات المفروضة على الأضرار التي يحدثها الأفراد بعضهم لبعض عند الشجار والتخاصم أو نقض الاتفاقيات والعهود والتعهدات.

القسم العاشر: يحتوي على المواد من 215 ـ 227، وتتعلق بالطب والطبيب البيطري والواسم. وتعيين أجور البناء للبيوت والقوارب وأثمانها.

القسم الحادي عشر: يحتوي على المواد من 228 ـ 240 وتتعلق بالأسعار وتعيين أجور الصناع والرعاة، كما أنها تتعلق بالعقوبات المفروضة على من يخلّ بالتزاماته.

القسم الثاني عشر: يحتوي على المواد من 241 ـ 277 وتتعلق بأجور الحيوانات والأشخاص.

القسم الثالث عشر: يحتوي على المواد من 278 ـ 282 وتتعلق بشراء العبيد وعلاقاتهم بأسيادهم[18].

أما الشريعة الموسوية، فتتألف من الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس (العهد القديم) التي تكوّن مجموعة موحدة كان اليهود يسمونها «الشريعة» أو الناموس أو «التوراة». وقد اتخذت باليونانية اسم «بانتاتيكوس» أي الكتاب ذو الأسفار الخمسة. وقد انتقلت هذه اللفظة إلى اللاتينية، وإلى معظم اللغات العصرية. وقد جرت العادة منذ أيام الترجمة اليونانية المعروفة بالسبعينية[19]، أن يسمى كل سفر حسب محتواه. فسمي الأول (سفر التكوين) لأنه يصف بدء العالم والإنسانية والشعب اليهودي بنوع خاص. ودعي الثاني (سفر الخروج) لأنه يتحدث عن خروج اليهود من مصر. والثالث (سفر الأحبار) أو اللاّويين، لأنه يحتوي على طقوس الكهنة أبناء لاوي. وأطلق على الرابع اسم (سفر العدد) بسبب إحصاءات شعب اليهود المنصوص عنها فيه. وتنتهي المجموعة بسفر (تثنية الإشتراع) الذي يبدو تكراراً وتتمة لشريعة موسى.

وتترابط هذه الأسفار بحيث يمكن الوقوف على اللحمة. التي تربط

---

(18) د. محمود الأمين: قوانين حمورابي، مستل من مجلة كلية الآداب، عدد 3، كانون الثاني، بغداد 1961 ص 9 ـ 10. ومن المصادر العربية التي كتبت عن شريعة حمورابي:

1 ـ قوانين حمورابي، ترجمة عبد المسيح وزير، مجلة اليقين 1923 ـ 1925.

2 ـ ترجمة قوانين حمورابي، عبدة حسن الزيات، مجلة القضاء 1935 ـ 1936.

3 ـ شريعة حمورابي أقدم الشرائع العالمية، الدكتور عبد الرحمن الكيالي، حلب 1958.

4 ـ الشرائع العراقية القديمة، الدكتور فوزي رشيد، بغداد 1973.

إضافة إلى هذه هناك عشرات المقالات والبحوث والكتب في لغات أجنبية عديدة علاوة على العربية.

(19) وهي النسخة التي أجمع في كتابتها والتحقيق من صحتها سبعين كاهناً من أخبار اليهود الموثوق رواياتهم.

سياق الحوادث منذ خلق العالم حتى موت موسى النبي. وهكذا تدخل كل الشرائع ضمن إطار تاريخي. وإبرز ميزات المجموعة الخماسية هو مزج القصص بالشرائع، مما يحدو بالقارىء لأن يكون منتبهاً بشكل مستمر.

والأسفار الخمسة هذه من الكتاب المقدس (العهد القديم) يطلق عليها اسم «التوراة» أو كتب الناموس. أما اليهود فقد أطلقوا عليها قديماً أسماء خاصة لا تشير إلى محتوياتها بل هي عبارة عن الألفاظ التي يبدأ بها كل سفر من الأسفار الخمسة[20].

والآن نتساءل كيف تمّ اختيار الأسفار المقدسة الخاصة بالعهد القديم. وكيف استبدعت الأسفار الأخرى من العهد القديم، لاستبانة القواعد التي يعتمد عليها وتراعى عند الاختيار صحة الرواية ثم تكون دائماً صحيحة. فإننا نجد مثلاً «وكتب موسى هذه الشريعة وأعطاها للكهنة»[21] ولا يفهم من هذه العبارة أن «يشوع كتب كل هذا في كتاب الشريعة أمام الله»[22].

أما بداية السفر ونهايته فمسألة تقديرية حيث روعي فيها الكم لا الكيف.

وإطلاق اسم (أسفار موسى الخمسة) على التوراة لا يشير فقط إلى الإهتمام بموسى بل إلى نسبتها إليه واعتباره مؤلفها. وهذه هي عقيدة اليهود منذ عهد فيلون الاسكندري (القرن الأول قبل الميلاد والأول الميلادي) ويوسيفوس اليهودي اللذين عاصرا المسيح، وأعلنا أن موسى هو مؤلف التوراة[23].

---

(20) د. فؤاد حسنين ـ التوراة الهيروغليفية ـ ص 39.
(21) تثنية الاشتراع 31/ 9، 24.
(22) يشوع بن سيراخ 24/ 26.
(23) انجيل لوقا 10/ 26.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القانون والشريعة

ثبت أن قانون حمورابي شريعة سامية (نسبة إلى سام بن نوح) وأنها من تشريع الملك العراقي حمورابي، لا غش فيها ولا تحتمل التأويل. وأنها من استنباط العقلية العراقية القديمة، التي أعطت قيمة للتشريع، للحفاظ على سلامة وأمن المجتمع، والتحريض مع الحرص الشديد على تعميم العدالة.

لقد كان حمورابي، ملك عظيم، رفيع الشأن. . . . وربما لم يكن بالشخصية الدراماتيكية التي تثير المشاعر مثل (كلكامش) ولكن الرجل الملهم الذي ادى أجلّ الخدمات لشعبه وللبشرية جمعاء.

كان حمورابي معلماً في المقدمة، ومن أوائل الذين أوجدوا الشرائع والقوانين لتنظيم الحياة وإقرار مبدأ الحق والعدالة.

لقد أمر هذا الملك يوماً: (لما كانت السنة ناقصة، فيجب تسجيل هذا الشهر الذي يبدأ الآن، على أنه شهر ثان لأيلول). ثم أضاف: (إن هذا لا يعني أن الناس سيكونون معفيين من الضرائب الإعتيادية في هذا الشهر الإضافي).

لقد حكم حمورابي في بابل، وكانت كلمته هي القانون في غربي آسيا كلها[24].

---

(24) حسن النجفي ـ الشيقل ـ ص 7.

أما بالنسبة للتوراة أو الأسفار الخمسة، فلا بد من وقفة تأمل وتحقيق، فقد قيل عنها الكثير من الروايات التي تحتمل الشك والريبة، من أنها من وضع موسى النبي أو على الأقل تشوبها بعض الشوائب التي لا يصح إسنادها على موسى إنما حشرت وأقحمت فيها وأكثرها مواد مقتبسة من الشعوب المجاورة، أو بالأحرى من التشريع العراقي القديم، وخاصة من شريعة الملك حمورابي.

فمجموعة من الأسفار، نشأت وتطورت في عصور بعيدة، وهي المجموعة كما نتبينها اليوم سواء في الأصل العبري حيث نجد الشريعة أو في التراجم حيث أضيفت إليها أسفار غير شرعية، خير مرآة للحياة العقلية اليهودية في العصور البعيدة.

إن الشرائع التي سنّها موسى لليهود، قد أتت على شكل لا تعدو أن تكون وسائل ووسائط للحياة الأخرى. ولذا فهي قابلة للتحوير والتعديل أو النسخ والإلغاء على مرّ الأيام(25) بسبب التطور الفكري.

ولا عجب في أن ينسب كتّاب القرون التوالي إلى موسى كل هذا النشاط التشريعي الذي كان لا بد منه خلال تاريخ طويل ومُتَلَوِّن. فإذا كانوا يعبرون عن دهشتهم إزاء هذه الشريعة التي كانت تضعهم فوق كل الشعوب الأخرى، كان من الطبيعي لديهم أن يعظموا ذكر ذاك الذي وضع لها الأسس الأولى، في فاتحة أجمل مجموعة تشريعية يهودية وكذلك في خاتمتها، العبارات التالية:

«والآن، فسل عن الأيام الأولى التي سلفت من قبلك منذ يوم خلق الرب الإنسان على الأرض، من أقصاها إلى أقصاها، هل كان قط مثل

(25) للتفصيل بهذا الموضوع، راجع: الأب ديلي: تاريخ شعب العهد القديم، تعريب الأب جرجس المارديني، بيروت، 1962 ص 135 ـ 136، 154 ـ 155، 156 ـ 158.

هذا الأمر العظيم، أو هل سمع بمثله؟ هل سمعت أمة صوت الله يتكلم من وسط النار، كما سمعت أنت، وعاشت. . . .»[26].

«ولم يقم من بعد. . . . نبي كموسى الذي عرفه الرب وجهاً إلى وجه، في جميع الآيات والمعجزات التي بعثه الرب ليصنعها في أرض مصر، بفرعون وجميع عبيده، وجميع أرضه»[27].

فهل يعني هذا أن موسى كان المؤلف المباشر لجميع مشترعات بني إسرائيل، وأنه ينبغي أن نقبل حرفياً المقاطع التي فيها يعزو الكتاب المنزّل إلى موسى وضع أسفار التوراة بكاملها؟ ليس الأسلوب والألفاظ فقط هي التي تتغير من موضع إلى آخر، بل ثمة إعادات وبعض تغيرات التي تتعارض تماماً ووجهة نظر ساذجة إلى هذا الحد[28].

---

(26) سفر تثنية الاشتراع 4/ 32 ـ 34.

(27) المصدر السابق 34/ 10 ـ 11.

(28) كانت هذه النظرة الساذجة تسيطر على أغلب اليهود والمسيحيين أنفسهم طيلة قرون. فقد كان أسلافنا يبحثون في التوراة عن واجبهم وليس عن حلّ المشكلة. أما الكنيسة فتعترف اليوم رسمياً بنظرة أصوب إلى الأمور. ففي 16 كانون الثاني 1948م، كتب الأب فوستي الدومنيكي كاتم سر اللجنة الكتابية البابوية إلى الكردينال سوهار يقول: «سبقت اللجنة الكتابية فاعترفت في شأن تأليف التوراة في قرار. . . . 27 حزيران 1906م بجواز التأكيد بأن موسى، قد استعمل وثائق مدونة أو تقاليد شفوية لإنشاء كتابه». وكذلك بقبول تبديلات وإضافات عقبت موسى. فلا أحد اليوم ينكر وجود هذه المصادر أو يرفض تقدماً تدريجياً في الشرائع الموسوية سببته ظروف اجتماعية ودينية لاحقة تقدماً يلاحظ في الروايات التاريخية أيضاً.

إلا أن آراء متباينة في صف المفسرين غير الكاثوليك أنفسهم، تنتشر اليوم عن طبيعة هذه الوثائق وعن عددها وأسمائها وتاريخها. . . . . فإننا نهيب بالعلماء الكاثوليك أن يدرسوا هذه القضايا دونما تحيّز على ضوء نقد سليم وعلى نتائج العلوم الأخرى المتعلقة بهذه المواد. وإن مثل هذه الدراسة كفيلة أن تبيّن بلا شك نصيب موسى الأوفر وتأثيره الأكبر من حيث هو مؤلف ومشترع.

ولكن من السذاجة أيضاً أن نُبالغ في تحديد فعالية موسى الشخصية. ففي زمانه خاصة بين سنة 1250 و 1230ق .م، ظهرت الكتابة لدى شعوب شبه جزيرة سيناء ولدى الكنعانيين[29].

---

(29) راجع كتاب «الأسفار المقدسة» تعريب الأب يوسف قوزي الموصل ـ المطبعة العصرية ـ 19 ص 11 ـ 13.

مقتبسات شريعة موسى
من قانون حمورابي

تستقي الشرائع أحكامها عادة من البيئة الجغرافية، ومن ظروف المجتمع السياسية، والدينية، والمعاشية، بحيث تنسجم مع نمط حياة السكان ومشاكلهم، ولا بد من أن تتأثر هذه الشرائع بعض الشيء بالقوانين التي سبقتها في مختلف المجتمعات، وفي التقاليد المرعية وفي العرف المحلي في مجرى تطورها ونموها. ولا أدلّ على ذلك مما هو واضح في التشريعين، في حين أنّ هناك مواد أخرى تختلف في أحكامها بين الاثنتين، ومواد أخرى موجودة في الواحدة دون الأخرى. وهذا الاختلاف ناجم عن اختلاف البيئة، واختلاف الظروف السياسية والإجتماعية والدينية، والمعاشية، في كل من البلدين اللذين، وضعت فيهما الشريعتان غير أنه لا بد من الاعتراف بأن المتشابه بين شريعة موسى وقانون حمورابي لا بد أن يكون معظمه مقتبساً من أقدمهما، أي أن المتشابه الوارد في الأسفار الخمسة (التوراة) يكون مقتبساً من قانون حمورابي التي سبقت شريعة التوراة بأكثر من خمسمائة عام، هذا إذا أخذنا بالتاريخ الذي ظهر فيه موسى في زمن الخروج بغض النظر عن التاريخ الذي دونت فيه (التوراة) في وقت لاحق بعدة قرون.

إن تأثير الاختلاف بين بيئة كل من البلدين اللذين وضعت فيهما الشريعة والقانون ظاهر في موادهما، فنجد مثلاً، أن شريعة التوراة تفرّق

بين الإسرائيلي وغير الإسرائيلي بوجه عام في أحكامها وأنها خاصة ببني إسرائيل حصراً، ويكون العبيد في حكم التوراة من غير بني إسرائيل[30]، هذا في حين أن الأحكام البابلية تفرّق بين طبقات الشعب في فرض عقوباتها، فالعقوبة على الشريف تختلف عن العقوبة التي تفرض على غيره من طبقات السكان الأخرى، ومنهم الأرقاء. ففي الشريعة البابلية مثلاً إذا صفع رقيق سيد خد فرد من الأشراف فتقطع أذنه، أما إذا شخص اعتيادي صفع آخر اعتيادياً على خده فعليه أن يدفع عشر شاقلات[31] من الفضة[32].

كذلك إذا فقأ شخص عين ابن أحد الأشراف فعليهم أن يفقأوا عينه، أما إذا فقأ عين سيد اعتيادي فعليه أن يدفع مانا[33] من الفضة[33].

هذا، وقد تناولت شريعة حمورابي بشيء من التفصيل القضايا المتعلقة بشؤون الري، وزراعة الحقول وبساتين النخيل، وفرضت عقوبات لتنظيم العلاقات بين المزارعين، كما أنها قد تناولت في كثير من موادها القضايا النا ـمة عن علاقة الملاّك بالفلاّح، في حين أن مثل هذه المواد لم ترد في التوراة، لأن كل مزارع من مزارعي بني إسرائيل كان يفلح أرضه، والزراعة في فلسطين تعتمد على الأمطار وأكثر بساتينها الكروم والزيتون.

وهناك مواد تتعلق بالأسعار وتعيين أجور الأعمال، ومواد أخرى تتعلق بالسفن، وبخزن الحبوب، وبالشؤون التجارية، وردت في الشريعة البابلية وهي غير موجودة في شريعة موسى، وذلك ما يدل على أن

---

(30) جاء في سفر الأحبار (اللاويين): «لأنهم عبيدي الذين أخرجتهم من أرض مصر لا يباعوا بيع العبيد» (الأحبار 25/ 42).

(31) الشاقل: نوع من الوزن البابلي ويزن 8 غم أو 180 حبة.

(32) المادتان 204 و205 من قانون حمورابي.

(33) المانا: نوع من الوز البابلي ويزن 500 غم ويعادل ستين شاقلاً.

(34) المادتان 196 و198 من قانون حمورابي.

مستوى حياة المجتمع البابلي، ونظمه الحضارية، كانت أرقى من مستوى المجتمع اليهودي بالرغم من أن اليهود، ظهروا بعد زمن حمورابي بأكثر من خمسمائة عام.

ويلاحظ أن التلمود الذي وضع في بابل تناول الكثير من القضايا المتعلقة بالأراضي وإنشاء الجداول، وصيانة السداد، ومعالجة القضايا المتعلقة بشؤون الزراعة المرتكزة على الري أكثرها مقتبس من انظمة الحياة البابلية بعد أن أخذ اليهود يمارسون الزراعة على الري في بابل بعد السبي[35].

ولدينا من الدلائل على أن مدوّني التوراة، كانوا مطلعين على الشرائع المختلفة التي وضعها المصريون في مصر، والسومريون والبابليون والاشوريون في العراق، وخاصة شريعة حمورابي التي اقتبسوا منها المواد المتشابهة بين الشريعتين، الشريعة البابلية، والشريعة الموسوية، سيما وأن اليهود قد سباهم الأشوريون بأيام سنحاريب واسرحدون، والكلديون بأيام نبوخذ نصر.

وفيما يلي بعض المقارنات في وجه التشابه بينهما، وهو صميم بحثنا:

1 ـ مبدأ القصاص

حكم العين بالعين والسّن بالسّن

إن التقليد القديم الذي ينطوي على حكم العين بالعين، والسّن بالسّن، ورد في شريعة حمورابي، وقد ورد نفسه نصاً في المدونات التوراتية:

ففي شريعة حمورابي جاء:

---

(35) جرى بأيام الملك نبوخذ نصر سنة (587) ق. م.

المادة 196

«إذا سيد فَقَأ عين ابن أحد الأشراف، فعليهم أن يَفقَأوا عينه».

المادة 197

«إذا كَسَرَ عظم سيد آخر، فعليهم أن يكسروا عظمه».

المادة 200

«إذا سيد قَلَعَ سّن سيد من طبقته، فعليهم أن يقلعوا سّنه».

المادة 229

«إذا بنى بَنّاء لرجل داراً ولم يقوّ عمله بحيث إنهار البيت الذي بناه، وسبَّب قتل صاحب البيت، فيجب أن يُقْتَل ذلك البنّاء».

المادة 230

«فإن سبَّب قتل ابن صاحب البيت، فعليهم، أن يَقتُلوا ابن هذا البنّاء».

ولقد اقتبس موسى هذه المواد وأدرجها بشريعته كما يلي:

«وإن تأتِ ضرر، تَبيء نفساً بنفس، وعيناً بعين، وسّناً بسّن، ويداً بيد، ورجلاً برجل، وكيّا بكي، وجراحة بجراحة، ورضّا برضّ». (سفر **الخروج 21/ 23 ـ 25**).

«ومن قَتَل إنساناً يُقتَل قتلاً. ومن قَتَلَ بهيمة فَلْيُعوِّض مثلها، رأساً بَدَلَ رأس. وأي إنسان أحدث عيباً في قريبه، فَليُصْنَع به كما صَنَع. الكسرُ بالكسر، والعينُ بالعين، والسّنُ بالسّن، كالعيبِ الذي يُحدِثُه في الإنسان يُحدَث فيه. ومن قَتَلَ بهيمة يعوّضَها، ومن قَتَلَ إنساناً يقتل». (**أحبار 24/ 27 ـ 21**).

«لا تُشفِق عينُك، النفس بالنفس، والعين بالعين، والسّن بالسّن،

واليد باليد، والرجل بالرجل». (تثنية 19/ 21).

2 ـ عقوبة تهريب الرقيق أو سرقة إنسان وبيعه

إن عقوبة تهريب الرقيق، أو سرقة إنسان وبيعه، هي الحكم بالموت في كلتا الشريعتين البابلية والتوراتية.

ففي حكم شريعة حمورابي يُعدَم كل من احتفظ برقيق في بيته، أو ساعد رقيقاً هارباً، أو أمة هاربة.

المادة 14

«إذا سرق رجل ابناً لسيد آخر، فيجب أن يُعدَم».

المادة 15

«إذا سيد ساعد إما رقيقاً للدولة أو أَمَةَ تعود للدولة أو رقيقاً لمواطن عادي أو أَمَةَ لمواطن عادي على الهروب من باب المدينة فإنه يُعدَم».

المادة 16

«إذا سيد آوى في بيته إما رقيقاً هارباً أو أَمَةَ تعود إلى الدولة أو إلى مواطن عادي ولم يَقُدْه إلى مخفر الشرطة فإن صاحب البيت هذا يُعدَم».

المادة 17

«إذا سيد قَبضَ على رقيق هارب أو أَمَةَ هاربة في العراء وأخذه إلى صاحبه، فعلى صاحب الرقيق أن يَدفَع له شِيقَلَين من الفضة».

المادة 18

«فإذا لم يُسَمِ ذلك الرقيق مالكه، فعليه أن يأخذه إلى القصر لكي تتحرى هويته وعلَيهم أن يُعيدوه إلى مالكِهِ».

المادة 19

«فإذا كان قد أُحتُفِظَ بذلك الرقيق في بيته، ثم وُجِدَ الرقيق بعدئذٍ في حَوزته فذلك السيد يُعدَم».

المادة 20

«فإذا هرب الرقيق من يد قابضه، فعلى ذلك السيد أن يؤكد بالإله لصاحب الرقيق وعندئذٍ يذهب لحاله»[36].

ومثل ذلك في حكم شريعة موسى، فمن سرق إنساناً، وباعه، أو وُجِدَ في يده، يُقتَل قَتلاً.

«ومن خَطَفَ أحداً فباعه أو وُجِدَ في يده فليُقتَل قَتلاً». **(سفر الخروج 21/ 16)**.

3 ـ عقوبة انتهاك حرمة الأبوين

إن لكل من الشريعتين حكماً في ذلك، فشريعة الملك حمورابي، تحكم بقطع اليد إذا ضَرَبَ أحد والده:

المادة 195

«إذا ولد ضرب والدَه فعليهم أن يَقطَعوا يَدَهُ».

في حين أن شريعة موسى تحكم عليه بالقَتل.

«ومن ضرب أباه أو أمَّه فليُقتَل قَتلاً. ومن لَعَنَ أباه أو أمَّه فليُقتَل قتلاً». **(سفر الخروج 21/ 15 ـ 17)**.

4 ـ عقوبات الزنى والاغتصاب

إن وجه التشابه بين أحكام الشريعتين في ذلك ظاهر، فحكم الموت

---

(36) وقد عالجت شريعة حمورابي بشيء من التفصيل في المواد من المادة 278 إلى المادة 282 تعيين حدود الرقيق، وحقوقهم وواجباتهم لما للرقيق من دور مهم في حياة المجتمع البابلي.

على الزاني والمغتصب، ويُفْرَضَ في كِلتَا الشريعتين، وقد تناولت ذلك في المواد:

المادة 129

«إذا قُبِضَ على امرأةِ سيد مضطجعةً مع سيد ثان، فيجب عليهم أن يُوثقوهما ويُلقونَهما في الماء ويمكن لزوج المرأة أن يُبقي زوجتَه على قيد الحياة إن رَغِبَ، كما يمكن للملك أن يُخلّي حياة أَمَتِهِ».

المادة 130

«إذا اغتصب شخص عفاف زوجةِ سيد لم يَسْبُقَ لها أن تعرَّفت على رجل، ولمّا تزل في بيت والدها، ونام في حُضنِها وقُبِضَ عليه أثناء ذلك، فإن هذا الرجل يُقتَل وهذه المرأة تُترَك».

المادة 132

«إذا وُجِّهَت الأصبع على زوجة سيد بسبب رجل آخر ولكنها لم تُقبَض أثناء اضطجاعها مع الرجل الآخر، فعليها أن تُلقي نفسَها في النهر لأجل زوجها».

المادة 133 ب

«إذا لم تُحافِظ تلك المرأة على نفسها ودخلت بيت شخص آخر فعليهم أن يُثبتوا هذا على تلك المرأة ويُلقونَها في الماء».

وفي شريعة موسى، إذا وُجِد رجل مضطجعاً مع امرأة زوجة بعل يُقتَل الاثنان الرجل المضطجع مع المرأة. وتفرض الشريعة الموسوية حكم الموت أيضاً في الأحوال التالية: إذا اضطجع رجل مع امرأة أبيه فيُقتَلان كلاهما، وإذا اضطجع رجل مع كنته فإنهما يقتلان كلاهما، وإذا اضطجع رجل مع ذكر إضطجاع امرأة فإنهما يُقتلان. . . . إلخ.

«وإن وجد رجل مضاجعاً امرأة ذات بعل فليُقتَلا جميعاً الرجل المضاجع لها والمرأة واقلِع الشر من إسرائيل». **(تثنية الاشتراع 22/ 22)**.

«ومع زوجة صاحبك لا تجعل لك مضاجعة زرع ولا تتنجّس بها»، «والذكر فلا تضاجعه مضاجعة النساء إنها رجاسة». (**سفر الأحبار 18/ 19 ـ 22**).

«وأي رجل زنى بامرأة، إن زنى بامرأة قريبة فليُقتَل الزاني والزانية. وإن ضاجع أحد زوجة أبيه فقد كشف سوءة أبيه فليُقتَلا كلاهما دمهما عليهما. وإن ضاجع أحد كنته فليُقتلا كلاهما أنهما صنعا فاحشة دمهما عليهما. وإن ضاجع أحد ذكراً مضاجعة النساء فقد صنعا كلاهما رجساً فليُقتلا دهما عليهما. وإن اتخذ أحد امرأة وأمها فتلك فاحشة فليُحرَق هو وهما بالنار ولا تكن فاحشة فيما بينكم». (**الأحبار 20/ 10 ـ 14**).

ومثل ذلك فرضت شريعة حمورابي ـ قبل موسى بقرون ـ حكم الموت في حالة اضطجاع رجل مع كنته، أما في حالة اضطجاع رجل مع أُمِّهِ فيحرقان كلاهما[37].

المادة 155

«إذا سيد اختار عروسة لابنه ودخل بها ابنه، ولكن بعدئذٍ ينام هو بنفسه في حُجْرِها فيقبضون عليه. فيجب عليهم أن يُوثقوا ذلك الرجل ويُلقونه في الماء».

المادة 157

«إذا نام سيد في حُجر أُمِهِ بعد والده (بعد وفاة والده)، فعليهم أن يُحْرِقوا كليهما».

المادة 143

«إذا لم تكن متحفظة[38] وتخرج وتُخَرّب بيتها وتَحطُّ من شرف زوجها، فيجب عليهم أن يُلقوا تلك المرأة في الماء.

---

(37) الملاحظ، أن قوانين حمورابي خالية من مواد تتعلق باللواطة.

(38) أي تتاجر بجسمها خلسة.

«إن راود رجل جارية بكراً لم تخطب فغشيها فليمهرها زوجة له». (سفر الخروج 22/ 16).

5 ـ عقوبة السرقات والنهب

هنا تختلف الأحكام بين الشريعتين، فشريعة حمورابي، أشد في عقوباتها، إذ تفرض عقوبة الإعدام في جميع قضايا السرقات، والنهب بوجه عام. فإذا سيد قام بالسرقة وقبض عليه في أثنائها فإنه يُعدَم. وإذا سرق سيد ثروة تعود للآله أو للقصر فإن ذلك الشخص يُعدَم، كذلك يُعدَم من يَتقبَّل المسروقات من يده، وهناك مواد كثيرة تحكم بالموت على السارق وهي:

المادة 6

«إذا سرق سيد ثروة تعود للإله أو للقصر[39]، فإن ذلك الشخص يعدم كذلك يعدم من يتقبل المسروقات من يده».

المادة 8

«إذا سرق سيد إما ثوراً أو شاة أو حماراً أو خنزيراً أو قارباً، إذا كان يعود للإله أو للقصر فعليه أن يَعطي ثلاثين مَثَلاً أما إن كان يعود إلى مسكين[40]، فعليه أن يدفع عشرة أمثال كاملة، إذا السارق ليس لديه التعويض الكافي فإنه يُعدَم».

المادة 14

«إذا سيد سرق الابن الصغير لسيد آخر، فيجب أن يُعدَم»[41].

---

(39) المقصود بذلك هو الثروة التابعة للمعبد أو الدولة.

(40) المسكين تعني هنا شخصاً من الطبقة الوسطىٰ وكذلك شخصاً عادياً.

(41) إن المواد الخاصة بالسرقة وردت عقوباتها متباينة، متغايرة، وذلك في المواد الواقعة بين 6 و13 وفي المواد 22، 23، 25، 259، 260 و265 مما يدل على =

المادة 22

«إذا سيد قام بالسرقة وقُبِضَ عليه (في أثنائها) فإنه يُعدَم».

المادة 23

«إذا السارق لم يُقبَضُ عليه، فإن على السيد المسروق أن يشتكي للإله عن كل المسروقات وَعَمًّا فَقَد وعلى المدينة والحاكم الذي في أرضه ومنطقته حصلت السرقة أن يُعوِضَّه جميع ما فَقِدَ منه».

المادة 24

«فإن كانت نفس (قد فَقَدت أثناء السرقة)، فعلى المدينة والحاكم أن يَدفع منّا من الفضة لأهله».

المادة 25

«إذا النار شبت في بيت سيد وذهب سيد لإطفائها، فحطَّ عينَه على أموال صاحب البيت، ثم استملك أموال صاحب البيت فإن هذا الرجل يُلقى في النار هذه».

أما الشريعة الموسوية فهي تحكم بمبدأ التعويض بضعف المسروق إن وجد السارق، وإن لم يوجد السارق تُقدَم الدعوىٰ إلى الله فالذي يحكم الله بذنبه يُعوِّض صاحبَه باثنين.

= أن هذه المواد تعود إلى فترات مختلفة من تاريخ العراق القديم وكان حمورابي قد درجها جميعها في قوانينه. ويظهر أن المواد 7 و9 و10 و22 و25 التي تعاقب السرقة بالموت هي قديمة. كذلك يظهر لنا أن المادة 6 وضعت في زمن حمورابي وحددت عقوبة الموت على كل من يسرق أموالاً تتعلق بالمعبد أو الدولة وطبقت نفس العقوبة بحق من يتقبل هذه المسروقات أيضاً. كذلك تعديلاً حديثاً بالنسبة إلى زمن حمورابي في المادتين 8 و265 إذ تُخيّر المجرم بين الموت أو الغرامة. ثم نجد عقوبة السرقة في المادتين 259 و260 تكون بالغرامة فقط.

«إذا دفع إنسان إلى صاحبه فضة أو أمتعة ليحفظها فَسُرِقَت من منزله فإن وُجِدَ السارق عَوَّض مثلين. وإن لم يوجد السارق يقدِّم صاحب المنزل إلى الآلهة ليَحلُف أنه لم يَمْدُد يدَه إلى مُلك صاحبه. كل دعوى جنابه في ثور أو حمار أو شاة أو ثوب أو كل ضالة يقال فيها الأمر كذا فإلى الآلهة ترفع الدعوى، ومن تحكم الآلهة عليه يعوّض صاحبه مَثَلين. إذا دفع أحد إلى صاحبه حماراً أو ثوراً أو شاة أو شيئاً من سائر البهائم ليحفظه فمات أو تعيّب أو غُنِم ولم يَرَه رَاءٍ. فيمينُ بالرب تكون بينهما إنه لم يمدَّ يدَه إلى مُلك صاحبه فيَقبَلها الصاحب وهو لا يُعوِّض شيئاً». (**سفر الخروج 22/ 7 ـ 11**).

«أي إنسان خَطِيءَ وغدَر بالرب فجَحَدَ على قريبه وديعة أو أمانة أو مسلوباً أو غصبه شيئاً. أو وَجَد ضالَّة وجَحَدَها وحلف كاذباً على شيء من كل ما يفعله الإنسان فيخطأ به. إذا خطيء واثم فليردَ المسلوب الذي استَلَبه أو الغصب الذي غَصَبَه أو الوديعة التي استودعها أو الضالة التي وجدها. أو كلّ ما حلف عليه كاذباً يردّه بعينه وزيد عليه خمسة ويُعطه للذي هو له في يوم ذبيحة إثمه. وليأت إلى الكاهن بذبيحة للرب من إثمه كبشاً صحيحاً من الغنم تُقَوِّمَهُ بمقدار الإثم. فَيكفّر عنه الكاهن أمام الرب فيغفر له ما فعله من جميع ما يؤثم به». (**سفر الأحبار 6/ 2 ـ 7**).

ومن الملاحظ أن أسفار موسى تأخذ في مثل هذه القضايا بالحكم الإلهي حيث يمكن التكفير عن الذنوب بتقديم القرابين للإله عن طريق الكهنة[42].

وعلى الرغم مما تقدم فهناك تشابه في الشريعتين البابلية والموسوية في فرض عقوبة التعويض بإضعاف المسروق. فالمادة الثامنة من الشريعة البابلية تنص على التعويض بثلاثين مثلاً إذا سرق شخص ثوراً أو شاة أو حماراً أو خنزيراً أو قارباً يعود للإله أو للقصر، أما إن كان يعود إلى

---

(42) سفر العدد 5/ 11 ـ 28.

مسكين (شخص عادي) فعليه أن يدفع عشرة أمثال كاملة. وشبيه بذلك ورد في الشريعة الموسوية حيث ينص الإصحاح الثاني والعشرين سفر الخروج على التعويض بخمسة ثيران إذا كان المسروق ثوراً، وأربع من الغنم إذا كان المسروق شاة.

6 ـ عقوبة اتهام امرأة أو فتاة بالفحشاء دون إثبات

إن التشابه في العقوبة التي تفرضها كل من الشريعتين في هذا الباب واضح:

ففي شريعة حمورابي، إذا نَسَبَ شخص إلى امرأة الفحشاء ولكن لا يُثبِت عليها ذلك فيجب جَلبَ ذلك الرجل إمام القضاة ويُعَلّموا جبينه قصّاً.

المادة 127

«إذا سيد أومأ بإبهامه على عَيّنَة معبد أو على زوجة سيد ولكن لا يثبت عليها شيء فيجب جلب ذلك الرجل أمام القضاة ويُعَلّموا جبينه قصّاً.

ونجد مثل ذلك في شريعة موسى التي تترك إلى شيوخ المدينة تأديب الرجل وتغريمه بمقدار من الفضة.

«إذا تزوج رجل بمرأة ودخل بها ثم ابغضها، فنسبَ إليها ما يُوجِب الكلام فيها وأذاع عنها سُمعة قبيحة فقال إني اتخذت هذه المرأة فلما دنوت منها لم أجد لها عذرة، يأخذ الفتاة أبوها وأمها، ويُخرِجان علامة عذرة الفتاة إلى شيوخ المدينة إلى الباب، ويقول أبوها للشيوخ إني أعطيت ابنتي لهذا الرجل زوجة فأبغضها، وها هو ذا قد نسب إليها ما يوجب الكلام فيها قائلاً لم أجد ابنتكَ بِكراً وهذه علامة عذرة ابنتي ويبسطان الثوب أما شيوخ المدينة، فيأخذ شيوخ المدينة ذلك الرجل

ويؤدبونه، ويُغرّمونه مِئة من الفضة ويدفعونها إلى أبي الفتاة لإذاعته سمعة قبيحة على بكر من إسرائيل وتكون له زوجة ولا يستطيع أن يُطَلِقَّها طول عمره. وإن كان الأمر صحيحاً ولم تكن وجدت للفتاة عذرة فليُخرِجوا الفتاة إلى باب بيت أبيها ويرجمها جميع أهل مدينتها بالحجارة حتى تموت لأنها صنعت قباحة في إسرائيل بفجورها في بيت أبيها وأقلع الشر من بينكم». (تثنية الإشتراع 22/ 13 ـ 31).

7 ـ عقوبة الإتهام الكاذب والشهادة الكاذبة

إن الحكم في هذا الباب أشد صرامة في الشريعة البابلية منه في الشريعة الموسوية. ففي شريعة حمورابي إذا اتهم سيد سيداً، وأقام عليه دعوى بالقتل، ولكنه لم يستطع إثباتها، فإن المتهم يُعدَم، ومثل ذلك، إذا ادلى سيد بشهادة كاذبة في دعوى ما ولم تثبت صحتها، فإن كانت تلك الدعوى تتعلق بدعوى حياة فإن ذلك السيد يُعدَم.

المادة 1

«إذا اتهم سيد، سيداً وأقام عليه دعوى بالقتل ولكنه لم يَستَطِع إثباتها فإن المتهم يُعدَم».

المادة 3

«إذا أدلى سيد بشهادة كاذبة في دعوى ما ولم يُثبِت صحةَ الكلمات التي نَطَقَها، فإن كانت تلك الدعوى تتعلق بدعوى حياة فإن ذلك السيد يُعدَم».

المادة 11

«فإذا لم يقدم المالك (المعترف) بالمال المفقود شهوداً يؤيدون ماله المفقود، فهو إذاً غشاش وقام بشكاية كاذبة، فيجب أن يُعدَم.

أما في شريعة موسى فكانت العقوبة فيها أخف وطأة من شريعة حمورابي.

«إن قام على أحد شاهد زور فشهد عليه بردّة، فليقف الرجلان اللذان بينهما دعوى أمام الرب أمام الكهنة والقضاة الذين يكونون في تلك الأيام. وليستقص القضاة جيداً فإن كان الشاهد شاهد زور وقد شهد بباطل على أخيه. فاصنعوا به كما نوىٰ أن يصنع بأخيه واقلع الشر من بينكم. فيسمع الباقون ويخافوا ولا يعودوا يصنعون أيضاً مثل هذا الشر فيما بينكم، لا تشفق عينك، النفس بالنفس، والعين بالعين، والسّن بالسّن، واليد باليد والرجل بالرجل». **(تثنية الإشتراع 19/ 16 ـ 21)**.

8 ـ عقوبة السحر

إن السحر محرّم في الشريعتين: فحكم الشريعة الموسوية على الساحر والساحرة القتل:

«ساحرة لا تَسْتَبِقِ». **(سفر الخروج 22/ 18)**.

«لا يوجد فيكم من يُجيز ابنه أو ابنته في النار ولا من يتعاطى عِرافة ولا مشعبذ ولا متفائل ولا ساحر. ولا من يُرَقِّي رَقْيَّة ولا من يسأل جانّاً أو تابعة ولا من يستشير الموتىٰ، لأن كل من يصنع ذلك ممقوت عند الرب ولأجل تلك الرجاسات سيطرد الرب إلهك أولئك من وجهك». **(سفر تثنية الإشتراع 18/ 10 ـ 13)**.

أما الشريعة البابلية التي عنها اقتبست الشريعة التوراتية فحكم المادة الثانية على الساحر بما يلي:

المادة 2

«إذا اشتكى سيد على سيد بتهمة السحر ولكنه لم يثبتها فإن على الذي أقيمت عليه الدعوى بتهمة السحر أن يذهب إلى النهر[43] وعليه أن

(43) المقصود النهر هو نهر الفرات، وقد كانت له قدسية عند البابليين بأنه مطهر =

يرمي نفسه في النهر، فإذا غلبه النهر فإن على من اتهمه أن يستولي على ثروته فإذا أثبت النهر أن هذا السيد بريء وخرج منه سالماً فإن الذي اشتكى عليه بتهمة السحر يُعدَم. أما الذي ألقىٰ نفسه في النهر فعليه أن يستولي على ثروة المتهم.

9 ـ الديون وكيفية استيفائها

إن الشريعتين البابلية والموسوية، تُجوّز بيع خدمة أحد أفراد العائلة في حالة تَخَلّف المدين عن دفع الديون المستحقة عليه.

ففي الشريعة البابلية نصوص تنطوي على بيع خدمة الزوجة، أو الابنة، أو الابن؛ وعليهم أن يعملوا في بيت الدائن ثلاث سنوات وتعادلهم حريتهم في السنة الرابعة:

المادة 117

«إذا حان الاستحقاق[44] على سيد وباع[45] زوجته أو ابنه أو ابنته أو ارتبط بالخدمة فيجب عليهم أن يعملوا في بيت من اشتراهم أو الدائن ثلاث سنوات وتُعاد لهم حريتهم في السنة الرابعة».

المادة 118

«إذا أعطي رقيق أو أَمَة للخدمة[46]، واستملكه التاجر، فيستطيع بيعه

= ومظهر للحقائق وكان الشخص المتهم الذي ليس لتهمته شهود يُقيّد ويُرمى في النهر، فإن غرق فقد ذهب بجريرته وإن طاف فإنه بريء. والمرجح أن القصد من القائه في النهر هو التخويف للإقرار. (راجع مقال الدكتور محمود الأمين: (شعار سومر» في المجلة «سومر» ج/8 مجلد 2، 1952).

(44) أي استحقاق الدين.

(45) أي باع خدمة زوجته. . . . إلخ.

(46) أي قدمهما للدائن ليكونا: رقيقاً أو أمة لدى الدائن بدل دَينه والكلمة البابلية هي اعطاهما للعبودية.

ولا يحق له[47] بمطالبته».

المادة 119

«إذا استحق الدين على سيد وباع بالدراهم[48]، أَمَتَه التي ولدت له أولاداً ودفع صاحب الأمة الدراهم التي كان التاجر قد دفعها له. فله الحق أن يَعْتُقَ أَمَتَه».

أما شريعة موسى، فقد جعلت مدة الخدمة ست سنوات وفي السابعة يخرجون أحراراً مجّاناً.

«إذا ابتعت عبداً عبرانياً فليخدمك ست سنين، وفي السابعة يَخرج حُراً مجاناً. إن دخل وحده فليخرج وحده، وإن كان ذا زوج فلتخرج زَوَّجه معه. وإن زوجه مولاه بمرأة فولدت له بنين أو بنات فالمرأة وأولادها يكونون لمولاه وهو يخرج وحده. وإن قال العبد قد أحببت مولاي وزوجي وبني لا أخرج حراً، يُقَدمِه مولاه إلى الآلهة، يُقدمه إلى مصراع الباب أو قائمَتِه ويَثقب مولاه أذنه بالمِثقَب فيخدمه إلى الدهر. وإن باع رجل ابنته أمة فلا تخرج خروج العبيد. وإن كرهها مولاها الذي خطبها لنفسه فليدعها تفك وليس له أن يبيعها لقوم غرباء لأنه قد غدر بها. وإن أعطاها خطيبة لابنه فبحسب حكم البنات يعاملها. وإن تزوج بأخرى فلا يُنقِصُها من طعامها وكسوتها وأوقاتها. فإن أخلّ بواحدة من هذه الثلاث تخرج مجاناً بلا ثمن». (الخروج 21/2 ـ 11).

10 ـ التعويض عن الأضرار

إن هذا المبدأ، أي مبدأ التأمين والتعويض، سارت عليه الشريعتان في الأحوال المتشابهة.

---

(47) أي لا يحق له المطالبة باستعادة الرقيق أو الأمة.

(48) أي باع خدمة أَمَته.... إلخ.

ففي شريعة حمورابي، فقد جعلت التعويض في حالة الرعي في حقل ما أن يعطي الراعي لصاحب الحقل عشرين كوراً[49] من الحبوب لكل ثمانية عشر ايكو من الأراضي التي رعى فيها غنمه[50].

أما الشريعة الموسوية فإذا رعى إنسان حقلاً أو كرماً وَسَرَحَ مواشيه فَرَعَت في حقل غيره فمن أجود حقله، وأجود كرمه يعوّض.

«إذا رعى أحد حقلاً أو كرماً فأطلق بهيمته ورعت في حقل غيره فمن أجود حقله أو كرمه يعوض». (خروج 22/ 5).

11 ـ الأضرار الناجمة عن الغرق في بابل وعن الحريق في كنعان

وضعت الشريعة البابلية أربع مواد، تقضي بالتعويض عن الأضرار التي تحدث بالزروع من جراء الغرق والتي يسببها أشخاص نتيجة إهمالهم تقوية السدود ومراقبة جداولهم.

المادة 53

«إذا سيد تَهَاوَن كثيراً في تقوية سدّ حقله، ولم يُقوِّ سَدّه وحدثت كَسْرَةٌ في سَدّه فترك الماء يُخَرّب الأرض المزروعة، فعلى الشخص الذي حدث الكسر في سدّه أن يُعوّض الحبوب التي سبَّب تلفها».

المادة 54

«فإن كان غير قادر على تعويض الحبوب، فعليهم أن يبيعوه وأمواله، وعلى الفلاحين الذين اتلف الماء حبوبهم أن يقتسموا (الثمن)».

---

(49) الكور: نوع من المكاييل السومرية ويقابل عندنا الغَرْفَة ويعادل حوالي 180 حقة (1/ 2 8 بوشل) والايكو من مقاييس المساحات البابلية ويعادل 7/ 8 من الفدان (الايكر).

(50) انظر المواد 53 ـ 54 ـ 55 ـ 56 ـ 57. . . إلخ من قانون حمورابي.

المادة 55

«إذا أصبح سيد متهاوناً أثناء فتح جدوله للسقي، فترك الماء يطفو على حقل جاره فعليه أن يَكيل حبوباً بقدر ما يجاوره»[51].

المادة 56

«إذا سيد فتح الماء فخرب الشغل الذي تَمَّ في حقل جاره، فعليه أن يكيل له عشرة كور من الحبوب لكل ثمانية عشر ايكو».

ولعدم وجود أعمال رَيّ في كنعان، ولكون زروعها مهددة بخطر الحريق بالدرجة الأولى، فقد تضمنت شريعة موسى مادة تقضي بالتعويض عن الأضرار التي يُحدِثُها أشخاص نتيجة مرقهم الغلة بسبب إهمالهم أو تعمدهم إيقاد النار فيها.

«وإن خرجت نار ولاقت شوكاً وأحرقت أكداساً أو سنبلاً أو سائر ما في الحقول، فالذي أوقد النار يعوّض». (**سفر الخروج 22/ 6**).

12 ـ التزوج بأكثر من امرأة واحدة

تجوّز الشريعتان ذلك، ففي الشريعة البابلية، إذا تزوج شخص امرأة ولم تُنجب أولاداً، فلهذا الرجل أن يأخذ جارية كامرأة ثانية، ولا يجوز أن تتساوى مع الزوجة إلا إذا ولدت أولاداً[52].

---

(51) ويقصد بذلك بقدر ما هو مزروع في حقل جاره.

(52) هناك أكثر من «65» مادة في قانون حمورابي تتعلق بالشؤون العائلية كالزواج والطلاق والإرث والتبني، وكل ما له علاقة في الرابطة العائلية. وراجع بهذا الخصوص: كتاب جان امل ريك ـ مركز المرأة في قانون حمورابي وفي القانون الموسوي ـ 1926. وكتاب الأستاذ رضا جواد الهاشمي ـ نظام العائلة في العهد البابلي القديم ـ النجف ـ 1971. وكتاب السيدة ثلماستيان عقراوي ـ المرأة، دورها ومكانتها في حضارة وادي الرافدين ـ بغداد 1978.

المادة 114

«إذا أخذ سيد زوجة[53]، واعطت هذه الزوجة جارية لزوجها فولدت أولاداً، ثم أراد هذا الرجل أن يأخذ جارية[54]، فيجب عليهم أن لا يسمحوا لهذا الرجل لأنه يجب أن يتزوج امرأة ثانية».

المادة 145

«إذا تزوج سيد زوجة ولم تَهْدِ[55]، له أولاداً وقرر أن يأخذ جارية، فلهذا الرجل أن يأخذ جارية ويأتي بها إلى بيته، انها امرأة ثانية، ولا يجوز أن تتساوى مع الزوجة».

المادة 146

«إذا سيد تزوج زوجة وأعطت لزوجها جارية فولدت أولاداً، فإن هذه الجارية تتساوى بعد ذلك مع سيدتها لأنها ولدت أولاداً ولا يجوز لسيدتها أن تبيعها بالفضة أو تضعها في السلاسل أو تَعُدَّها من الأمات».

المادة 147

«فإذا لا تلد أولاداً فتستطيع سيدتها أن تبيعها بالفضة».

وفي مدونات التوراة ما يشير إلى جواز ذلك أيضاً:

«أما ساراي امرأة أبرام فلم تلد له. وكانت لها أَمَةٌ مصرية اسمها

---

(53) إن قوانين حمورابي فرقت بين النساء فسمت المرأة Sinnishtum وسمت الزوجة ashshatum، وَسَمَّت نوعاً آخر باسم Ishppatum وهي التي يترجمها Meekبتحفظ الأردول hierodule أي بغية المعبد وهي المرأة التي وهبت نفسها للإله. وفي هذه المادة يسميها أيضاً أردول. بينما في النص الأصلي ashshatum أي امرأة (متزوجة) ومن المحتمل تعني امرأة مطلقة أو أرملة.

(54) راجع .Meissner Seltene Aaarische Idogramme No. 5124 عن الدكتور محمود الأمين ـ قوانين حمورابي ص 48.

(55) إن الكلمة انجب ينجب: تعني في البابلية القديمة يهدي.

هاجر. فقالت ساراي لأبرام هو ذا قد حبسني الرب عن الولادة فادخل على أَمَتي لعل بيتي يُبنىٰ منها. فسمع إبرام لقول ساراي فأخذت ساراي امرأة إبرام هاجر المصرية أَمَتَها من بعد عشر سنين من مقام إبرام في أرض كنعان فأعطتها لأبرام رجلها لتكون له زوجة. فدخل على هاجر فحملت. فلما رأت أنها قد حملت هانت مولاتها في عينيها. فقالت ساراي لأبرام ظلمي عليك. أني دفعت أمتي إلى حجرك فلما رأت أنها قد حملت هُنتُ في عينيها. يحكم الرب بيني وبينك. فقال أبرام لساراي هذه أمتك في يدك اصنعي بها ما يحسن في عينك. فأذلتها ساراي فهربت من وجهها. . . .». (**سفر التكوين 16/ 61**).

«ولما رأت راحيل أنها لم تلد ليعقوب غارت من أختها وقالت ليعقوب هب لي ولداً وإلا فإني أموت. فاستشاط يعقوب على راحيل غضباً وقال العلي أنا مكان الله الذي مَنَعَك ثمرة البطن. قالت هذه أمتي بَلَهة ادخل بها فتلد على ركتبي ويُبنىٰ بيتي أنا أيضاً منها. فأعطته أَمَتَها بَلهة امرأة فدخل بها يعقوب، فحملت بلهة وولدت ليعقوب ابناً. فقالت راحيل قد حكم الله لي وسمع لصوتي فرزقني ابناً وسمّته دانا. . . . ورأت ليئة أنها قد توقفت عن الولادة فأخذت زلفة أمتها وأعطتها ليعقوب امرأة، فولدت زلفة أمة ليئة ليعقوب ابناً فقالت ليئة: بجدّي وسمّته جاداً. . . .» (**سفر التكوين 30/ 1 ـ 12**).

13 ـ شؤون حياتية عامة

هناك شؤون حياتية يومية عامة، أدرجتها شريعة الملك حمورابي لتنظيم أمور الأفراد في المجتمع منها[56].

(56) هناك مواد أخرى لم ندرجها هنا تتعلق بالعقوبات والتعويض وغرامات نقض الإتفاقيات والعقود والتعهدات (196 ـ 227).

المادة 195

«إذا ضَرَبَ ولد والدهَ فعليهم أن يَقطعوا يَدَه».

المادة 202

«إذا سيد صفع خَدَّ سيد أرفع منه فيجب أن يُضرَبَ ستين جلدة بجلدة من ذَنَبِ الثور في المحكمة».

المادة 204

«إذا شخص اعتيادي صفع آخر اعتيادياً على خده فعليه أن يدفع 10 شقلات من الفضة».

المادة 206

«إذا سيد ضرب سيداً آخر في شجار وسبَّب له جرحاً فعلى ذلك السيد أن يقسم «لم أضربه متعمداً» وعليه أيضاً أن يدفع للطبيب».

المادة 209

«إذا سيد ضرب بنت سيد فسبب لها الإجهاض (إسقاط الجنين) فعليه أن يدفع عشرة شقلات من الفضة لإسقاط جنينها».

المادة 210

«إذا تلك المرأة توفيت فيجب إعدام بنته».

المادة 225

«فإذا عمل لعجل أو حمار جرحاً ثقيلاً فأَمَاتَهُ فعليه أن يدفع لصاحب العجل أو الحمار خمس ثمنه».

المادة 251

«إذا كان عجل سيد نطاحاً وأظهر له خطأه أنه نطّاح ولم يقص قرنيه أو لم يربط عجله. فإذا هذا العجل نطح سيداً فأماته فعليه أن يعطى نصف مانا من الفضة».

ولقد أوردت الشريعة الموسوية مثل هذه التشريعات في سفر الخروج وكما يلي:

«ومن ضرب أباه أو أمه فليُقْتَل قتلاً. . . . وإذا اختصم رجلان فضرب أحدهما صاحبه بحَجَر أو لَكَمَه فلم يمت بل ألقي في الفراش. . . . وإذا اختصم قوم فعَدَموا امرأة حَامِلاً فسقط الجنين ولم يَتَأَتَّ ضرر فَلْيُغَرَّم الصادم كما يفرض عليه بعل المرأة ويؤدّي عن يد القضاة، وإن تأتّى ضرر تبيء نفساً بنفس. . . . وإن نطح ثور رجلاً أو امرأة فمات فليُرجَم الثور ولا يُؤكَل من لحمه وربّ الثور بريء». سفر الخروج 21/15 ـ 18 ـ 22 ـ 23 ـ 28).

14 ـ السرقة والوديعة والدية

قد صَرَّحت شريعة حمورابي بعقوبة السارق بالإعدام وقر مرّ بنا هذا في موضوع «عقوبة التهريب والسرقة» وكذا أورد موسى النبي في شريعته. أما الودائع فقد شرّع لها المشرّع العراقي مادة للمحافظة عليها وإرجاعها إلى صاحبها وكذلك بدفع الدِيَّة نتيجة المخاصمة.

المادة 125

«إذا أعطى سيد شيئاً من أمواله قصد المحافظة[57]، وفي المكان الذي أعطاها فَقَدَ مالَه مع أموال صاحب البيت نتيجة لسرقة أو نهب، فيجب على صاحب الدار الذي كان مُهمِلاً فسبَّب فُقدان ما وُضِعَ لديه للمحافظة أن يُعَوِّض كاملاً لصاحب المال كل ما وَضَع لديه للمحافظة، وما فُقِدَ منه، ويجب على صاحب الدار أن يبحث عن المال المفقود ويأخذها من سارقها.

(57) ويقصد بالمحافظة «الإيداع على سبيل الأمانة أو الأجرة».

المادة 126

«إذا سيد لم يَفقُد شيئاً من ماله ولكنه يقول «إن ماله قد فُقِدَ» ويريد أن يشتكي بسبب الخسارة المزعومة، فبالنسبة لماله الذي لم يَفقُدْهُ، وشكواه أمام الإله بالخسارة المزعومة، يجب عليه أن يدفع كل ما اشتكى بسببه مَثَلَين، بدل الخسارة المزعومة».

وبالضبط ورد هذا في شريعة موسى القائلة:

«إذا دفع إنسان إلى صاحبه فضة أو أمتعة ليحفظها فَسُرِقَت من منزله فإن وجد السارق عَوَّضَ مَثَلَين. وإن لم يوجد السارق يُقَدَّم صاحب المنزل إلى الآلهة ليحلف أنه لم يَمْدُد يده إلى مُلْكِ صاحبه. كل دعوى جناية في ثور أو حمار أو شاة أو ثوب أو كل ضالة يقال فيهاالأمر كذا فإلى الآلهة تُرفَع الدعوى ومن تحكم الآلهة عليه يُعَوّض صاحبه مَثَلَين». (سفر الخروج 22/ 7 ـ 9).

15 ـ المخالفات

جاء في شريعة حمورابي:

المادة 57

«إذا لم يتفق راعٍ مع صاحب الحقل على رعي غنمه من العشب، ولكنه ترك الغنم ترعى في الحقل بلا موافقة صاحب الحقل، فعندما يَحْصُد صاحب الحقل حقله، فعلى الراعي الذي ترك الغنم ترعىٰ في الحقل بلا موافقة صاحب الحقل، أن يَعطي لصاحب الحقل عشرين كوراً من الحبوب لكل ثمانية عشر ايكو».

المادة 58

«إذا الراعي، بعد أن كانت الأغنامُ قد انسحبت من المرعىٰ وبعد أن تكون جميعُ الأغنام قد دخلت باب المدينة وغلق عليها الباب، يقود

الغنم إلى الحقل ويدعها ترعىٰ من الحقل، فعلىٰ الراعي أن يهتم بأمر الحقل الذي رعىٰ فيه وعليه وقتَ الحصاد أن يكيلَ لصاحب الحقل ستين كوراً من الحبوب لكل ثمانية عشر ايكو».

وأورد موسى النبي في شريعته ما ينطبق وما جاء في الشريعة البابلية:

«إذا رعىٰ أحد حقلاً أو كَرْماً فأطلق بهيمَتَه ورعت في حقلِ غيره فِمن أَجوَد حقله أو كرمه يُعَوّض». (**الخروج 22/ 5**).

16 ـ استخدام الحيوانات

بيّن حمورابي في شريعته أن كل عمل يستحق الأجرة وبعدالة كيما تستمر الحياة في المجتمع الزراعي فدوّن.

المادة 242

«إذا سيد استأجر ثوراً[58] لمدة سنة، فعليه أن يدفع أجرة الثور في نهاية السنة 4 كور من الحبوب».

المادة 254

«إذا كان قد تصرف بالطعام وجوّع البقر فعليه أن يعوّض الحبوب التي استلمها بضعفين».

كذلك بيّن موسى النبي في شريعته بذات الطرح الذي طرحه حمورابي قبله بعدة قرون.

«وإن استعار أحد من صاحبه شيئاً فانكسر أو مات، وليس ربّه معه يعوِّض. وإن كان ربّه معه فلا يُعوِّض. وإن كان مستأجراً فقد قضىٰ بأجرته». (**الخروج 22/ 14**).

---

(58) يستأجر حيواناً، عجلاً أو ثوراً. . . . إلخ.

17 ـ مبدأ الأشياء في العقود

سنّ حمورابي في شريعته بنوداً تخص العقود والإتفاقيات بين الأشخاص وتبين مبدأ التعويض فيها بعد ختم العقد أمام شهود لغاية الاستلام والتسليم.

المادة 120

«إذا أودع سيد غلّته في بيت سيد لخزنها وتضررت بسبب نشوب حرب، أو أن صاحب البيت فتح العنبار وأخذ الغَلّة، أو أنه أنكر الغلّة كلها، التي خزنها في بيته، فإن على صاحب الغَلّة أن يشتكي أمام الآله ويجب على صاحب البيت الذي أخذ الغَلة أن يدفع ضعفها لصاحب الغَلة.

المادة 122

«إذا أراد سيد أن يعطي فضة أو ذهباً أو أي شيء لسيدٍ قَصْدَ المحافظة عليها، فيجب عليه أن يشهد على ما يعطيه شهوداً وأن يجعل بذلك عقوداً ومن ثم يودعها للمحافظة».

المادة 124

«إذا أعطى سيد سيداً فضة أو ذهباً أو أي شيء آخر أمام شهود للمحافظة عليها، فأنكرها ومن ثم اثبتوا ذلك على هذا السيد، فيجب عليه أن يدفع ضعف ما أنكره».

وبذات المعنى وضع موسى النبي البنود الخاصة في العقود.

«إذا دفع إنسان إلى صاحبه فضة أو أمتعة ليحفظها فَسُرِقَت من منزله فإن وُجِدَ السارق عَوَّضَ مَثْلَين. وإن لم يوجد السارق يُقَدَّمُ صاحب المنزل إلى الآلهة ليحلف أنه لم يَمْدُدْ يده إلى ملك صاحبه كل دعوى جنابة في ثور أو حمار أو شاة أو ثوب أو كل ضالة يقال فيها الأمر كذا

فإلى الآلهة ترفع الدعوى ومن تحكم الآلهة عليه يعوّض صاحبه مثلين. إذا دفع أحد إلى صاحبه حماراً أو ثوراً أو شاة أو شيئاً من سائر البهائم ليحفظه فمات أو تعيّب أو غُنِم ولم يره راء، فيمين بالرب تكون بينهما.... أنه لم يمدّ يده إلى ملك صاحبه فيقبلها الصاحب وهو لا يعوّض شيئاً». (سفر الخروج 22/7 ـ 11.

18 ـ الشيقل

يعتبر (الشيقل) أقدم وحدة للتعامل النقدي في التاريخ، ويمكن اعتباره من المخترعات الرفيعة التي تدين له التجارة الدولية في عصرنا الراهن، وكان من أسباب الازدهار الإقتصادي لشعوب تلك المنطقة ولمعظم الأقطار المجاورة آنذاك.

ويرجع تاريخ التعامل بالشيقل إلى العهود السومرية الأكدية بحدود الألف الثالث قبل الميلاد، وقد استمر بهذه الفئة، تارة كوحدة للوزن، وتارة كوحدة نقدية حتى عصور متأخرة. بل ان (اطنا) وهي إحدى مضاعفات (الشيقل) لا تزال تستعمل في العراق للكيل حتى يومنا هذا.

وتفيدنا متابعة التسلسل الزمني لاستخدامات الشيقل كما وردت في الشرائع العراقية القديمة، والمكتشفات، والرسائل المتبادلة بين المتعاملين الذين كانوا يعتمدون هذه الوحدة النقدية كوسيلة من وسائل تسوية المدفوعات، وأداة لقياس القيم. وكذلك ما أورده العهد القديم (الأسفار الموسوية الخمسة) من إشارات للشيقل كوحدة للتعامل عند الكنعانيين، وفيما بعد عند العبرانيين عند احتلالهم لأرض فلسطين.

فقد ورد ذكر الشيقل في شريعة أورنمو (سلالة أور الثالثة) (2111 ـ 2003 ق .م) وشريعة لبت عشتار (1934 ـ 1924 ق .م) وشريعة اشنونا (حوالي 1900 ق .م).

أما في شريعة حمورابي (1792 ـ 1750 ق .م) فقد ورد ذكره في

المــــواد 204، 209، 211، 213، 215، 216، 217، 221، 222، 223، 228، 259، 260، 277. وفي هذا العهد كانت نسبة الذهب إلى الفضة 6/1، والحديد إلى الفضة يعادل ما بين 2، 2/2 1 مَنَا أو 140 شيقل من النحاس.

أما في التوراة (الأسفار الموسوية الخمسة) فقد ورد ذكر الشيقل فيها وفي غيرها من أسفار العهد القديم المدونة خلال الفترة من 600 ـ 200 ق .م مرات عديدة لا حاجة لذكرها خوف الإطالة والملل[59].

19 ـ الإختبار المائي

ورد ذكر الاختبار النهري في مادتين من قانون حمورابي، (2، 132) تتعلق الأولى باتهام شخص بأعمال السحر من قبل شخص آخر، ولم يوفر المتهم الأدلة الثبوتية، على الساحر، فتقرر القوانين في مثل هذه الحالة أن يلجأ إلى الاختبار النهري. فَيعمد المتهم في هذا الاختبار إلى رمي نفسه في النهر، فإذا أغرقه النهر نال العقوبة التي توافق فعلته، وهي الموت. فيأخذ عندئذٍ بتهمة بيته. أما إذا طفى فوق الماء ولم يغرقه لنهر، فَيعمَّد ذلك دليلاً على براءته من التهمة الموجهة إليه، فَيُقْتَل بعد ذلك متهمه عملاً بأحكام المادة الأولى من قانون حمورابي التي تقرر إعدام المتهم إذا لم يستطع إثبات تهمة القتل التي اتهم بها شخصاً آخر.

أما المادة (132) فتنطوي على موضوع اتهام زوجة رجل بعلاقة غير

---

(59) وفي وقتنا الحاضر، وبالدقة في 24 شباط 1980م أعلن في إسرائيل عن إصدار عُملة جديدة إلى التداول، أطلق عليها اسم (الشيقل) وأجزاء الشيقل هي (الأغوره) وكل مائة وحدة منها تعادل شيقلاً واحداً. إن هذه العملية هي واقعة الابتزاز التاريخي من أجل أن تعطي لتقاليدها مظهراً براقاً وتسبغ عليه المحتوى الديني والسياسي في ذات الوقت متجاوزه بذلك حقائق التاريخ حتى تطلب الأمر افتعال الكذب وتزوير الحقائق بصفاقة لم يألفها أي شعب في العالم.

شرعية مع رجل آخر، وتفتقر التهمة هذه أيضاً إلى الأدلة الثبوتية اللازمة، حيث يرد في المادة أنه لم يُقْبَض عليها في حالة اضطجاع مع رجل آخر فعلى الزوجة أن تؤدي الاختبار النهري لتثبت أمام زوجها بطلان التهمة وسلامة سلوكها.

أما عن طبيعة هذا الامتحان وظروفه، فلا يزال الأمر غامضاً من جوانب عديدة، فهل كان الممتحن يقيد قبل رمي نفسه في النهر، أو يبقى طليق الذراعين؟ وهل هناك نهر معين لأداء هذه الامتحانات؟ أن ما يمكننا قوله بهذا الشأن اعتماداً على المصادر القديمة المتوفرة أنه لم يكن المقصود بالنهر نهراً معيناً كدجلة والفرات، وإنما أي نهر قريب من محل المحاكمة، كما يعتقد من مضمون كلمة «يرمي» أي الممتحن كان يلجأ إلى رمي نفسه بنفسه دون تقييد لأنه في حالة تقييدهم له كان المتوقع من الفعل أن يرد بصيغة المبني للمجهول (يُرمى) أي يُدْفَع إلى النهر من قبل آخرين وهذه الصيغة للفعل استخدمت عند الإشارة إلى تنفيذ عقوبة الموت برمي المجرم في النهر، ففي مواد أخرى من القانون، تثبت الجريمة على الشخص ويحكم عليه بالموت، وتحدد طريقة الإعدام وهي الرمي في النهر (مادة 133ب، 143) فعلى الأغلب أنه يُقَيَد ليُمنَع من الحركة ويُرمَى في النهر من قبل الآخرين، وربما كانت تربط إليه بعض الأحجار الثقيلة. لتساعد على إنزاله إلى قعر النهر وطبيعياً أن تكون هذه الممارسة تختلف كلياً عن الاختبار النهري، حيث يَبرُز دور المعتقدات في نفسية الممتحن، التي يكون لها أثر كبير في شلّه عن الحركة وغَرَقه إن كان مذنباً.

وقد أورد العهد القديم (العدد 5/ 11 ـ 30) ما يشبه الاختبار المائي البابلي، ولكن بطريقة مغايرة، وكما يلي:

وكلّم الرب موسى قائلاً، كلّم بني إسرائيل وقل لهم، إذا زاغت امرأة وخانته خيانة، واضطجع معها رجل اضطجاع زرع وأخفت ذلك

عن عيني رجلها أو استترت وهي نجسة، وليس شاهد عليها وهي تُؤخذ، فاعتراه روح الغيرة، وغار على امرأته وهي ليست نجسة. يأتي الرجل بامرأته إلى الكاهن ويأتي بقربانها معها عُشْرِ الأيفة من طحين الشعير، لا يصّب عليه زيتاً ولا يجعل عليه لُبَانا لأنه تقدمةَ غَيْرَة، تقدمةَ تذكار تذكر ذنباً. فيقدّمها الكاهن ويوقفها أمام الرب. ويأخذ الكاهن ماء مقدساً في إناء خزف ويأخذ الكاهن من الغبار الذي في أرض المسكن ويجعله في الماء ويوقف الكاهن المرأة أمام الرب ويكشف رأس المرأة ويجعل في يديها تَقدِمَةَ التذكار التي هي تَقدِمة الغَيْرَةَ، وفي يد الكاهن يكون ماء اللّعنة المرّ ويستحلف الكاهن المرأة ويقول لها إن كان لم يضطجع معك رجل وإن كنت لم تزيغي إلى نجاسة من تحت رجلك فكوني بريئة من ماء اللعنة هذا المر، ولكن إن كنت قد زُغتِ من تحت رجلك وتَنجّستِ وجَعَلَ معك رجل غير رَجلَكِ مضجعه. يستحلف الكاهن المرأة بحلف اللعنة ويقول الكاهن للمرأة يجعلك الرب لعنة وحلفاً بين شعبك بأن يجعل الرب فخذك ساقطة وبطنك وارماً ويدخل ماء اللعنة هذا في أحشائك لورم البطن وإسقاط الفخذ. فتقول المرأة آمين آمين.

ويكتب الكاهن هذه اللعنات في الكتاب ثم يمحوها في الماء المر. ويسقي المرأة ماء اللعنة فيدخل فيها، ماء اللعنة للمرارة. ويأخذ الكاهن من يد المرأة تَقدِمَةَ الغيرة ويردّ التقدمة أمام الرب ويقدمها إلى المذبح. ويقبض الكاهن من التقدمة تذكارها ويوقده على المذبح. وبعد ذلك يسقي المرأة الماء. ومتىٰ أسقاها الماء، فإن كانت قد تنجست وخانت رجلها يدخل فيها ماء اللعنة للمرارة فيرم بطنها، وتسقط فخذها فتصير المرأة لعنة في وسط شعبها. وإن لم تكن المرأة قد تنجست بل كانت طاهرة تتبرأ وتحبل برزع.

هذه شريعة الغَيْرَة إذا زاغت المرأة من تحت رجلها وتنجست، أو إذا اعترى رجلاً روح الغَيرة فغار على امرأته يوقف المرأة أمام الرب

ويعمل لها الكاهن كل هذه الشريعة فتتبرأ من الذنب تلك المرأة وتحمل ذنبها[60].

20 ـ الوصايا العشر

كانت توجد لوحات حجرية شبيهة بالتي يذكرها سفر الخروج[61] في بلاد ما بين النهرين منذ القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد ـ كما سبق وشرحنا ـ وأبرز مثال لذلك هو قانون حمورابي؛ وإن طابع الحضارة المتجولة في العهد الذي نحن فيه يدفعنا إلى الإقرار بأن الطريقة نفسها كان يتبعها البدو الميالون إلى الحياة الحضرية، حتىٰ أولئك العائشون على حدود مصر[62].

إن الشرائع التي سنها موسىٰ للعبرانيين، قد أتت على شكل ملحق بالعهد، لأنها تعدو أن تكون وسائل ووسائط لحفظه، ولذا فهي قابلة للتحوير والتعديل، أو النسخ والإلغاء، على مرّ الأيام. وليست كلمة الناموس هنا بمعنىٰ التشريع بل يجب أن تفهم كلمة الناموس تتضمن بمعناها العام[63].

1 ـ الوصايا العشر في الدرجة الأولى.

2 ـ مجموعة من القوانين الأدبية والإجتماعية والإقتصادية من جهة والحياة الثقافية من جهة أخرى.

---

(60) راجع رضا جواد الهاشمي ـ نظام العائلة في العهد البابلي القديم ـ مطبعة الآداب ـ النجف ـ 1971. منشورات مكتبة الأندلس ـ بغداد ص 83 ـ 86.

(61) (سفر الخروج 24/12، 31/18).

(62) يوسف قوزي ـ الأسفار المقدسة ـ ج 1 ص 13.

(63) حتى الوصايا العشر التي يكاد يجمع العلماء على أنها الشيء الوحيد المتبقي من التوراة الأصلية، لم تكن بكاملها وعلى هيئتها الحالية كالتي جاء بها موسى. وهناك الكثير من التشابه والتطابق بين قوانين موسى والقوانين البابلية التي سبقتها بأمد بعيد. (انظر مقدمة البحث).

والوصايا العشر، أوامر ونواهي فرضها الرب ويجب العمل بها، والتي نجدها على رأس الناموس، فلا صعوبة إذن في الاعتراف بأن موسىٰ هو الذي نقش لوحي الشريعة، أي لوحي الوصايا، بعد أن أخذها عن شرائع أخرى، فاقتبسها وحورّها كما يحتاج المجتمع الجديد ونحن هنا نرجح أن موسى قصد بابل ودرس فيها وتعلم التشريع في هياكلها سيما في فترة التيه التي استمرت أربعين سنة. ومن الممكن أنهما كانا يمتازان بطابع أقدم وأبسط، حيث اعطيت الوصايا بصورة قطعية دون تقديم الأسباب والإيضاحات[64].

الوصية الأولى

«أنا الرب الهك، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي» (خروج 20/ 2 ـ 3)

تبدأ الوصايا العشر بتمجيد الله الذي وضع بنفسه أساس المجتمع الديني الجديد، هذا المجتمع الذي لا يعود إلى أية شريعة مدنية، بل يستقي قوته من الله الذي أنزل كل قانون وفرض كل عقوبة[65].

كذلك فعل حمورابي في مقدمة شريعته عندما اطرى في تمجيد آلهة

---

(64) إذا قابلنا النسختين الأساسيتين للوصايا (خروج 20/ 1 ـ 17، تثنية الإشتراع 5/ 6 ـ 21) تمكنا تقريباً من رؤية تلك الصورة البسيطة القديمة. وأننا نجد في مواضع أخرى نسخاً للوصية الفلانية أو الفلانية فهي أكثر إيجازاً. وقد تكون شاهداً كأنه أقدم للنص الذي نقش على اللوحين في عهد موسى (قابل مثلاً خروج 34/ 17 = 20/ 4) في خصوص الوصية الثانية. و(الخروج 34/ 14 ـ 16) لا يوضح بنود الوصية الثالثة المانعة عن عبادة الأصنام مثل (الخروج 20/ 5 ـ 6) لا شك أن القسم المشترك بينهما يمثل التشريع الموسوي. قابل أيضاً (خروج 34/ 21 = 20/ 8 ـ 11) فإن المشترعات الخاصة بالسبت تبدو بمظهر أكثر إيجازاً دون تبرير أو تفسير. وقد يكون النص الأول سابقاً للثاني في القدم.

(65) ول ديورانت: قصة الحضارة (ترجمة أحمد بدران) ج 2 مجلد 1 ـ ص 371.

المدن وتعظيمها[66]. فقد ذكر في مقدمته التي كتبت بأسلوب أدبي رائع أقرب إلى الشعر منه إلى النثر، ذكر الآلهة العظام التي فوّضت الأمر إلى الإله مردوخ[67]. إله مدينة بابل القومي لكي ينشر العدل في البلاد[68]، فوضع حمورابي بذلك الأساس الجديد للمجتمع العراقي القديم عندما أشرك كثيراً من الآلهة ومَجّدها في شريعته، فأخذت هذه الشريعة قدسية مطلقة مستمدة من سلطات الآلهة المعبودة في العراق القديم[69].

الوصية الثانية

«لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما» (خروج 20/ 4)

هذه الوصية تدعو إلى عدم الإشراك مع الله وعن تغيير المعتقدات أو الارتداد، وهذه الدعوة جاء ما يشابهها في خاتمة مسلة حمورابي حيث بيّن المشرّع أهداف هذه القوانين وكيفية الإستفادة منها مع التأكيد على اتباعها وعدم الإخلال بها، وإلا نزلت اللعنات على كل من يحاول تخريبها أو تحريفها أو ينسب مصدرها إلى ذاته أو يزيل المسلة ويمحو أثرها[70].

---

(66) د. فوزي رشيد ـ الشرائع العراقية القديمة ـ (بغداد 1973) ص 81.

(67) مردوخ هو إله بابل العظيم وبطل أسطورة الخليقة في التقليد البابلي، عرف معبده في بابل باسم (ايسكالا) وهو يلعب دوراً رئيسياً في أعياد رأس السنة البابلية.

(68) د. عامر سليمان: القانون في العراق القديم، ص 222.

(69) ان الاختلاف الوحيد، وهو أساسي، هو في مبدأ وحدانية الإله بحسب اليهود، بينما كان مبدأ الشرك (أي تعدد الآلهة) الأساس في عبادة العراقيين القدامى.

(70) د. عامر سليمان: القانون في العراق القديم، ص 223. وطه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج 1 ص 293.

الوصية الثالثة

«لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً» (خروج 20/ 7)

أي لا تحلف باسم الرب باطلاً أو كذباً «لأن الرب لا يبرىء من نطق باسمه باطلاً». كذلك فعل حمورابي. فهو يقول عن نفسه: «كتبت كلماتي القيّمة على مسلتي وثبتّها أمام تمثالي أنا الملك البارز بين الملوك: كلماتي مختارة وثورتي ليس لها مثيل بإرادة الإله شماش[71]، قاضي السماء والأرض العظيم، عسى أن تسود عدالتي البلاد، وبإرادة الإله مردوخ سيدي «عسىٰ أن لا يشوّه أحد تعليماتي»[72].

الوصية الرابعة

«اذكر يوم السبت لتقدسه» (خروج 20/ 8)

إن يوم السبت هو يوم الرب[73]: «لأن في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها واستراح في اليوم السابق لذلك بارك الرب يوم السبت وقدّسه».

إن مبدأ الأسبوع وتقسيم الشهر إلى أربعة أسابيع يرجع بالدرجة الأولى إلى التقويم البابلي. وقد كان العراقيون القدماء يعلقون أهمية خاصة على ملاحظة (اليوم السابع) من الشهر القمري فيستخدمونه لأغراض التنبؤ واستجلاء طوالع السعد والنحس. وهكذا قسموا الشهر القمري إلى أربعة أقسام متميزة، أي إلى أربعة أسابيع. ثم تطورت فكرة الأسبوع في القرون القليلة السابقة للتاريخ الميلادي، فصار الأسبوع

---

(71) الإله شماش: إله الحق والعدل والشرائع وهو الذي أملى على حمورابي شريعته المقدسة يرمز إليه قرص ذي أربعة خطوط تنبعث منها حزم مشعة.

(72) د. عامر سليمان: القانون في العراق القديم، ص 224.

(73) سفر الخروج 2/ 11.

وحدة متواصلة يجمع ما بين التقسيم البابلي ومبدأ السبت العبراني، وقصة خلقة العالم في ستة أيام كما جاءت في التوراة[74] وجعل اليوم السابع يوم إشراقه أي سبتا[75]. والسبت هو شباث في العبرية أي راحة، لأنه اليوم الذي استراح فيه الرب[76]. . . . كل هذا يجعل من السبت عند العبرانيين يوماً مقدساً، ولربما جاءت هذه العادة من البابليين، فقد كان هؤلاء يطلقون على أيام (الحرام) وأيام الصوم والدعاء اسم (شيبتو)[77].

الوصية الخامسة

«أكرم أباك وأمك» (خروج 20/ 12)

إنها دعوة إلى احترام الوالدين والعناية بهما من خلال تقديس الأسرة ووضعها في قلب البُنية الإجتماعية ولا تفوقها إلا منزلة الهيكل.

لقد تمتعت الأسرة العبرانية الأبوية بنظام اقتصادي وسياسي واسع النفوذ، فكان للأب على أفراد أسرته سلطان شبه مطلق، وكان في وسعه، إن كان فقيراً، أن يبيع ابنته أو أن يزوجها بمن يشاء. . . . وغير ذلك من السلطات المطلقة[78].

وقد خصص حمورابي جملة من القوانين توصي باحترام الوالدين وتمنحهم السلطة المطلقة للتصرف تجاه الأولاد الذين يقترفون الإثم. فقد جاء في المادة 169: «إذا اقترف الابن إثماً كثيراً يستوجب الحرمان من الإرث» وكذلك المادة 192: «إذا قال ابن تابع للقصر أو ابن حريم القصر

---

(74) سفر الخروج 2/ 11.
(75) مجلة آفاق عربية: خواطر وآراء في تراثنا الحضاري للمناقشة عدد 10 جزء 4 ص 43، 1977.
(76) د. ألفت محمد جلال: العقيدة الدينية والنظم التشريعية عند اليهود كما يصورها العهد القديم ـ بيروت 1974.
(77) ول ديورانت: قصة الحضارة. ص 373.
(78) المصدر السابق ص 474 ـ 475.

(بالتبني) لأبيه الذي رباه أو لأمه التي ربته: «أنتَ لستَ والدي أو أنتِ لستِ والدتي عليهم أن يقطعوا لسانه» المادة 195 ترجيع الصدى نفسه: «إذا ضرب ابن أباه فعليهم أن يقطعوا يده».

الوصية السادسة

«لا تقتل» (خروج 20/ 13)

إن التوراة نهت بهذه العبارة الوجيزة عن القتل بجميع أشكاله. ولكن المبدأ على مثاليته صعب المنال، فأسفار العهد القديم مليئة بأحاديث القتل والتدمير.

أما بالنسبة لحمورابي فقد وضع قوانين مفصلة في شريعته حول هذا الموضوع وأوجد مبدأ العقاب والقصاص (المواد 195 ـ 214)[79] لكي يحمي الناس. وقد انتقل هذا المبدأ إلى اليهود فيما بعد.

الوصية السابعة

«لا تزن» (خروج 20/ 14)

أُعتُبِرَ الزنى بأنواعه من المحرمات، وذلك حفاظاً على سلامة الأسرة. فالزواج هو أساس الأسرة كما أن الأسرة هي أساس المجتمع حسبما جاء في الوصية الخامسة ـ ويتحتم على الفتاة أن تثبت عذريتها في يوم زواجها، وإلا رُجِمَت حتى الموت ـ غير أن الزنى كان منتشراً بين اليهود، وإذا كان الزوج ثريا أبيح له أن يتزوج بأكثر من واحدة، وإذا كانت الزوجة عاقراً مثل سارة أشارت على زوجها أن يتخذ له خليله[80].

(79) انظر الشرائع العراقية القديمة ص 126 ـ 128. والقانون في العراق القديم ص 378 ـ 379.

(80) ول ديورانت ـ قصة الحضارة ـ ص 378 ـ 379.

في المجتمع العراقي القديم كان يُطْلَب من المرأة أن تصون نَفسَها مما يَشينها وتحافظ على عِفتها ولا تعرّض نفسها للزنى[81]، وإلا كان عقابها الموت ـ ولقد أعطت قوانين حمورابي أيضاً للرجل حق الزواج بأكثر من واحدة إذا كانت زوجته عاقراً ـ ولقد خصّت شريعة حمورابي لمعالجة حالات الزنى المواد 129 ـ 130 ـ 133 ـ 141 ـ 143 ـ 153 ـ 158[82].

الوصية الثامنة

«لا تسرق» (خروج 20/ 15)

كما في الوصية السابقة، هنا أيضاً يأتي النهي قاطعاً عن جميع أنواع السرقة. وما ذلك إلا صدى لقوانين حمورابي في المواد 6 ـ 25[83]. غير أن نصوص التوراة تحمل جملة من القوانين والأنظمة والتفسيرات، والتوضيحات لأنواع السرقات مع العقوبات المنصوص عليها في كل حالة[84].

الوصية التاسعة

«لا تشهد على قريبك بشهادة زور» (خروج 20/ 16)

هذه الوصية تطلب من الشهود ومن الناس جميعاً ـ أن يكونوا منصفين وعادلين في شهادتهم، وشاهد الزور يعاقب بنفس العقاب الذي

---

(81) تلماستيان عقراوي: المرأة دورها ومكانتها في حضارة وادي الرافدين ص 51.

(82) د. فوزي رشيد: الشرائع العراقية القديمة، ص 112 ـ 119، د. عامر سليمان: القانون في العراق القديم، ص 221 ـ 264.

(83) المصدر السابق ص 90 ـ 93 و ص 230 ـ 232.

(84) قارن المادة 7 من قانون حمورابي مع سفر اللاويين 6/ 2 ـ 7، قارن المادة 14 من قانون حمورابي مع سفر الخروج 21/ 16، قارن المادة 21 من قانون حمورابي مع سفر الخروج 22/ 42.

أريد للمتهم أن يناله، وذلك ما يعرف بعقوبة الإتهام الكاذب أو الشهادة الكاذبة. وقد كان الحكم في هذا الباب صارماً في شريعة حمورابي[85].

الوصية العاشرة

«لا تشته بيت قريبك، لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا ماره ولا شيئاً مما لقريبك» (خروج 20/17)

في هذه الوصية يُنظَر إلى المرأة بصفتها جزءاً من المتاع، ولدى مقارنتنا مكانتها هذه مع وضع المرأة الإجتماعي في العراق القديم لرأينا أن للمرأة العراقية القديمة مكانة أفضل حيث كانت تتمتع بكثير من الحقوق والإمتيازات بالرغم من كون نظام الأسرة السومرية والبابلية والعبرانية معاً نظاماً أبوياً[86]. غير أن هذه الوصية الأخيرة تحتوي، بالإضافة إلى ذلك، مضموناً أخلاقياً كبيراً، وهي دعوة إلى التعفف والترفع فلا ينظر الإنسان إلى مال غيره بعين الشهوة والتملك والحسد؛ وهي من جانب آخر، دعوة مباشرة إلى العمل إذ على الإنسان أن يعمل ويستغل كي ينال ما يبتغيه، ولا يتعدى على حقوق غيره.

وقد عالج حمورابي هذه القضايا علاجاً صارماً في المادة 25 التي تقول: «إذا شبت النار في بيت رجل وذهب رجل لإطفائها (فحطّ عينه) على حاجة بينة تعود لصاحب البيت ثم أخذ الحاجة البينة العائدة لصاحب البيت فإن هذا الرجل يلقىٰ في النار[87].

---

(85) انظر المادة الأولى في شريعة حمورابي وكذلك المادة 11.

(86) ثلماستيان عقراوي: المرأة ودورها ومكانتها في حضارة وادي الرافدين، ص 22.

(87) وهكذا نرى أن الإطار العام الذي تدور فيه الوصايا العشر يعكس طريقة ثيوقراطية في الحكم، حيث يملي الحاكم الإلهي شروطه على عبيده ثم يهدد بإنزال العقوبات على من يخالف أوامره. وقد يسبق ذلك إذا شاء ـ أو لا يسبق إذا لم يشأ ـ تذكيراً بما صنعه من خير ونعمة تجاههم. وبوسعنا أن نقول بأن =

ولقد استوفينا هذا الموضوع حقه في كتابنا «المرأة في شريعة حمورابي» والذي نشرناه عام 1985.

= الوصايا العشر عبارة عن شريعة سامية فيها من العيوب ما لا يزيد على عيوب العصر الذي وضعت فيه، وفيها من الصفات أيضاً ما لا يوجد في غيرها من الشرائع، وأنها كانت قانوناً لا أكثر (طوبائية كهنوتية)، ولم تكن وصفاً دقيقاً لواقع الحياة اليهودية (راجع ول ديورانت ـ قصة الحضارة، ص 383).

الخلاصة

بهذا القدر من مقتبسات العهد القديم (الأسفار الخمسة) القانونية، والإقتصادية، من الشرائع العراقية القديمة، نكتفي على أمل العودة إليها في بحثنا الموسع الذي نحن في طريق إنجازه تحت عنوان «التوراة البابلية». نقول:

لما اكتشفت شرائع حمورابي سنة 1902 ذهب العلماء وخصوصاً علماء ألمانيا ـ مذاهب شتىٰ في ما عسىٰ أن يكون من الرابطة بين تشريع الملك حمورابي في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد والتشريع الموسوي الذي نسب إلى موسى النبي.

ولسنا لنميل إلى الاعتقاد بأن التشريع الموسوي أملاه الله بجملته على موسى الكليم فنقله هذا إلى الشعب العبراني كما تبلّغه. فإن أبحاث علماء النقد الحديث أثبتت أن هذه الشرائع لم تكتب ولم تذع كلها معاً في وقت واحد بترتيبها الحالي وأنها قبل أن تجمع في الأسفار الخمسة (سفر التكوين، سفر الخروج، سفر الأحبار، سفر العدد، وسفر تثنية الإشتراع) كما هي مرصوفة الآن إنما كانت مبعثرة في مجموعات مختلفة، أو قوانين خصوصية.

إذن من الثابت كانت توجد لوحات حجرية شبيهة بالتي يذكرها سفر الخروج (24/ 21، 31/ 18) في بلاد ما بين النهرين منذ القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد: وأبرز مثال لذلك هو قانون حمورابي؛ وإن طابع

الحضارة المتجولة في العهد الذي نحن فيه يدفعنا إلى الإقرار بأن الطريقة نفسها كان يتبعها البدو والميالون إلى الحياة الحضرية، حتى أولئك العائشون على حدود مصر.

فلا صعوبة إذن في الاعتراف بأن موسى هو الذي نقش لوحي الشريعة، وبأن التقليد اللاحق قد أعلن بأسلوبه المفخم أن «يد» الله هي التي نقشتها (خروج 24/ 12، 31/ 11، 34/ 1 وتثنية الإشتراع 9/ 10، 10/ 4) وكانتا تحويان الوصايا العشر، ومن الممكن أنهما كانتا تمتازان بطابع أقدم وأبسط حيث أعطيت الوصايا بصورة قطعية دون تقدم الأسباب والإيضاحات.

من الممكن أيضاً ـ وكما بينا في الصفحات السابقة ـ أن موسى كتب أو أمر أن تدوّن أشياء تخص العبادة وحق الأفراد في قانون قديم جداً حفظه لنا سفر الخروج. ويدعى هذا القانون غالباً «سفر الميثاق» وقد طرأ عليه دون شك إيضاحا وزيادات لاحقة يعقد بعض المؤلفين أنها تمت حين أقام بنو إسرائيل في برية قادس أو في سهول مواب. وحينما سبوا إلى بابل حيث اقتبسوا الكثير من تقاليد وشرائع وادي الرافدين القديمة ولا سيما شريعة حمورابي وخاصة لدى كتابتهم التلموذ حوالي القرن السادس ـ الخامس قبل الميلاد.

إضافة إلى الشريعة، فهناك الكثير من المقتبسات اليهودية من الفكر العراقي القديم مثل فكرة الطوفان وجنة عدن والخلقة، إضافة أيوب السومري وايوب التوراتي وغيرها من التأثيرات الفكرية والحكمية سيما حكمة احيقار ومدى تأثيرها على أسفار العهد القديم وريث فلسفة السلوك والتربية البابلية ـ الاشورية. فهي تمثل طريقة التفكير والعمل في مواجهة المشاكل والصعوبات الحياتية، وهي الطريقة التي كانت المثال لاتّباع الحضارة البابلية (السومرية، الاكدية، الاشورية) طوال ما يزيد على ثلاثة آلاف عام قبل ميلاد السيد المسيح.

كذلك التوراة اقتسبت الأساطير الرافدية (بلاد الرافدين) مع بعض التحريف المقصود أحياناً حيث أن التوراة صارت وريثة التراث العراقي القديم بأساليب مفضوحة فأردنا هنا البرهان على أن أهم أسفارها كسفر التكوين وسفر الطوفان ـ كما أسلفنا أعلاه، وسفر ايوب وهابيل وقائين وجنة عدن منقولة عن الأساطير العراقية حيث أن عزرا الذي كتب التوراة في سبي بابل خمسمائة سنة قبل الميلاد يدعم قولنا ونؤكده بمصدر لا يرقىٰ إليه الشك هو الفيلسوف اليهودي سبينوزا الذي أعاد النظر في كتب التوراة وقصصها.

وهكذا نعتقد أن القارىء سيكتفي بما قدمناه هنا حتىٰ الآن من إثبات حول ما اختلسه كتبة التوراة عن الأدب العراقي القديم وبشكل عام عن الأدب السومري والبابلي القديم.

إن التقليد والنقل أحياناً من فكر إلى فكر ليس محرماً في تزاوج الحضارات ولكن المحرّم قطعاً هو الانتحال وطمس معالم الأصل. إذ أن العملية تصبح عندئذ عملية سطو واعتداء على ملك الغير.

والآن وقد أتينا على كامل دراستنا حول التوراة والتراث العراقي الأصيل يحدونا الأمل بأن معشر القرّاء سيفهمون قصدنا، وإن معشر الكتاب والمفكرين سيتممون هذه الدراسة بما لديهم من معلومات إضافية وأن يصححوا بروح طيبة وإيجابية حيث أخطأنا. ولا بد لي من أن أتوجه إلى رجال الدين المحترمين راجياً أن يتسع صدرهم ويساعدونا على حماية تراثنا وآصالة فكرنا العراقي القديم والله من وراء القصد.

القسم الثاني

أثر الحكمة العراقية القديمة في أسفار التوراة



أثر الحكمة العراقية القديمة
في أسفار التوراة

تبحث هذه الصفحات في منشأ الحكمة وأصولها وأثرها في الكيان البشري على مدّ التاريخ، أتت لتفند المقولة القديمة القائلة: «أن سفر الحكمة والأمثال ويشوع بن سيراخ في التوارة، أقدم نص حكمي تعليمي مدوّن». والحقيقة أن ذلك شهادة زور على التوراة إذ تبيّن وبالتحقيق العلمي الأكاديمي الدقيق أن الحكمة نبتت على ضفاف الرافدين ونمت وترعرعت حتىٰ امتدت فروعها إلى الشعوب المجاورة وما بعدها، بدءاً بالسومريين ومروراً بالاكديين والبابليين وإنتهاء بالاشوريين الذين في عهدهم اينعت وازدهرت على لسان «الحكيم احيقار» وزير الملك سنحاريب حكيم نينوى الذي نجد لحكمته أثراً بيّنا لدى سائر الأمم القديمة كالعبرانيين واليونان والسلافيين والأرمن.

ولدينا من الدلائل ما يشير إلى أن مدوّني التوراة كانوا مطلعين على الحكمة العراقية القديمة التي منها اقتبسوا النصوص الحكمية التعليمية والتي أتت متشابهة في أكثر من سفر. وأن اليهود قد سباهم الاشوريون والكلديون إذ جلبهم نبوخذ نصر إلى بابل، كما وسباهم قبله سنحاريب واسرحدون الأشوريّيْن فادخلوا الكثير من النصوص العراقية القديمة في نصوص الأسفار التوراتية بعد تحويرها وتوظيفها لما يتناسب وآراءهم الدينية.

وهنا سنورد مقارنات نصية متشابهة ومشتركة بين الحكمتين، إضافة إلى المقارنات الأخرى.

1 ـ سفر المزامير

هذا السفر هو مجموعة أصبحت عاجلاً أو آجلاً رسمية، مجموعة أناشيد، وكثر استعمالها في رتب الهيكل واجتماعات دينية أخرى.

عدد المزامير مئة وخمسون، تنسب إلى النبي داود بطريقة نسبة الكل إلى الجزء، فأن داود لم يكتب جميع المزامير، أو ربما لم يكتب شيئاً منها على رأي بعض المدققين[1]. فقد كتبت عن لسانه ونسبت إليه وسجلت مزامير كثيرة منها بعد عهده منسوب بعضها إلى (بني قورح) والبعض الأخر إلى سليمان، والبعض الآخر إلى غيرهما، الأمر الذي يؤيد كون كتابة هذه المزامير كان بعضه قبل الأسر البابلي، والبعض الأخر في غضونه شأن المزمر القائل: «على أنهار بابل هناك جلسنا فبكينا عندما تذكرنا»[2] والبعض الآخر بعده، ويؤيد علماء العهد القديم أن المزامير الأخيرة كتب بعضها حوالي القرن الرابع قبل الميلاد، والبعض الآخر في عهد المكابيين، والبعض الآخر حوالي نهاية القرن الثاني قبل الميلاد[3].

ومن المؤكد أن كُتَّاب المزامير المتأخرين مُطّلعون على قصة احيقار الحكيم الأشوري، فقد وردت في هذا السفرصور كثيرة تنطبق تمام الانطباق على حالة احيقار فيذكر فيه (الحضرة)، و(الشبكة) كقوله:

---

(1) Dictionary and Literature and Contens. Hasting, 1911. Vol. 4. PP. 152 - 153.

(2) سفر المزامير، المزمور 36.

(3) Dictionary and Literature and Contens. Hasting, 1911. Vol. 4. PP. 152 - 153.

«أن حبائل الموت اكتنفتني، وسيول الفجور هالتني، وحبائل الهاوية أحاطت بي، وإشراك الموت نصبت بين يدي»[4].

هذه الأمور التي تصوّر احيقار في محنته تمام التصوير.

كما أن هناك عناصر كثيرة تنطبق وما ورد في حكمة احيقار بعد نكبته[5].

2 ـ سفر الأمثال

إن سفر المزامير، الانف الذكر، يعيد إلى الأذهان ذكر الملك داود. وها هو سفر الأمثال يرينا ضرباً آخر من المجموعات في حكم الحكماء «المشاليم» وكان لا بد من أن تنتمي إلى سليمان الحكيم الشهير.

غير أن السفر ليس بكامله من تأليف هذا الملك، وهو يسند إليه مجموعتين مهمتين[6]، يسبقهما ويتخللهما تتمات مهمة.

أن هذه المجموعة المركبة قد اكتملت دون شك بشكلها النهائي بعد الأسر البابلي، وهي تسبق بكثير تاريخ تكوين الأسفار المماثلة المستوحاة منها، أي سفر الجامعة، وسفر الحكمة، وسفر ابن سيراخ. فقد تكون من الجيل الخامس قبل الميلاد، والمقدمة هي على ما يظهر العنصر الأحدث فيها.

إن لغة سفر الأمثال لربما تعود إلى عهد أقدم من عهد سليمان، وقد فاهت بها شعوب الشرق القديمة وحكماؤها من سومريين واكديين وبابليين وأشوريين[7]. فبعد أن كان «سفر الأمثال» العبراني (التوراتي)

---

(4) سفر المزامير، مزمور 17: 5 ـ 6.

(5) راجع كلمات أحيقار الأخيرة في توبيخ ابنه نادان (في الملحق).

(6) فصول من 10 إلى 22، ومن 25 إلى 29.

(7) المتفصيل بهذا الموضوع، راجع كتابنا الموسوم بعنوان: «الحكمة في وادي الرافدين» بغداد، 1983.

يعدّ أقدم مجموعة من الحكم والأقوال المأثورة في تاريخ الإنسان المدوّن، اكتشف أن مجموعات الأمثال السومرية والأكدية والبابلية تسبق في عهدها ما هو معروف من المجموعات التوراتية كلها بعدة قرون.

يشمل سفر الأمثال على واحد وثلاثين فصلاً (اصحاحاً) تضم 912 عدداً أو مثلاً (آية). إلا أن عدداً كبيراً منها لا صفة دينية لها البتة، لكن غالباً ما نعثر فيها على فكرة الله وحضوره وسيرة الحياة اليومية في مختلف نواحيها الخاصة والعامة.

ولقد وردت في هذا السفر نصوص غزيرة جداً تتفق وحكمة احيقار الاشوري أو بالأحرى الحكمة العراقية القديمة، منها:

أولاً: في تربية الأطفال وتأديبهم

1) في فم الفطن توجد الحكمة والعصا على ظهر فاقد اللب. (أمثال 10: 13).

2) من وفّر عصاه فهو يبغض ابنه والذي يحبه يبكّر إلى تأديبه. (أمثال 13: 24).

3) السفه متأصل في قلب الصبي لكن عصا التأديب تنقيه. (أمثال 22: 15).

4) من استهان بالكلمة يبيد، ومن هاب الوصية يجازىٰ. النفوس الغاشة تتيه في الخطايا، والصديقون يرأفون ويقرضون. شريعة الحكيم ينبوع حياة ليجتنب «إشراك الموت» (أمثال 13: 13 ـ 14).

يقابلها من حكمة احيقار ما يلي:

1) يا بني، لا تحرم ابنك من الضرب (التأديب) لأن الضرب للصبي كالسماد للبستان، وكاللجام للبهائم، وكالقيد في رجل الحمار[8]. (رقم 22).

(8) نورد هنا الرقم الذي بموجب النص السرياني المعرّب في الملحق.

2) يا بني، اخضع ابنك ما دام صغيراً قبل أن يفوقك قوة ويتمرد علٰيك فتخجل في مساوئه. (رقم 23).

ثانياً: وجوب معاشرة الحكماء

1) مساير الحكماء يصير حكيماً، ومؤانس الجهال يصير شريراً. (أمثال 13: 20)

يقابلها من حكمة احيقار:

1) يا بني، مع الحكيم لن تفسد، ومع الفاسد لن تكون حكيماً (رقم 11).

2) يا بني، عاشر الحكيم تصبح حكيماً مثله، ولا تعاشر الوقح المهذار لئلا تحسب نظيره. (رقم 12).

ثالثاً: الصداقة وتجنب الخصام

1) لا تترك صديقك، ولا صديق ابيك، ولا تدخل بيت أخيك في يوم بؤسك. جار قريب خير من أخ بعيد. (أمثال 27: 10).

يقابلها من حكمة احيقار:

1) يا بني، صديق قريب، خير من أخ بعيد، والاسم الجيد، خير من الجمال الباهر، لأن الاسم الجيد يدوم إلى الأبد والجمال يذوي ويزول. (رقم 49).

2) يا بني، لا تقف حيث الخصومة، لأن من الخصام ينتج القتل. (رقم 55).

3) يا بني، لا تبتعد عن صديق ابيك فربما لا يصلك صديقك. (رقم 57).

رابعاً: الصيت الحسن

1) يا بني، كن حكيماً، وفرّح قلبي، فاجيب معيّري بكلمة. (أمثال 27: 12).

2) ذو الدهاء رأى الشر فتوراى. والأغرار جازوا فنالهم السوء. (أمثال 27: 13).

يقابلها من حكمة احيقار:

1) يا بني، صديق قريب خير من أخ بعيد، والاسم الجيد، خير من الجمال الباهر، لأن الاسم الجيد يدوم إلى الأبد، والجمال يذوي ويزول. (رقم 49).

خامساً: جشع الإنسان

1) الصيت أفضل من الغنىٰ الكثير، والنعمة خير من الذهب والفضة. (أمثال 22: 1).

يقابلها من حكمة احيقار:

1) يا بني، الزبد الذي في يديك خير من الدُّهن الذي في قِدر الآخرين، ونعجة قريبة خير من بقرة بعيدة، وعصفور في يدك خير من ألف عصفور طائر، والفقر الذي يجمع خير من الغنىٰ الذي يبدد، ورداء صوف ترتديه خير من خزّ وارجوان يرتديه الأخرون. (رقم 51).

2) يا بني عين الإنسان هي كينبوع ماء، ولا تشبع من الأموال حتىٰ تمتلىء بالتراب. (رقم 66).

سادساً: المرأة الشريرة

1) وتنقذك من المرأة الأجنبية من الغريبة التي تتملق كلامها. (أمثال 2: 16)

2) ولا تهيم يا بني بالأجنبية، أو تحتضن الغريبة. (أمثال 5: 20)

3) لكي تحفظك من المرأة الشريرة من تملق لسان الغريبة. (أمثال 6: 24)

4) لا تشته بقلبك جمالها، ولا تفتنك بجفنيها، فأنه بالمرأة الزانية يصار إلى عوز رغيف من الخبز، وذات البعل تصطاد النفس الكريمة، أيأخذ إنسان ناراً في حجره ولا تحترق ثيابه. أم يمشي أحد على الجمر ولا تكتوي قدماه، هكذا الداخل على امرأة قريبه كل من مسّها لا يكون زكياً، لا يعيّر السارق إذا سَرَق ليشبع نفسه وهو جائع، وهو إن أخذ أدّى سبعة أضعاف وأعطىٰ كل قِنْيَة بيته. (أمثال 6: 25 ـ 31)

5) لا يجنح قلبك إلى طرقها ولا تهمّ في مسالكها. (أمثال 7: 25)

6) فأنها طرحت كثيرين جرحى وكل من قتلته كان من الأقوياء (أمثال 7: 26)

7) المرأة الفاضلة، إكليل لرجلها وذات الفضائح كنخر في عظامه. (أمثال 12: 4).

يقابلها من حكمة احيقار:

1) يا بني، لا ترفع نظرك إلى امرأة متبرجة متكحلة ولا تتشهها في قلبك، لأنك أن أعطيتها كل ما ملكت يداك، لن تجد فيها خيراً وترتكب إثماً أمام الله. (رقم 5)

2) يا بني، لا تفسق بامرأة صاحبك،، لئلا يفسق آخرون بامرأتك (رقم 6).

3) يا بني، لا تقرب امرأة مِهذارة ولا صخّابة. (رقم 18)

4) يا بني، لا يغرينك جمال المرأة ولا تشتهها في قلبك لأن جمال المرأة ذوقها وبهاؤها نطقها. (رقم 19)

سابعاً: سقوط الأشرار وانتصار الأبرار

1) فإن الصديق يسقط سبع مرات وينهض، أما المنافقون فيقعون في العطب. (أمثال 24: 16).

يقابلها من حكمة احيقار:

1) يا بني، أن الأثيم يسقط ولا ينهض، والبار لا يتزعزع لأن الله معه. (رقم 21)

ثامناً: عدم الشماتة

1) يا بني، كن حكيماً، وفرّح قلبي فاجيب معيّري بكلمة. (أمثال 27: 11)

يقابلها من حكمة احيقار:

1) يا بني، لا تفرح إذا مات عدوك. (رقم 60).

تاسعاً: الأخلاق السيئة

1) ككلب عائد على قيئه، هكذا الجاهل المكرّر سفهه. (أمثال 26: 11).

يقابلها من حكمة احيقار:

1) كنت لي يا بني، ككلب الذي دخل إلى فرن الخزافي ليتدفأ، وبعد أن دفيء نهض لينبح على الخزافين. (توبيخ نادان)[9]

عاشراً: اقتلاع العيون الشريرة

1) العين المستهزئة بالأب والمستخفة بطاعة الأم، تفقأها غربان

(9) يختم أحيقار حكمته بتوبيخ ابنه نادان على شكل عتاب وإرشاد مع أحتقار بسلوكيته الناكرة للجميل، فإليها نشير (انظر الملحق).

الوادي، وتاكلها فراخ النسر. (أمثال 30: 17)

يقابلها من حكمة احيقار:

1) يا بني، أن الكلب الذي يأكل من صيده يصبح من فصيلة الذئاب. واليد التي لا تجتهد تقطع من أصلها. والعين التي لا تبصر تقتلعها أفراخ الغربان. (توبيخ نادان)

3 ـ سفر الجامعة

أن سفر الجامعة، لهو في الحقيقة أشد أسفار العهد القديم غموضاً. وأجدرها في تضليل القارىء السطحي.

يبتدىء الغموض بشخص المؤلف نفسه الذي يدّعي في الفصل الأول إنه ابن داود الملك، وملك اورشليم، فيبدو لنا وكأن كل حكمة سليمان وغناه المضروب بهما المثل، مدوّنة فيه وكان يجب أن لا تغش هذه التسمية الوهمية أحداً لأن المؤلف يتكنى في ذات الوقت باسم آخر أي «الجامعة» وفي نهاية السفر خلاصة كتبتها يد ثانية تضعه بين «الحكماء» دون ريب أمثال الذين سَيُدَعَون في زمن الإنجيل «المعلمين» ثم أن كلمة «الجامعة» ليست اسم علم حقيقي بل تعني شخص المؤلف من خلال وظيفته، وهي دون ريب وظيفة معينة في الجماعة.

كتب نص هذا السفر الأصليّ بالعبرية، وقد وجد علماء العهد القديم نصوصاً كثيرة بين فصوله لا يمكن أن يكون سليمان ابن داود كاتبها، ويرتقي عهد هذه النصوص إلى حوالي القرن الثالث قبل الميلاد، أو إلى العهد اليوناني. (200 ـ 204 ق. م)[10].

وعليه نجد خمسة نصوص على الأقل في هذا السفر تتفق وبعض ما ورد في حكمة حكيم نينوى (احيقار الاشوري) وتدور حول:

---

(10) قاموس الكتاب المقدس بالأنكليزية، ج 1 ص 637 و 740.

أ ـ المرأة الشريرة

1) فوجدت أن ما هو امرّ من الموت المرأة التي قلبها احبولة وشبكة ويداها قيود. من كان صالحاً أمام الله ينجو منها وأما الخاطىء فيقتنص بها. (الجامعة 7: 27)

يقابلها من حكمة احيقار

1) يا بني، لا ترفع نظرك إلى امرأة متبرجة متكحلة ولا تشتهها في قلبك، لأنك أن أعطيتها كل ما ملكت يداك لن تجد فيها خيراً. وترتكب إثماً أمام الله. (رقم 5).

ب ـ النظر إلى الجاهل واستهتاره

1) سماع الانتهار من الحكيم خير من سماع ترنّم الجهال. (الجامعة 7: 6).

يقابلها من حكمة احيقار

1) نقل الحجارة مع رجل حكيم أفضل من شرب الخمرة مع رجل جاهل. (رقم 9)

2) يا بني اسكب خمرتك على قبور الصالحين ولا تشربها مع الأثمة. (رقم 10).

جـ ـ نظر الناس إلى المتحدث وقياس حديثه بالنسبة إلى حالته المالية

1) فقلت أن الحكمة خير من القوة، ومع ذلك، فحكمة المسكين مزدراة، وكلامه غير مسموع. (الجامعة 9: 16)

يقابلها من حكمة احيقار

1) يا بني، من كان ملأن اليد يدعى حكيماً ومحترماً، ومن كان فارغها يدعى مسيئاً ووضيعاً. (رقم 44)

د ـ المقابلة بين كلام الحكيم والجاهل

1) قلب الحكماء في بيت النياحة، وقلب الجهال في بيت الفرح. (الجامعة 7: 5)

يقابلها من حكمة احيقار

1) يابني خير لك أن يضربك الحكيم عصيا كثيرة من أن يدهنك الجاهل بطيب العطر. (رقم 73).

هـ ـ تأثير الحزن في القلب البشري

1) الصيت خير من الطيب، ويوم الموت خير من يوم الولادة. الدخول إلى بيت النايحة، خير من الدخول إلى بيت الوليمة لأن ذاك منتهىٰ جميع البشر فيجعله الحيّ في قلبه. الحزن خير من الضحك لأنه بكآبة الوجه يصلح القلب. (الجامعة 7: 2 ـ 4)

يقابلها من حكمة احيقار

1) يا بني، الموت خير لرجل لا راحة له، وصوت النحيب في أذني الجاهل أفضل من الغناء والفرج. (رقم 50)

4 ـ سفر يشوع بن سيراخ

إن سفر ابن سيراخ هو أوسع من الكتب الحكمية الأخرى، وهو ينتمي إليها، وخاصة سفر الأمثال، إذ يحتوي السِفران على عناصر عديدة مشتركة بينهما. وإنه يتألف شأن سفر الأمثال من مجموعة حكم تارة قصيرة ـ وغالباً ـ طويلة نسبياً. فأن دون ريب قد أتخذ أكثرها، بعد أن طبعها بطابعه الخاص من التراث العام المتداول الذي يرتقي إلى حكمة الشعوب المجاورة ـ الاشوريين والاراميين والبابليين والاكديين والمصريين ـ كما إننا نجد فيه ملاحظات لا تبعد عن أن تكون من وحي اختباره الشخصي فتشكل مع مقاطع أخرى ضرباً من الترجمة الشخصية،

ويظهر لنا فيها ابن سيراخ بأوصاف أثارت قريحة الشراح، فهو رجل موسر، مهتم بصالحه وتربية بنيه وزواج بناته. ونحسّ أن لديه أيماناً قوياً وتقوىٰ عميقة وأن كانت قليلة الزهد، وإنه اكتسب خبرة واسعة، خلال حياة قضاها في الأسفار وركوب الأخطار، واحتمال المحن. وقد جعلت منه معرفته للأسفار المقدسة وحكم الحكماء، معلماً، وكتابه موجه خاصة إلى تلاميذه الشبان.

كتب النص الأصلي لأثر ابن سيراخ في الفترة الواقعة بين 190 سنة و170 سنة قبل الميلاد. ولم يعتبر من الأسفار القانونية في مجموعة الأسفار العبرية المقدسة كما أن بعض الكنائس المسيحية تعتبره من الأسفار المنحولة (ابوكريفا). وأقدم ترجمة له إلى اليونانية عملت حوالي 130 سنة ق. م. كما أخذت عنها الترجمة الارامية المعروفة بالسبعينية مع وجود ترجمة آرامية أخذت مباشرة عن العبرية[11].

إن كاتب هذا السفر مطلع تمام الاطلاع على حكمة احيقار الاشوري المتمثلة فيها الحكمة العراقية القديمة. وقد وردت فيه آيات كثيرة تتفق وإياها نصاً وروحاً، بطريقة تفوق بقية الأسفار التوراتية، الأمر الذي يبرهن على اهتمام آداب الحكمة العبرية بهذه الحكمة (الاشورية) أبلغ الاهتمام.

وبين ابن سيراخ واحيقار علاقة وثقى أهمها ما يدور حول:

«1» تربية الأولاد

1) أن دلّلت ابنك روعًك، وأن لاعبته حزنّك، لا تضاحكه لئلا يغمّك، وفي أواخرك يأخذك صريف الأسنان. لا تجعل له سلطاناً في صبائه، ولا تهمل جهالاته. احنِ رقبته في صبائه وارضض أضلاعه ما دام صغيراً لئلا يتصلب فيعصيك فيأخذك وجع القلب، أدّب ابنك،

---

(11) قاموس الكتاب المقدس ـ الطبعة الانكليزية، ج 4، ص 539.

واجتهد في تهذيبه لئلا يسقط فيما يخجلك. (ابن سيراخ 30: 9 ـ 13)

يقابلها من حكمة احيقار

1) يا بني، لا تحرم ابنك من الضرب، لأن الضرب للصبي كالسماد للبستان، وكاللجام للبهائم، وكالقيد في رجل الحمار. (رقم 22).

2) يا بني، اخضع ابنك ما دام صغيراً، قبل أن يفوقك قوة ويتمرد عليك فتخجل في مساوئه. (رقم 23).

«2» العلاقات الاجتماعية

1) الفم العذب يكثر الأصدقاء، واللسان اللطيف يكثر المؤانسات. (ابن سيراخ 6: 5)

2) وتكشف له أسرارها وتجمع فيه كنوزاً من العلم وفهم البرّ. (ابن سيراخ 4: 21)

يقابلها من حكمة احيقار

1) يا بني اجعل لسانك حلواً، وكلامك عذباً فأن ذنب الكلب يطعمه خبزاً وفمه يكسبه ضرباً. (رقم 38)

2) يا بني، لا تدع صاحبك يدوس رجلك لئلا يدوس عنقك. (رقم 39).

«3» حفظ اللسان

1) احبس فضتك وذهبك واجعل كلامك ميزاناً ومعياراً، ولفمك باباً ومزلاجاً. واحذر أن تزل به فتسقط أمام الكامن لك. (ابن سيراخ 29: 29 و30).

يقابلها من حكمة احيقار

1) يا بني، احصر الكلمة في قلبك تسعد، لأنك إذا بدلت كلامك فقدت صديقك. (رقم 52).

2) يا بني، لا تطلق الكلمة من فمك حتىٰ تروزها في قلبك، لأنه خير للرجل أن يعثر في قلبه من أن يعثر في لسانه. (رقم 53).

«4» الصداقة

1) لا تقاطع صديقك القديم فأن الحديث لا يماثله. (ابن سيراخ 9: 14).

يقابلها من حكمة احيقار

1) يا بني، حام صديقك أمام السلطان لكي يمكنك أن تحاميه أمام الأسد (رقم 59)

«5» الرجل الفاضل

1) أحسن إلى التقي فتنال جزاء، وأن لم يكن من عنده فمن عند العلي. (ابن سيراخ 12: 2)

يقابلها من حكمة احيقار

1) يا بني من أنعم الله عليه فاحترمه أنت أيضاً. (رقم 64)

2) لا توتر قوسك، ولا تطلق سهمك على الصدّيق لئلا تفزع الآلهة لمساعدته فترد الضربة عليك. (رقم 126 نص قديم)

«6» الإنسان المهذّب

1) لا تفتخر بهوان أبيك، فأن هوان أبيك ليس فخراً لك. (ابن سيراخ 3: 12)

يقابلها من حكمة احيقار

1) يا بني، كن عادلاً بأحكامك في شبابك، تنل كرامة في شيخوختك. (رقم 37)

«7» الشعور بمآتي الحياة

1) أي شيء أثقل من الرصاص وماذا يسمى إلا أحمق، الرمل والملح والحديد أخف حملاً من الإنسان الجاهل. (ابن سيراخ 22: 17 و18)

يقابلها من حكمة احيقار

1) يا بني، حملت الملح، ونقلت الرصاص، فلم أجد أثقل من الدّين. فليفِ الإنسان، ولا يقترض. (رقم 45) .

2) يا بني، حملت الحديد ونقلت الحجارة، فلم أجد أثقل من رجل يسكن ببيت حميه. (رقم 46)

«8» الناس بين الضعف والقوة

1) لا تستحي أن تعترف بخطاياك، ولا تغالب مجرى النهر، ولا تتذلل للرجل الأحمق ولا تحاب وجه المقتدر. (ابن سيراخ 4: 31 و32)

يقابلها من حكمة احيقار

1) يا بني، لا تقاوم من كان في أوج قوته، ولا تناحر النهر في طغيانه. (رقم 65)

2) الأسد يفترس الأيل وهو كامن في عرينه... ويسفك دمه ويأكل لحمه، هكذا هي معاشرة الناس. (رقم 88 و 89 نص قديم)

«9» الاطماع البشرية

1) عين البخيل لا تشبع من حظه، وظلم الشرير يضني نفسه. (ابن سيراخ 14: 9)

يقابلها من حكمة احيقار

1) يا بني أن أعين الإنسان هي كينبوع ماء، ولا تشبع من الأموال حتىٰ تتملىء بالتراب. (رقم 66).

«10» التطلع إلى أمور تفوق القدرة

1) من رمى حجراً إلى فوق فقد رماه على رأسه، والضربة بالمكر تجرح الماكر. (ابن سيراخ 27: 28)

يقابلها من حكمة أحيقار

1) يا بني، لا تقتحم بستان العظماء، ولا تقرب بناء الكبراء. (رقم 58)

2) لا تقاوم من هو أعلى منك منزلة، ولا تنافس من هو أقوى منك، لأنه سيأخذ نصيبك ويضيفه إلى نصيبه، فانظر إلى هذه حالة الضعيف مع القوي. (رقم 142 ـ 145 نص قديم)

«11» الموازنة بين الحياة والموت

1) الموت أفضل من الحياة المرّة، أو السقم الملازم. (ابن سيراخ 30: 17)

يقابلها من حكمة أحيقار

1) يا بني، الموت خير لرجل لا راحة له، وصوت النحيب في أذني الجاهل، أفضل من الغناء والفرح. (رقم 50).

«12» ما يتركه الإنسان في هذا العالم من الذكرى الصالحة

1) الحياة الصالحة أيام معدودات، أما الاسم الصالح فيدوم إلى الأبد. (ابن سيراخ 41: 17)

يقابلها من حكمة احيقار

1) يا بني، صديق قريب، خير من أخ بعيد، والاسم الجيد خير من الجمال الباهر، لأن الاسم الجيد يدوم إلى الأبد، والجمال يذوي ويزول. (رقم 49)

«13» عدم شماتة الإنسان بمصائب عدوّه

1) لا تشمت بموت أحد، أذكر إنّا بأجمعنا نموت. (ابن سيراخ 8: 8)

يقابلها من حكمة احيقار

1) يا بني، لا تفرح إذا مات عدوك. (رقم 60)

5 ـ سفر طوبيا

منذ أن أعلن الأستاذ جورج هوفمان العلاقة بين سفر طوبيا[12] وحكمة احيقار سنة 1880 م[13]، والعلماء المعنيون ماضون في دراسة هذه العلاقة، دراسة دقيقة. غير أنهم اختلفوا على قضايا كثيرة في تلك الدراسات، ونحن لا يهمّنا ذلك في بحثنا هذا[14] لأن غايتنا تنحصر في الاتفاق الكائن بينه وبين حكمة احيقار، إنما يجب أن نضمّ رأينا إلى آراء الذين قرروا أن نصّه الأصلي إنما كتب بالآرامية بدليل وجود مصطلحات وكلمات كثيرة آرامية قديمة في النسخ والترجمات الحديثة التي يرتقي تاريخها إلى القرن الخامس الميلادي[15].

---

(12) كان طوبيا الأب وهو من سبط نفتالي، يقيم في نينوى بين الأسرى من مملكة الشمال بعد سقوط السامرة، ويعيش بأمانة وسحبة لله، لكن الله سمح ـ إمتحاناً له ـ بأن يفقد نظره ويصبح عرضة لسخرية من حوله. لكن الله أراد أن يتدارك الأمر فألبس الملاك رافائيل شكلاً بشرياً وأرسله إلى طوبيا الأب فرضي هذا أن يكون الملاك رفيق سفر لابنه المدعو أيضاً طوبيا. وعند عودته خلص طوبيا أباه من العمى بفضل نصائح الملاك وانتهى كل شيء بالفرح العام بعد أن أظهر الملاك حقيقته وتوارى.

(13) George Hoffimann, Auszzuegee aus Syrischenn Acten persicher maertyres P. 182 ff. Leipzig 1880.

(14) إنّي بصدد وضع دراسة مفصّلة عن العلاقة بين الفكر العراقي الديني القديم وأسفار موسى وغيرها من أسفار العهد القديم بعنوان «التوراة البابلية».

(15) قاموس الكتاب المقدس، النسخة الإنكليزية 9: 788.

إن سفر طوبيا أيضاً لم تعتبره الأجيال اليهودية المتأخرة من الأسفار القانونية، والأغلب لأنه كتب بالآرامية، وعليه يعتبر لديهم «احميا» إلا أن مجمع قرطاجنة سنة 357 م أعتبره قانونياً فاعترفت به الكنائس المسيحية[16]، الغربية، أما الكنائس الشرقية أعتبرته من جملة الأسفار المنحولة (ابوكريفا) ولم يُثَبَّتْ في معظم طبعاتها.

إن الاتفاق التام بين سفر طوبيا وحكمة. أحيقار واضح، بل إن المتتبع المتحقق قد يجد فيها أثراً واحداً في حُلَتَين مختلفتي الألوان، وخاصة ما ورد في الترجمة بذكر احيقار بالذات ويجعله كاتب السفر ابن أخ طوبيا، فقد ورد فيها مع تعريبه:

«وملك سرحدون ابنه (ابن سنحاريب) فنصب أحيور (احيقار) بن خنائيل ابن أخي (وزيرا) على مالية مملكته وعلى جميع أعمالها، واستعطف أحيور عنيّ فعدت إلى نينوى. أما أحيور فقد كان ساقياً وحاملاً للختم ومدّبراً ومحاسباً، ونصبه أسرحدون من جديد، وكان من أخوتي».

ثم يذكر خيانة (عكب) وأشرار نينوى ويشير إليه بالخروج منها فيقول:

«أخرج من نينوى فأن فيها أشراراً كثراً ففيها خان عكب عقيقار[17] الذي ربّى طوبيا[18] ولم يتمكن من اهباطه إلى الأرض، بل هبط عكب نفسه إلى الظلام وخرج عقيقار إلى النور ونجا من الفخّ الذي أخفاه له عكب، وعكب نفسه هبط إلى الحضيض».

---

(16) قاموس الكتاب المقدس، النسخة الإنكليزية 9: 789.

(17) سفر طوبيا بحسب الترجمة السبعينية الموجودة في كنيسة العذراء مريم في ديار بكر سنة 1492 والمعروف أن النص اليوناني يسمي أحيقار AKIKARUS (اكيكاروس) وعنها أخذت كلمة عقيقار (سفر طوبيا 1: 12 و14: 10).

(18) أظنه يريد به طوبيا الابن.

فأنت ترى - عزيزي القارىء - في هذه الأسطر الواردة في سفر طوبيا علاقة القربىٰ القريبة بين طوبيا واحيقار، ومنزلته في المملكة، الأمر الذي ينطبق تمام الانطباق على ما ورد في قصّة احيقار الآرامية قديمها وحديثها، وتلحظ خيانة نادان باجلىٰ مظاهرها تماماً كما وردت في القصة ذاتها. وهنا ظاهرة بسيطة وهي اختلاف اسم احيقار، فأن كاتب سفر طوبيا يسميه (احيور) في الفصل الأول و(عقيقار) في الثاني.

أما نادان فلا صلة بين اسمه هذا وبين اسمه الوارد في سفر طوبيا. فاسمه هنا (عكب)، ولعل عكب صفة لنادان، وهي متطورة من كلمة (عقب) الآرامية ومعناه: المندحر أو الخدّاع، الغاش، المكّار، أو بالحري الخائن، وهي صفات تنطبق على نادان وخيانته[19].

أن اتجاه أثَرَي طوبيا واحيقار واحد، فكلاهما يبدأآن من نقطة واحدة، هي عمل البرّ وخاصة الرحمة أو الصدقة، ويلتقيان عند نقطة واحدة كنتيجة وهي نجاة كل منهما من محنة تعرّض لها، ناهيك عن الاتفاق الكامل في سياق إصدار الحكمة. والنصيحة نصّاً وروحاً، فطوبيا وأحيقار يلقي الحكمة على ابن أخته نادان، في حين طوبيا يلقيها على ابنه طوبيا أيضاً. إلا أنّ نادان يختلف عن طوبيا الأبن كثيراً لأنه ظهر خائناً ناكراً للجميل، بينما طوبيا الابن كان أميناً للنهاية. الأول أزدرى الحكمة وضرب بالنصيحة عرض الحائط فلاقىٰ نتيجة عمله نهاية حقيرة مهلكة. والثاني تقيّد بها تقييداً تاماً فعاش سعيداً نتيجة أمانته وسيره في طريق الحكمة والبرّ، واستناداً إلى كل ذلك ربما يجد الباحث المدقق طوبيا (أحيقار) عبرياً، وفي أحيقار (طوبيا) أشورياً.

أن كاتب قصة أحيقار ومدبج حكمته لا يذكر طوبيا لا من قريب ولا من بعيد. أما كاتب سفر طوبيا فأنه يذكر أحيقار بالذات - كما رأينا -

---

(19) بولس بهنام، أحيقار الحكيم، ص 164 - 168.

ويجعله ابن أخيه حننائيل، فهو لديه عبريّ لا آرامي ولا آشوري، مؤمن بآله واحد لا وثني مشرك.

وإذا أضفنا إلى العلاقة المعنوية بين حكمة أحيقار وقصته من جهة، وبين سفر طوبيا من جهة ثانية، علاقة الأسلوب، ننتهي إلى النتيجة المقررة بأن سفر طوبيا هو قصة أحيقار وحكمته بثوب يهودي، ولا فرق بينهما إلا التباين الإسمي. فأحيقار آشوري صالح ولكنه وثني، وطوبيا يهودي مؤمن بالله نسج على منوال الأبرار الأوليين، وكاتب سفره متأثر إلى حدّ بعيد بمأساة آحيقار، وصبره وحكمته، الأمر الذي حدا به إلى صياغة هذا السفر بالأسلوب الذي نراه.

وإذا تركنا الناحية اللغوية لهذا السفر، وعدنا إلى المقارنة الحكمية بينه وبين بقية الآثار كسفري ابن سيراخ من جهة، وبين قصة أحيقار وحكمته من جهة ثانية، نجد أن هذه الآثار الثلاثة تتفق اتفاقاً جامعاً بأن واحد.

طوبيا وأحيقار

يتضح النوع الأدبي في كتاب طوبيا عند مقابلته بكتاب حكمة أحيقار فيتضمن سفر طوبيا على غرار سفر أحيقار، مجموعة من القصص تَمُتُّ بصلة إلى الفولكلور الشرقي الذي فيه أدخلت مجموعات من الحِكَم[20].

إن كتاب أحيقار الذي جاء مشحوناً بالمعتقدات المشركة السائدة في الأوساط الشرقية، أعطى بعدئذ مدلولاً توحيدياً. فقد اهتمّ به يهود أتقياء، ثم رهبان مسيحيون، وحاولوا أن يجعلوه أرثوذكسياً مقبولاً لدى عُبّاد الإله الواحد الأحد.

---

(20) توجد حكم طوبيا في (سفر طوبيا 4: 3 ـ 20 و12: 6 ـ 10) أمّا حكم أحيقار التي تشبه بعضها حكم طوبيا فقد حفظها الأخلاقيون اليونان حسب ما جاء في شهادة أقليمندس الأسكندري ودموقريطس (496 ـ 460 ق. م) وميناندور (342 ـ 291 ق. م).

إن أحيقار الشرقي هو شخصية يحتلّ، كما احتل طوبيا وقتاً ما مكانة[21] مرموقة في بلاط ملك آشور. ففي مطلع قصّته يظهر لنا بصفة «أمين خزينة سنحاريب وكاتبه» ثم يلعب الدور عينه لدى أسرحدون.

وبعد أن أنفق بدون جدوى كل خزائن حكمته على ابن أخته نادان أو ناداب، يجد نفسه «مزجى في الظلمات» من جرّاء دسائس ابن أخته الذي يريد أن يحتلّ وظيفته لدى الملوك. ولكن أحيقار ينجو من الموت ويعود مثل طوبيا إلى النور بفضل أعماله الصالحة وحكمته.

من الأكيد أن كاتب سفر طوبيا قد عرف كتاب أحيقار الذي عُثِرَ عليه خلال القرن التاسع عشر الميلادي، وقد قرأه مثل سائر اليهود الاتقياء. فهو يشير إليه مرّات عديدة، ويطيب له أن يجعل من أحيقار نسيباً لبطله ومحسناً إليه.

وبفضل وساطة أحيقار يرجع طوبيا إلى نينوى، بعد أن خسر هو أيضاً ثقة ملوك آشور: «فعاد طوبيا إلى منزله»[22].

وعندما يصاب طوبيا بالعمىٰ يتولى أحيقار الاهتمام به: «قد أقاته أحيقار مدّة سنتين، قبل ذهابه إلى بلاد عيلام»[23].

ويأتي أحيقار ثانية ليسلّم على طوبيا، ويرافقه ناداب كما تروي القصص الشرقية وذلك في وقت المباهج التي تلي زواج ابنه عندما ابتهج بعودة النور إلى عينيه من جديد[24].

في نهاية الكتاب، يذكّر طوبيا ابنه بمثال أحيقار الجميل وبالقصاص النموذجي الذي أنزله بابن أخته: «انظر يا بني كل ما صنعه ناداب بأحيقار

---

(21) سفر طوبيا 1: 13.
(22) سفر طوبيا 1: 25.
(23) سفر طوبيا 2: 10.
(24) سفر طوبيا 11: 18 و11: 19.

الذي كان قد ربّاه. ألم يلقه حيّا في الأرض؟ ولكن الله قد كساه بالعارّ جهراً. لقد خرج أحيقار إلى النور ودخل ناداب في الظلمات الأبدية، لأنه كان قد بحث أن يقتل أحيقار. ولأن أحيقار كان يصنع الصدقة، فقد نجا من فخّ الموت الذي أهلكه. «انظروا الآن يا أولادي ماذا تفعل الصدقة وما يفعله الظلم، إنه يقتل»[25].

فكل هذه الاشارات إلى كتاب أحيقار، تبيّن بوضوح كيف يريد كاتبنا أن يلقي درسه الديني حسب نهج القصص الشرقية المنتشرة آنذاك كثيراً والحاضرة في جميع القلوب[26].

أوجه الشبه بين سفر طوبيا وقصة أحيقار

الواقع ـ كما أشرنا سابقاً ـ أن سفر طوبيا حسب مخطوطة سيناء والفاتيكان (النص اليوناني) هو قصّة أحيقار بشكلها اليهودي. يحاول الكاتب أن يجعل أحيقار ابن أخ طوبيا ـ واسم أخيه عنئيل ـ فهو يهودي لا آشوري، وهذا مرفوض.

أما مغزى القصة الخلقي فيكاد يكون واحداً وأن اختلفت الألفاظ، ويظهر جليّاً أن سفر طوبيا توكيد على هذا العدد: «الصدقة تنجيّ من كل سوء ومن الموت، ولا تدع النفس تصير إلى الظلمة»[27]. فكأن كاتب سفر طوبيا يتذكّر أن أحيقار طرح في غياهب الدهليز ولكن الله نجّاه لصدقاته.

أما أحيقار فأنه يقول لنادان، عندما كان يوبّخه على شر صنيعه: «إنّ

---

(25) سفر طوبيا 14: 10 ـ 11.

(26) ج. ك. كوريّون: إقرا طوبيا، ترجمة الأب يوحنا عيسى، بيروت 1975 سلسلة كلام الله رقم 22 ص 13 ـ 17.

(27) هذا هو نص العدد 11 في الإصحاح الرابع من سفر طوبيا كما جاء في الطبعة العربية اليسوعية. أما في الأبوكريفا فيرد في العدد العاشر «الصدقة تنجيّ من الموت».

الذي نجّاني من الموت وخلّصني من البلاء العظيم هو «برّي وخلاصي» واللفظة التي يستعملها في النصّ السرياني تعني الاستقامة والبرّ والتقوى ونحن نعلم أن في التعليم السامي الحكميّ يستعملون لفظة «صدّق» و«صدقة»: كمرادف للبرّ والصلاح».

قلنا سابقاً أن التوكيد في قصّة أحيقار هو أنّ من حفر حفرة لأخيه وقع فيها. ولكن هناك مغزى آخر في القصّة وهو أن البرّ والصدقة والتقوى جميعها تنجّي الإنسان من الموت والهلاك. وهذا المغزى الأخير هو المغزى ذاته الذي نجده في سفر طوبيا.

وهناك شبه كبير بين نصائح طوبيا لابنه وبين تعليم أحيقار لابن أخته نادان، لا بل أحياناً نجد أن الكلام يتفقّ لفظاً. وها نحن نثبت لك ـ عزيزي القارىء ـ بعض نصوص من الفصل الرابع من سفر طوبيا[28]، حيث يعطي طوبيا نصائحه لابنه قبل سفره إلى راجيس:

«اسمع يا بنيّ كلمات فمي، واجعلها في قلبك مثل الأساس... فليكن الله في قلبك جميع أيام حياتك. وأحذر أن ترضىٰ بالخطيئة وتتعدى وصايا الربّ الهنا. تصدّق من مالِك ولا تحوّل وجهك عن فقير، حينئذ وجه الرب لا يحوّل عنك. كن رحيما على قدر طاقتك. أن كان لك كثير فأبذل كثيراً. وأن كان لك قليل فاجتهد أن تبذل القليل عن نفس طيبة، فأنك تدّخر لك ثواباً جميلاً إلى يوم الضرورة، لأن الصدقة تنجيّ من كل خطيئة ومن الموت ولا تدع النفس تصير إلى الظلمة... إحذر لنفسك يا بني من كل زنىٰ، ولا تتجاوز امرأتك مستبيحاً معرفة الأثم أبداً. ولا تدع الكِبَر يستولي على أفكارك أو أقوالك لأن الكبر مبدأ كل هلاك... كل ما تكره أن يفعله غيرك بك فأياك أن تفعله أنت

---

(28) لقد اعتمدنا في سرد النصوص على «الكتاب المقدس» طبعة بيروت 1960 للآباء اليسوعيين.

بغيرك. كُلْ خبزَك مع الجياع والمساكين، وأكسى العراة من ثيابك. ضع خبزك وخمرك على مدفن البارّ ولا تأكل ولا تشرب منهما مع الخطأة. التمس مشورة الحكيم دائماً».

إن جميع هذه النصائح والتعاليم يعطيها أحيقار لابن أخته نادان، ولكن من الطبيعي أن نجد فروقاً طفيفة، وذلك لأن كاتب سفر طوبيا يحاول أن يجعل من قصة طوبيا قصة يهودية، ومن تعاليمه تعاليم يهودية. فأن كاتب سفر طوبيا مثلاً يحذّر من شَرَك المرأة البغي ولكنه يصرّ بصورة خاصة على التزوج من بنات القوم لا من الأجنبية. ويذّكر طوبيا ابنه أن أحبار اليهود القدامى سافروا الأميال الشاسعة ليتزوجوا يهوديات، فلا يجوز الزواج من امرأة خارج القبيلة.

ونلاحظ أحياناً أن بعض أقوال أحيقار أقرب فهماً من تعاليم طوبيا المحوّرة لتلائم العقائد اليهودية، مثلاً يقول طوبيا[29]: «اسكب خبزك على مدافن الأتقياء. ولكن لا تعط شيئاً منها إلى الأثمة»[30].

أما أحيقار (في النص السرياني) فيقول: «يا بني، أسكب خمرك على قبور الصالحين فإنّ هذا أفضل من أن تشربه مع الأثمة».

وواضح أن قول طوبيا «أسكب خبزك» غلط فالسكب يكون للخمر.

وفضلاً عن هذا فأن عبارة طوبيا لا معنىً لها إذا لم تقارن بقول أحيقار، ولكن طرأ على النص ما شوّهه.

ومن أوجه الشبه الشديد بين أحيقار وطوبيا، أن مسرَح القصتين بلاد آشور وما جاورها من عيلام وميديا.

---

(29) سفر طوبيا 4: 17 في طبعة لندن، وفي الطبعة العربية اليسوعية يرد في 4: 18.

(30) في الطبعة اليسوعية: «ضع خبزك وخمرك على مدفن البارّ، ولا تأكل ولا تشرب منهما مع الخطأة».

في نينوى عاش طوبيا منفياً، وفي نينوى عاش أحيقار وخدم أسرحدّون وسنحاريب. ويسجن أحيقار ويُظلَم ولكن «صدقاته» نَجّتْهُ من الموت، كذلك نجّت الصدقات طوبيا من الموت.

وزمن القصتين واحد: في عهد المملكة الآشورية أيام عظمتها.

والآن نورد فيما يلي خمس نقاط هامّة تتفق فيها الآثار اتفاقاً تظنه اتفاقاً تاماً، فكلا النصيّن، استقىٰ الواحد من الآخر الفكرة كاملة غير منقوصة، وأحياناً التعبير ذاته، الأمر الذي لا يمكن أن يتيسر في النصّين عفوياً أو توارد خواطر، والأحقية والأثر هو للنص الأقدم الذي استقى منه النصّ اللاحق، فتكون النتيجة إذن الأثر الواضح لحكمة أحيقار بنصّ طوبيا لأنه يسبقه في القِدَم عدة قرون من حيث التدوين. . . .

أ ـ النظر إلى أعمال البرّ

إنّ النصين متفقان تمام الاتفاق على وجوب ممارسة الإنسان أعمال البرّ والتقوىٰ والإمعان في الصدقة والإحسان أو الرحمة، فأن الرحمة والصدقة أساس جميع أعمال البرّ في نظر الكاتبين ترضي الله وتكون سبباً هاماً لعفوه تعالى عن أخطاء الإنسان.

يقول طوبيا: «لأن الصدقة تنجيّ من كل خطيئة ومن الموت ولا تدع النفس تصير إلى الظلمة»[31] (طوبيا 4: 11).

ويقول أحيقار: «يا بني، إن الأثيم يسقط ولا ينهض، والبارّ لا يتزعزع لأن الله معه» (رقم 21) من النص السرياني.

ب ـ احترام الموتى:

يقول طوبيا: «ضع خبزك وخمرك على مدفن البار، ولا تأكل ولا

---

(31) ويقول ابن سيراخ: «الإخوة والعون لساعة الضيق، لكن نصرة الرحمة فوق كليهما» (40: 24.

تشرب مع الخطأة»[32] (طوبيا 4: 8).

ويقول أحيقار: «يا بني، أسكب خمرتك على قبور الصديقين، ولا تشربها مع الأثمة» (رقم 10 من النص السرياني).

ج ـ التقوى

تعتبر التقوى حفظ وصايا الله والتقيّد بأوامره ونواهيه:

يقول طوبيا: «وأنت فليكن في قلبك جميع أيام حياتك، وأحذر أن ترضىٰ بالخطيئة وتتعدى وصايا الهنا» (طوبيا 4: 6).

ويردف قوله: «كلّ ما تكره أن يفعله غيرك بك فأياك أن تفعله أنت بغيرك»[33].

ويقول أحيقار: «يا بنيّ لا تجدّف على الله يوم محنتك لئلا يغضب عليك حين يسمعك» (رقم 33 من النص السرياني).

ويردف قوله: «يابنيّ، إذا كنت كاهن الله فاتّقه، وأظهر بحضرته طاهراً ولا تبرح من أمامه» (رقم 63 من النص السرياني).

د ـ صيانة النفس من الخطيئة

يشدّد على ذلك طوبيا بقوله: «إحذر لنفسك يابنيّ من كل زنىٰ ولا تتجاوز امرأتك مستبيحاً معرفة الأثم أبداً»[34] (طوبيا 4: 3).

---

(32) ويطلق ابن سيراخ النصيحة لاحترام الموتىٰ عادة فيقول: «أذرف الدموع على الميت... وكفّن جسده كما يليق ولا تهاون بدفنه» (37: 16).

(33) ويقول ابن سيراخ: «ترو في وصاياه، تأمل كل حين فهو يثبت قلبك، وينيلك ما تتمناه من الحكمة».

(34) ويقول ابن سيراخ: «لا تلق المرأة البغي لئلا تقع في إشراكها، لا تألف المغنية لئلا تصطاد بفنونها. لا تتفرس في العذراء لئلا تعثرك محاسنها. لا تسلّم نفسك إلى الزواني لئلا تتلف ميراثك. لا تسرح بصرك في أزقة المدينة ولا تتجول في أخليتها. أصرف طرفك عن المرأة الجميلة ولا تتفرّس في حسن الغريبة. فأن حسن المرأة أغوىٰ كثيرين وبه يلتهب العشّاق كالنار» (9: 3 ـ 8).

ويقول أحيقار: «يا بني لا ترفع نظرك إلى امرأة متبرجة متكحلة ولا تشتهها في قلبك، لأنك أن أعطيتها كل ما ملكت يداك لن تجد فيها خيراً وترتكب إثماً أمام الله» (رقم 5 من النص السرياني).

هـ ـ أسلوب الحكمة

يرسل لكل منهما ـ طوبيا وأحيقار ـ تعليمه إلى (ابنه) بالطريقة الشرقية المتبعة دائماً في النصح والإرشاد ويقول (يابني)، وهذا ما نجده لدى لقمان الحكيم عند إرشاده لابنه أيضاً كما ورد في القرآن.

فيقول طوبيا: «اسمع يابني، كلمات فمي وأجعلها في قلبك مثل الأساس»[35] (طوبيا 4: 2).

ويقول أحيقار؛ في مطلع حكمته: «اسمع يابني نادان، وتفهمّ تعليمي وأذكر كلامي ذكرك لكلام الله» (رقم 1 من النص السرياني[36]).

---

(35) ويقول ابن سيراخ: «اسمع يا بني وتعلّم العلم ووجّه قلبك إلى كلامي» (16: 24).

(36) للتفاصيل في هذا الموضوع المهم راجع كتابنا «حكمة أحيقار وأثرها في الكتاب المقدس في سلسلة دراسات في الكتاب المقدس» رقم 28، دار المشرق، بيروت 1996 طبعة أولى.



القسم الثالث

بابل والتوراة


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قد يكون أمراً غريباً ألاّ يتطرق المرء إلى السؤال الآتي وهو: «أَتُثْبِتُ النصوص المسمارية التوراة أم تَنكُرها؟» وقد يتبادر إلى الذهن لأول مرة أن الإجابة عن هذا السؤال «بنعم» أو «لا» قد تستحيل فينبغي علينا إذن أن نطيل التفكير ونحاول أن نفهم بوضوح تام قبل أن نحاول التفكير ولو ببداية الجواب.

أن التوراة ليست كتاباً واحداً بل هي سلسلة من الكتب، كتبها عدد من الكتّاب في أزمان متباينة وأنها لا تقتصر على موضوع واحد أيضاً. وما دامت كتاباً دينياً قبل كل شيء، فهي تتناول أبحاثاً في التاريخ، وقصة خلق العالم، وشعراً وفلسفة وأساليب أخرى من الكتابة.

ولنبدأ بالمعلومات والأخبار التاريخية. أن التوراة تخبرنا أن الآشوريين استولوا على مدينة السامرة وتخبرنا النصوص المسمارية الخبر نفسه، وورد في التوراة أيضاً أن سنحاريب عندما حاول الاستيلاء على أورشليم، صان «يهوه» المدينة وحماها، ودمر جيش الغزاة بتدخله الآلهي. وقد عرفنا من بلاغات سنحاريب الحرْبية إنه حاول الاستيلاء على مدينة أورشليم، ولكنه لم يَدّع أنه قد نجح في محاولته تلك، وهكذا يتبين لنا في هاتين الحالتين أنَ النصوص المسمارية تؤيد التوراة، ولرب باحث يود الادعاء بأن التوراة تؤيد النصوص المسمارية ولا بأس في وجهتي النظر هاتين.

ومن الجهة الثانية، صور الملك الآشوري شلمنصر الثالث (856 ـ 824 ق. م) على مسلته السوداء صورة يهو بن عُمري ملك إسرائيل يقدم له الطاعة والولاء ويجلب له الهدايا. وهذه الحادثة لا ذكر لها في التوراة، فهل نستطيع أن نقول أن التوراة غير صحيحة؟ ومن الطبيعي أن يكون التفسير الصحيح لما تقدمَ هو أن يهو تجنب ذكر يوم الخضوع والولاء. وحتىٰ لو كان قد ذكره فعلاً فمن المحتمل أن أحد الوطنيين المتعصبين ممن خلفه في الحكم ارتأى ألاّ تذكر هذه الحادثة المحزنة في الأخبار التاريخية وأمر بتركها. والواقع أن وجود هذه التأكيدات أو عدمه عن الحوادث المدونة يعد ثانوياً لأن التوراة كتاب ديني والتاريخ يقوم فيه بدور صغير جداً. ويضاف إلى ذلك أن معظم هذا التاريخ المتأخر معروف بصحته ولا يحتاج إلى إثبات وتأكيد.

ولنترك الآن جانب الأخبار التاريخية المتأخرة ولننتقل إلى شيء آخر أكثر متعة وهو الأساطير وقصة خلق العالم. ولكي نشرع من البداية، لنتحدث عن قصة الخليقة التي ورد ذكرها في الإصحاح الأول من التوراة.

إن كل كتاب يبحث في هذا الموضوع تقريباً يقابل بينها وبين قرينتها قصة الخليقة الآشورية في الحال ويستخلص منها الاستنتاجات. ولقد بذل قدر كاف من حصافة الفكر والنباهة في دراسة موضوع هاتين القصتين عامة، وكانت النتائج لا تزيد في كثير أو قليل عن هذه الكلمات وهي: «أن المشابهات التي وجدت، غير كافية لإثبات الاقتباس المباشر أو العلاقة المباشرة». وهكذا أنهت هذه النتيجة المشكلة بما يرضي الكثير من المستفهمين. ولكن سير البحث كان بسيطاً مؤثراً وقد يكون في كثير من الحالات أمراً مفروغاً منه.

أن التوراة لا تقدم لنا قصة واحدة للخليقة بل عدداً منها، والقصة التي وصفت حوادثها في الإصحاح الأول من سفر التكوين يبدو أنها كانت أقل القصص انتشاراً بين سواد الناس. وقصة الخليقة هذه تتصدر

وحدها الكتاب المقدس وتمثل أقصى ما بلغه الفكر اللاهوتي العبراني.

إن «القصة الآشورية» التي تقابل بها، عادة، ليست آشورية البتة فهي ترجع إلى آلاف السنين وإلى أقدم الأزمنة السومرية. وقد صادف أن أصبحت هذه القصة «آشورية» لأنها أول خبر عثر عليه عن الخليقة، ولأنها كتبت أيضاً بالآشورية، اللغة التي يسهل فهمها أكثر من اللغة السومرية التي ما يزال في ترجمتها وفهمها كثير من الغموض. وهكذا جعلتها الفائدة المزدوجة من العثور عليها أول مرة وسهولة التفسير تعرف «بقصة الخليقة الآشورية» التي أولاها العلماء اهتماماً خاصاً. ولا بد لنا أن نعترف بأن هذه القصة كانت واسعة الانتشار جداً فقد ظلت تنتقل آلاف السنين من سومر القديمة إلى مدينة نينوى وترجمت كذلك إلى لغات مختلفة وهذا أمر لا يدع مجالاً للشك في إنها كانت من القصص الممتعة فهي قصة مثيرة حافلة بالموضوعات الدراماتيكية ذات المغازي المعبرة.

وخلاف هذا يصدق على قصة سفر التكوين في الإصحاح الأول من التوراة التي تحتوي في الحقيقة على أفكار رائعة وتعكس مرتبة سامية من التطور اللاهوتي وهي مع ذلك مجرد سرد حقائق بأسلوب مطنب من نمط واحد ممل. والظاهر إنها ألّفت في أوساط علمية وحكمت عليها الضرورة بالبقاء محصورة هناك، وإلاّ لتعرفت عليها عامة الناس.

وإذا أردنا أن نقابل هذا النوع من الانتاج العلمي بقريباتها من القصص المسمارية وجب علينا أن نقابله بنوع آخر من القصة غير القصة «الآشورية». ومن العبث أن نتوخى نتائج مرضية بمقابلتنا صفحة من كتاب فلسفي بدراما نشأت عن أحاسيس الحياة اليومية وعواطفها، فأن القرائن السومرية للقصة في الإصحاح الأول من سفر التكوين وجدت منذ زمن بعيد على شكل كسرات كثيرة من الرقم الطينية.

إن هذا النوع من القصة كان قليل الانتشار في بلاد سومر نفسها كما كان كذلك عند العبرايين.

إنه بالرغم من إنكار اللاهوتيين العبريين أسلوب القصة البابلية لأنها تختلف عن معتقدات الههم كثيراً، لا يبدو على اليهود عامة أن القصة البابلية تخالف اعتقادهم. فبينما لا يزال سفر التكوين في الإصحاح الأول منفرداً بأفكاره السامية، نجد في كتب التوراة الأخرى كثيراً من الظواهر التي تكشف عن صراع يهوه المشهور مع التنين الهائل لوياثان.

أن قصة هذا الصراع هي قصة الخليقة المنتشرة بين عامة الناس سواء أأنكرها رجال الدين أم لم ينكروها. فمن المهم جداً على هذا الأساس أن نقدم موجزاً لقصة الخليقة هذه الواسعة الانتشار بمفهومها البابلي، فلعلها مفيدة في هذا المجال، ومن المؤسف أن يكون هذا البحث ضيقاً لا يسمح لي بسرد القصة بأسلوبها الشعري الجميل.

قبل أن خلقت السموات والأرض، أي في البداية الأولى، كان الكون بأسره فوضى جسيمة مائية مضطربة ومن هذا الاضطراب المخيف خرجت كائنات الهية بدائية إلى الوجود بيد إنها كانت على كل حال من الفوضى والأرتباك لا يمكن وصفها. ومرت الدهور والأحقاب وأتخذت الآلهة إشكالاً واضحة وأخذت تعمل وقررت زمرة منها أن تسنّ للفوضى نوعاً من القانون والنظام وكانت هذه الخطوة مقدامة أثارت خصومة الكثير من المعبودات المحافظة التي ظنت أن النظام القديم كان صالحاً جداً يجب أن يستمر على حاله. وقد جابه قرارهم استنكار الآلهة تيامت Tiamat خاصة. وتيامت هذه هي أم الفوضى، معبوده في هيئة تنين يتجسم فيه الشر تارة والخير تارة أخرى. فعندما علمت تيامت بعزم الآلهة على جلب النظام إلى ملكها لتقضي به لا على سلطتها فقط بل على أبهتها صممت على القتال وأدركت أن وقته قد حان وكانت قد خلقت من هذه الفوضى مردة جبارة لها أطراف حيوانات قدرة مختلفة تملك مخيفة من الدمار، فدعت إليها زوجها وجيشها الفتي وتهيأت للنزال. وقد فزعت آلالهة أول الأمر إذ أن المهمة التي تساومت من أجلها أصبحت مهددة لكيانها، وأخيراً تقدم إلّه واحد نحو المعركة.

وشهر أسلحته وأمر الرياح الأربع الجبارة أن تحارب بجانبه، فتقدمت تيامت مشخصة بالفوضى وفغرت فاهها الرحب فاتاحت الفرصة للآله فساق على الفور إلى فمها الرياح القوية التي أندفعت بشدة فجعلت جسم الآلهة التنين ينتفخ لدرجة لا تستطيع معه حراكاً وعندئذ قضى عليها الإله بأسلحته. ثم ظهرت المشكلة وهي ماذا يجب عليه أن يفعل بهذه الجثة الهائلة؟ إنها هائلة الحجم لها شكل يشبه القرية الكبيرة. وبعد تفكير طويل قرر الإله شطر الجثة شطرين وجعل القسم الأول منها مسطحاً فكان الأرض. أما النصف الثاني فقد ثناه فوق الأرض، فكان السموات. وهكذا ماتت الفوضى وبدأ عمل النظام يستقر الآن في العالم. وقد أسر في المعركة زوج تيامت (وهو الإله كونكو، آله شرير) وهو قوة ثانوية فقطعت الآلهة رأسه وخلقت الجنس البشري من طين التربة الممتزج بدمه الذي سال من جسمه، وهذا يفسر لنا لماذا نحن البشر لنا بعض الصفات الآلهية التي يصعب علينا إدراكها.

وكما مرّ بنا آنفاً، يصعب علينا تعيين زمن منشأ القصة ومعرفة أول آله خلق، فكانت له القوة الخارقة. لا شك إنه كان سومرياً وللمرء أن يتصوره في هذا الدور المهم، أو كان الإله الكبير انليل (Enlil)، أبرز آله في مملكة الآلهة القديمة أو ربما كان الإله نينورتا Ninurta المحارب. وانقضت قرون وانتهت قوة السومريين فجأة بقيام بابل في حكم حمورابي ولم يكن من حق مردوخ الإآله الجديد لهذه المدينة الجديدة أن يدعي لنفسه مجداً جليلاً ونصراً عظيماً كهذا، فقد كان طفلاً بين الآلهة، ولم تكن مدينته قد وجدت حينما تم العمل الباهر الجبار ولكن ما أن أطل عهد حمورابي حتى غدت بابل مركزاً لمملكة عظيمة.

إن الإآله مردوخ سواء أصغيراً كان أم كبيراً، تقف جيوش حمورابي وراءه الآن ومن حقه أن يدّعي إنه أهم آلهة البلاد وكان يعوزه نسب النبل العريق وطابعه. ولكن رجال الدين نعتوه بذلك وبرزت القصة القديمة ثانية لتقدم بعض المؤثرات الملائمة للظروف الجديدة: فقد ذكرت لنا

النصوص المسمارية إنه عندما جاءت تيامت الغول، ارتعدت منها الآلهة، ولم يستطع أحد من الآلهة القدامى الذين كانت مهمتهم الدفاع عن مملكة الآلهة أن يستجمع الآخرين عن محاربتها، قدم مردوخ الشاب، إلّه بابل نفسه لمحاربتها ولم يكن بالطبع كفؤاً لهذه المعركة. فقد كان صغيراً جداً وكانت خبرته بفنون الحرب قليلة وقوته ضعيفة. ولكن الخطر المحدق بهم ومصيرهم المهدد جعلاً الآلهة القدامى تقبل بمردوخ منقذاً فمنحته جميع القوى التي تملكها حتىٰ يتمكن من مجابهة العدو الذي لا يرضىٰ بغير القتال شرطاً. فتسلم الحكمة والقوة وجميع الفضائل الأخرىٰ التي كانت من خصائص الآلهة القديمة المدركة وصفاتها. فتسلح بها وسار إلى النزال وكسب المعركة وقد أصبح بهذا النصر وبما اكتسب من قوى خاصة ظل محتفظاً بها، أهلاً للمنصب الجديد وهو رياسة مملكة الآلهة وبذلك أزيح القائد القديم وحلّ مكانه مردوخ.

ثم مرت القرون وانهارت قوة بابل وانتقلت السيادة إلى الشمال، إلى بلاد آشور التي أصبحت امبراطورية عظيمة الشأن وأخذت جيوش الإلّه آشور تسير من نصر إلى نصر فظهرت عند ذاك المعضلة القديمة وهي قصة تيامت مرة ثانية.

وتساءل الآشوريون، لماذا لا يكون إلّههم آشور الإلّه الذي حارب في هذه المعركة المروّعة؟ كان الآشوريون من هذه الناحية أقل دهاء من البابليين فلم يستعملوا المكر كما استعمله رجال اللاهوت عند حمورابي وفعل الآشوريون أن قدم الكهنة الآشوريون شرف البطولة للآله آشور بأن أخذوا الرقم البابلية وأعادوا نسخها ووضعوا اسم إلّههم آشور بدلاً من مردوخ. غير أن عملهم هذا لم يكن متقناً فقد بقي في هذه الكتابة ما ينم عن وجود مردوك ولكن بالنسبة إلى قوة آشور الحالية من يجرؤ أن يشك في إنه هو الذي ذبح التنين؟

لقد انتقلت هذه القصة إلى خارج حدود ما بين النهرين إلى

فلسطين، ولكن اليهود برغم ضعفهم لم يفكروا أبداً في قبول إلّه أجنبي ليرمزوا به إلى بدء الخليقة. وسواء أأراد الكهنة أم أبوا فأن عامة الشعب تمجد في اشعارها الدينية الإلّه يهوه على إنه قاتل لوياثان أو التنين. ثم إندمجت الكتب العبرية بالكتب المسيحية بمرور الزمن ولم ينظر المسيحيون بعين الرضا إلى الفكرة القائلة أن يهوه يجب أن يعد المنجز لعمل يجدر به شخص تنطبق عليه صفات البطولة أكثر من يهوا وهو أقرب منه إلى العصور الحديثة وقد كانت تلك الشخصية هي شخصية القديس جرجيس (سان جورج) أو كوركيس قاتل التنين.

والآن لنعد إلى السؤال الذي كنا قد بدأنا به. إنه لم تجر حتىٰ الآن مقابلة علمية بين الأسطورة التي جاءت في فصل التكوين مع تلك الأسطورة لسبب بسيط هو قلة ما هو معروف عن الأساطير البابلية وقبل أن يقدم العلم أي نوع من الحكم، سينتظر نتائج كل من الحفريات والتفسير الشاق وترجمة النصوص التي سبق أن تم لنا الحصول عليها. وحتىٰ لو تمكنا من إثبات مقابلة كاملة فلن يكون في ذلك الكفاية لجواب مقنع.

والمثال الآتي يوضح ما ذهبنا إليه:

إن قصة الطوفان انبعثت من الأدب البابلي والأدب الآشوري وإنها تشبه حقاً قصة الطوفان التي وردت في التوراة. وفي قصة الطوفان البابلية والآشورية نجد الفلك المطلي بالقير، وهو نفسه الذي ورد ذكره في التوراة، كذلك ورد ذكر رجل معين مع أسرته حذرته الآلهة بقرب حدوث فيضان وأنهمار مطر غزير يُغرق الأرض ويميت الناس، ثم ترسو السفينة على جبل ويرسل هذا الرجل ثلاثة طيور ثم يخرج المنقذ من السفينة ويقدم القرابين.

إن أوجه الشبه بين القصتين أمر يدعو إلى الدهشة ويجعل كل شخص يوافق على أن القصتين أصلهما واحد. ومن الطبيعي أن تكون

بينهما بعض الفروق، فالقصة البابلية تعكس أساساً من الشرك فيه كثير من الآلهة الذين يقومون بأدوارهما فأحدها يصمم على أحداث الفيضان وآخر يفشي سرّه.

إن الفكرة في القصة البابلية قاسية ولكنها صورة تنبض بالحياة، وهذه الفكرة نفسها هي التي أخافت الآلهة بعد إنحسار الطوفان عن الأرض. «**إن طغىٰ ماء الطوفان على الأرض**» ولا يمكننا تخيل يهوا في ذلك الدور. وفي القصة البابلية شاعرية، مع إنها تمثل الشرك، أما قصة التوراة فتعوزها تلك المسحة الشعرية، وقد تصدت لهذه الكارثة الآلهة عشتار إلّهة الحب ومحبوبة الإله العظيم (المقصود بالإلّه العظيم هنا، هو الإلّه انليل (اللّيل) الإلّه الرئيس لمدينة نيبور (نفّر). المسؤول الأول عن الطوفان ولامته بعنف وقوة على جريمته وأدعت أن لا حق للإلّه في أن يفني البشر قاطبة، فمن الناس أشرار ومنهم صالحون. فأذا اقترف الناس الأثام فباستطاعة الآله أن يرسل عليهم القحط والمجاعة وأن يبعث عليهم الطاعون الأسود ليفترس منهم وينقص عددهم ولا يجب عليه أن يرسل الطوفان العام. ثم تنتهي هذه الشكوى بجملة هي بدرجة من السمو لم تصل إليها التوراة وهي «على المذنب يقع ذنبه» وتعني بوضوح أن كل إنسان مسؤول عن أعماله فقط ولم يفهم العبرانيون حقيقة هذه الجملة أبداً.

لو تركنا هذه الفروق جانباً، لوجدنا القصتين لا يختلف بعضهما عن البعض بشيء، ولكن هل يؤيد هذه التوراة؟ سيقول بعض الناس، إنه تأييد لا يقبل النكران وهو أن الطوفان قد حدث حقيقة. سيقول الآخرون، لا، إنه برهان قاطع على أن الأساطير العبرانية قد جاءتهم من بابل. وها نحن أولاء نقول، أن الجواب عن هذا السؤال سيعطيه كل واحد منا بحسب ما عنده من خبرة سابقة ومران ديني وعلمي.

وشيء واحد خدمت به الآداب البابلية التوراة: هو إنها جعلت

التوراة أكثر فهماً، ويجب أن نذكر أن العهد القديم في الواقع هو كل ما عندنا من اللغة العبرية القديمة ومن هنا كان كثير من الكلمات قد ورد مرّة أو مرتين ولم يمكن فهمه من سياق الجملة ومضمونها. إن الآداب البابلية والآشورية غنية جداً بالنصوص من جميع الموضوعات المختلفة وقد كتب أغلبها بلغة تنتمي إلى المجموعة السامية نفسها التي منها اللغة العبرية وأكثر من هذا أن الكلمات نفسها والتعابير التي لم تكن مفهومة في العبرية، هي غالباً ما تكون واضحة كل الوضوح في النصوص البابلية. ولكن لا يزال هناك شيء لا بد من ذكره في هذا الصدد وهو إنه ليست المشكلة وحدها في الحصول على فكرة واضحة عن معاني الكلمات والجمل، بل أن التوراة نفسها فقيرة في تقديم صورة كاملة لنا، إنها كما لو كان أمامنا لوح من النحت البارز غني بالزخرفة والنقوش، يظهر عليه هنا وهناك وفي أجزاء مختلفة منه عدد من الصور الآدمية الواقعة، كاملة التصوير واضحة المعالم والتفاصيل ولكن بينها مساحات خالية من كل تصوير. فنحن عندئذ لا نستطيع أن نفهم معنى هذه الصور ما لم تملأ هذه الفجوات بصور ذات علاقة بها وهذه العلاقة التي يجب أن تربط هؤلاء الأشخاص المصورين، بعضهم ببعض، مفقودة. وبخلاف ذلك الآداب البابلية الآشورية فأن لها رصيداً غنياً بالكتابات والنصوص، فالبنسبة لها نفهم محتوياتها حتى ولو كانت ناقصة لأننا نستطيع أن نكمل الأجزاء المفقودة.

أما ما يتعلق بالتوراة، فبصرف النظر عن طريقة الانتشار الآنفة الذكر التي تتناول التراث الأدبي القديم، يوجد إتجاه معاكس آخر ربما نسميه الرقابة الحاسدة من جانب الكاهن، الذي لا يريد أن يتضمن الكتاب موضوعات أو تفسيرات لا تتفق مع رأيه الخاص سواءاً فيما يتعلق بالله كانت أم فيما هو جدير بما احتواه تاريخ مؤسسي الجنس اليهودي، فبالرغم من التقوى التي كان يتصف بها هذا الكاهن، نجده قد حذف بلا هوادة كل ما لم يلق استحسانه. إن هذه الحالة المستمرة في «تنقيح»

التوراة جعلتها كتاباً يفيض بالحياة أكثر من ذي قبل ولكنها جعلت المهمة شاقة بالنسبة للعلماء الذين يودون أن يستخدموها مصدراً في تتبع تطور الأفكار والنظم. وقد أثبتت النصوص البابلية مرة أخرى إنها مفيدة في هذا الصدد فقد حصلنا على نسخ الوثائق القديمة الأولى وما يليها ثم الأخيرة لكي تكون دراسة المادة مبنية على المقابلة العلمية التي لا يعوزها شيء وأن كانت المادة بحد ذاتها موضوعاً مضيناً.

وأخيراً، كان المسيحيون قد فحصوا في البداية عبارات من التوراة بغير أن يلتفتوا إلى مصادر أسسها الشرقية وقدموها لرجال الدين المتمدنين لتفسيرها، وكان هؤلاء لا يعرفون شيئاً عن الأفكار الشرقية كذلك كانت معرفتهم باللغات الشرقية قليلة جداً. فلما وقعت هذه التفاسير والترجمات المغلوطة في يد علماء اللاهوت في القرون الوسطى ألّفوا عنها نظريات وشروحاً بارعة غيرت معنى هذه العبارات تغييراً كلياً أثارت دهشتنا عندما وقعت أنظارنا على أصولها ومعانيها الصحيحة[1].

---

(1) أدوارد كييرا، كتبوا على الطين، ترجمة الدكتور محمود حسين الأمين، نشر بالمشاركة مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بغداد - نيويورك مكتبة دار المتنبي - بغداد 1964. وعنه أخذنا موضوعنا هذا.

ملحمة الخلق
إينوما ايليش

أول شيء حاوله الإنسان القديم أو المعاصر، هو تفسير الكون المحيط به، فكانت قصص التكوين والخليقة التي عبرت بصورة عامة عما أحاط به من عظمة الكون اللامتناهي. ثم إتجه الإنسان بفكره ليفسر كل شيء شغله في عالمه وأثر في حياته فأضاف ميتوس الأصول ليكمل به ميتوس التكوين. وكانت فكرة الخلق من العدم فوق طاقة العقل البدائي، فتراه يفترض أن كل شيء أو الأشياء قد خلقت مما هو موجود سلفاً كالبحر، وأن الحياة قد خرجت من المياه.

لقد تصور كتّاب أساطير ما بين النهرين، العالم كما يرون جنوب العراق في منطقة شط العرب. هناك بعد أن تمر مياه الرافدين العذبة في سهول العراق تختلط بمياه الخليج العربي المالحة (أو النهر المر) وتخيم الغيوم المنخفضة على الأفق.

كانت الأرض بالنسبة لهم قرصاً مسطحاً محاطاً بسوار من الجبال. سلسلة زاغروس من الشرق وطوروس من الشمال ولبنون (لبنان) من الغرب. وعلى هذه السلاسل الجبلية الثلاث ترتكز قبة السماء وكأنها غطاء للأرض وفيها تجول الإجرام السماوية. هذه الأرض كانت عالم الأحياء وتحتها عالم آخر هو «العالم السفلي» أو «أرض اللاعودة» حيث يسكن الأموات، تكتنفهم الظلمة وتحيط بهم الأقذار والوحول المرة.

وكل هذا الكون تصوروه قائماً في محيط كوني مالح. كل الأرض لم تكن سوى الهلال الخصيب ومركزه بابل عند البابليين أو نيبور عند السومريين. والأرض والسماء والبحر قد التقوا في البدء في عماء كوني من الفوضى ينقصه الكثير من التنظيم. وهذا ما صنعته الإلّهة.

في أساطير الخلق لما بين النهرين انبثقت الحياة من المياه، ووجد العالم والبشرية نتيجة الصراع بين الأجيال السابقة واللاحقة. من الآلهة. كانت القصة الأولى للخلق هي السومرية نحو (3000 ق. م) ثم تبعتها نصوص بابلية في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، وكان آخر نص هو ملحمة الخلق البابلية «اينوما ايليش» التي أخذت شكلها النهائي في القرن السابع قبل الميلاد.

وقصص الخلق المتعددة لا تختلف في جوهرها الفكري، إنما كانت تعدّل جزئياً مع تبديل في أسماء الآلهة، حسب الهيمنة السياسية لكل مدينة. لأن لكل مدينة إلّهها الرئيسي. فبعد أن كان (انليل) هو الخالق في القصة السومرية أصبح «مردوخ» في البابلية واستعيض عن «انكي» بـ (آيا) وبوجه عام استعملت الأسماء السامية لنفس الآلهة.

وفي القصص السومرية ـ البابلية تكون الآلهة جزءاً من العالم وجزءاً من قوة الخلق فيه. فـ «انليل» إله الهواء فصل بين (آنو) السماء و«كي» الأرض و«انكي» خلق الإنسان ليخدم الآلهة وعلمه أساليب العمل والحياة. أما مردوخ فقد قتل تنين الشر والفوضى الكونية «تيامات» (تهامه) في معركة ضارية وشق جسمها إلى نصفين، جعل منهما الأرض والسماء. ثم خضعت له الآلهة ورَأَسَّتْهُ عليها بد أن أنقذها من التنين المخيف. ثم خلق الإنسان ليخدم الآلهة ويغذيها بذبائحه كما فعل انكي عند السومريين. ولا نجد إلّهاً واحداً مسؤولاً عن خلق كل شيء، بل توزعت الأدوار والأعمال وكان العمل الكبير للآله الكبير.

لقد وجدت الـ «اينوما ايليش» مكتوبة على سبعة ألواح، وقد نظمت

أصلاً في بدء الألف الثاني قبل الميلاد. لكن النصوص الموجودة تعود إلى الألف الأول قبل الميلاد، وفي كل النسخ يلعب مردوخ الدور الرئيسي. وقد بقيت هذه الملحمة تتلىٰ في اليوم الرابع من احتفالات رأس السنة الـ «اكيتو» من شهر نيسان ولمدة الفي عام في بابل، تُذَكِّر الناس بسيادة النظام على الفوضى.

وسفر التكوين في التوراة قد ثَبَتَّ في خمسين أصحاحاً (فصلاً) تتألف من (1542) عدداً (آية أو مقطعاً) لم يصب منها التكوين والخليقة وفكرة «كمال البدء» سوى 80 عدداً. وقد دونت في ثلاثة أصحاحات. كما لم يصب فكرة «نهاية العالم» وتجديده بطوفان تقليدي سوى (68) عدداً وردت في ثلاثة أصحاحات أيضاً فيكون المجموع (148) عدداً فقط من أصل (1542) عدداً لكامل سفر التكوين. ونجد في سفر التكوين قصتين للخلق:

الأولى: الإصحاح 1 ـ 2: 2 ـ 4 من جمع الكهنة في القرن الخامس قبل الميلاد وهي ترتكز بشكل رئيسي على الاينوما ايليش البابلية مع مفاهيم سومرية، وتسلسل عملية الخلق في ستة أيام يتبع تسلسل الاينوما ايليش منتهياً بخلق الإنسان، يتبع ذلك راحة في اليوم السابع ـ السبت.

الثانية: الإصحاح 2: 4 ـ 25 وهي قصة فلسطينية المسرح مع تشابه بالقصة البابلية. خلق فيها آدم من الطين (أدما) أو الأديم.

وفي ترجمات قصة التكوين العبرية في مختلف اللغات نجد الله وحده خالق السموات والأرض وكل ما فيها تأكيداً لعقيدة التوحيد. بينما النص العبري ينسب الخلق لـ «ايلوهيم» Elohim أي الآلهة «في البدء خلقت الآلهة السماء والأرض» أي أننا نجد في النص العبري تعدد الآلهة كما في النصوص السومرية والبابلية ونرى مما تقدم أن معظم سفر التكوين يختص بـ «ميتوس الأصول» وليس بـ «ميتوس الخلق» وفيه الإنسان الأول هو «آدم» ثم تحدّر منه الآباء حتىٰ إبراهيم وإسحاق

ويعقوب والإسباط الإسرائيليين. «وبما أن قصة التكوين التوراتية قد دونت في مراحل سياسية واجتماعية متأخرة بالاعتماد على أفكار ميتية بابلية وسومرية، لم تكن على ما يبدو من معتقدات اليهود القدماء الأساسية الايلوهيمية أو اليهوهية. لذلك فأن سرد ميتوس الأصول القبلية المشار إليه لم يخل من اتجاهات عنصرية عدائية مثل سياسة القبيلة وموقفها من غيرها من الأقوام والشعوب».

ملخص الملحمة البابلية

1) صراع بين الآلهة وفوضى وعماء كوني.

2) انتصار الآلهة بقتل تيامات وخلق مردوخ للكون، السماء والأرض والنجوم والكواكب والقوانين التي تسّيرها.

3) خلق النبات على الأرض.

4) خلق الحيوانات والأبقار والوحوش... إلخ.

5) خلق الإنسان من دم وعظام وطين. وقد عارض بعض الآلهة مردوخ خوفاً من منافسة الإنسان لهم.

6) تمجيد مردوخ من قبل كل الآلهة والبشر.

ملخص سفر التكوين

1) خلق الله النور وفصل بين النور والظلمة فصار نهار وليل.

2) خلق الجلد أو السماء فاصلاً بين المياه التي تحت والمياه التي فوق.

3) خلق اليابسة الأرض وفصلها عن البحار وخلق عشباً وشجراً.

4) خلق الشمس لتنير النهار والقمر ليحكم الليل.

5) خلق الزحافات والطيور.

6) خلق حيوانات البر وخلق الإنسان على صورة الله وشبهه وسلطة عليها.

7) استراح الله في اليوم السابع بعد أن فرغ من عمله.

وبعد أن انتهى انكي (آيا) من تعليم البشر اختارت الآلهة بابلياً ليكون راعياً لشعبها.

بابلية ملوك ما قبل الطوفان	توراتية آباء ما قبل الطوفان
1 ـ ألوليم في اريدو حكم 28000 سنة	آدم 130 سنة
2 ـ ألالمار في اريدو 36000	شيت 105 سنة
3 ـ امنلوانا في بيت كركار 43000	آنوش 90 سنة
4 ـ كيشوتا في لارسا 43000	فيتان 70 سنة
5 ـ انمنغلانا في بيت كركار 28000	مهلئيل 65 سنة
6 ـ دوموزي في بيت كركار 36000	يارد 162 سنة
7 ـ سبزيانا في لاراك 28000	اخنوخ 65 سنة
8 ـ امندورانا في سيبار 21000	متوشالح 187 سنة
9 ـ اوب ـ اوراتوم في شوروباك 18000	لامك 182 سنة
10 ـ اوتنابشتايم بطل الطوفان 64000	نوح بطل الطوفان 600 سنة
45000	1656 سنة

وردت هذه الأسماء في ثبت ملوك ما قبل الطوفان. وقد أورد «برعوشا» (بيروسوس) البابلي أن اسم الملك الأول هو ألوروس وإنه حكم (36000) سنة. ولم يعرف عن هؤلاء الملوك إلا القليل ما عدا عدد السنين الخيالي الذي حكموا خلاله ومجموع هذه السنين (3450) قرناً.

وفي محاولة تفسير أرقام برعوشا يعتقد العلماء المعاصرون أن السنة الأسطورية لم تكن سوى أسبوع واحد أو يوم واحد. ولا ندري إذا كان

واضعوا هذه الأرقام أنفسهم قد وعوا ما كانوا يقولون لأن أرقامهم فلكية دون أن يكون لها علاقة بالهندسة الكونية أو التقويم الزمني الاعتيادي.

والملك السابع المدعو عند برعوشا «ايفيدور اخوس» والذي اسمه في النصوص البابلية «ايفيدور انكي» (سبزيانا) له أهمية خاصة، وهو إنه تلقى علماً خاصاً من الإلهين شمش وادد (هدد) لم يعلمه «آيا» للبشر وهو نفسه كان يجهله، ألا وهو «علم العرافة».

خلق البشر ليخدموا الآلهة، والآلهة طغاة يعاقبون بشدة حتىٰ من أجل الأخطاء التافهة. لذا يجب على البشر أن يطيعوا بدقة، وعليهم أن يطابقوا تصرفاتهم مع إرادة الآلهة. فما العمل من أجل تجنب الأخطاء؟ أن الآلهة تبين ما تريد مباشرة عن طريق الأحلام، إلا أن تفسير الأحلام مهمة صعبة والأصعب من ذلك ألا يكون هناك أحلام للتفسير. إذن يجب اللجوء إلى التخمين والتنبؤ بالمستقبل.

كما أعطى البابليون أهمية عاطفية كبيرة بنظرة ملؤها الخوف لتبدلات القمر وأشكال الغيوم وحتىٰ لكل حركة من حركات الزحافات بين الأعشاب، أو تحركات الكواكب السيارة. كل شيء اعتبروه علامة لإرادة الآلهة الحسنة أو السيئة، ومهمة الفن والعلم هو معرفة هل العلامة سيئة أم حسنة. هنا بدأ دور السحر في تعجيل الحسن وأبعاد السيء الذي يهدد حياة الملك والتي يتوقف عليها مصير الملك خاصة والبلاد عامة.

والملك الذي أطلعته الآلهة على هذا العلم هو الملك السابع ايفيدور انكي (سبزيانا) من ملوك ما قبل الطوفان والذي يعادل اخنوخ بين الآباء في التوراة، ورغم تباين الأسماء فأن دورهما متشابه جداً. وقد قالت التوراة في سفر التكوين: «سار اخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه». وقبل بدء العصر المسيحي حيكت عدة قصص حول اخنوخ فقيل إنه اخترع الكتابة وألّف أول كتاب وألّف علم التنجيم. وهكذا أصبح ايفيدور انكي آخر. وليست الأساطير العبرانية المتأخرة سوى اقتباس وتطوير

وتحريف للأساطير الكلدانية القديمة.

والملاحم البابلية تختلف اختلافاً ملحوظاً في الصورة والمادة عن آداب الساميين الآخرين. والجزء الأكبر من الأساطير ليس إلا نسخة جديدة من الروايات السومرية التي تعدّ الأساس الحقيقي لأدب أرض الرافدين. ومن الطريف أن نلاحظ أن المؤلفين لم يكونوا يترددون في أن يكرروا مرات عديدة خلال العمل الأدبي الواحد صورة أو فقرة ترضي نفوسهم. ومبدأ التكرار هو أيضاً أساس القالب الشعري، فهو لا يتميز بالقافية أو يقاس بالوزن إنما يقوم على تتابع العبارات المتوازية، سواء أكان هذا التوازي عن مساواة ومشابهة أو عن تضاد. وهذا التكرار من صفات الأدب السومري.

ومن أجل تكامل قصة التكوين لا بد من إضافة نصوص من ملحمة الخلق السومرية إلى النصوص البابلية، لأن المهم هو إبراز الأدب القديم ككل. وفي القصتين حدث الطوفان أيام الملك العاشر زيوسودرا السومري أو اوتونابشتم أو نوح التوارة.

الألواح 1 ـ 3 تحكي قصة ولادة الآلهة من مياه البدء الابسو وتيامات واختيار مردوخ بطل الجيل اللاحق من الآلهة ليخوض المعركة من التيامات.

«اينوما ايليش لانبوشمامو»

«عندما في الأعالي لم يطلق على السماء اسم،
واليابسة من تحتها لم تدع باسمها،
لم يكن شيء سوى «أبسو» البدء التي أوجدتهما،
و «مومو» و «تيامات» التي ولدتهما،
وكانت مياههما تتمازج في هوة واحدة،
لم تبن الأكواخ ولا ظهرت المستنقعات بعد،
عندما لم يكن أي من الآلهة قد ولد،

ولا دعيت بأسمائها ولا قدرت مصائرها
عندئذ تكونت الآلهة في تلك المياه».

هكذا كانت الفوضىٰ تَعُمُّ الكون، وكانت هوة سحيقة تختلط فيها المياه العذبة «أبسو» مع المياه المالحة «تيامات» (البحر) والغيوم «مومو» وقد سمي تنين الشر تيامات «كور» عند السومريين، و«رهب» عند العبرانيين.

وأول الهين خرجا من فوضى البدء هما «لحمو» و«لحامو» يمثلان الطميٰ الرسوبي في ملتقىٰ النهر والبحر. ثم خرج «انشار» و«كيشار» حيث يلتقي أفق الأرض بأفق السماء.

ثم ولد لـ «آنشار» و«كيشار» «آنو» (السماء) وهذا بدوره ولد «إيا» (انكي إله الحكمة ومياه العمق) وبنفس الوقت تكّون لأبسو وتيامات بضعة آلهة مثيرة للضجة والصخب في بطن تيامات، فتشاور أبسو ومومو وقررا قتل هذه الآلهة الصاخبة لكن تيامات ترددت في قتل أطفالها.

علمت الآلهة الكبرى بالمخطط، لحمو ولحامو، انشار وكيشار آنو وآيا جميعاً دهشوا، وقفوا مشدوهين صامتين، لكن آيا الحكيم وجد السبيل لاجهاض الجريمة، فقد رقىٰ مومو فأصيب بالشلل، ورقىٰ أبسو فغرق في النوم ثم ذبحه. بعد هذا النصر عاد آيا إلى معبده في أعماق المياه العذبة ولقي زوجته «دامكينا» فولدا الآله مردوخ بصفاته الرائعة:

«كاملة هي أعضاؤه، تفوق كل وصف،
لا يمكن فهمه، بل يصعب إدراكه،
أربع كانت عيونه، وأربع كانت آذانه،
إذا تحركت شفتاه ينفث من بينها لهباً،
واسعة كانت أعضاء سمعه الأربعة،
كذلك أعينه الأربع ترى كل شيء،
كان اسمى الآلهة وأعظمهم بقامته،

أعضاؤه هائلة وقامته فارعة طولاً.».
وكانت تيامات الشريرة لا تزال حرة طليقة
«تيامات تزأر، غضبها مخيف،
تنوي الشر بقلبها، تخلق الأفاعي الهائلة،
أسنانها حادة، ولا تشفق في الحرب،
بالسم لا بالدم تملأ جسدها،
وتنانين هائلة تلبسها ثوب الأرهاب،
عينت كنجو ابنها على رأس جيش الشر،
وأعلنت الحرب على الآلهة..».

اللوح الرابع:

جزعت الآلهة وضرب آنشار جبينه وعض شفتيه، يجب التخلص من كنجو ولكن أين من ينازله. لقد تهرب الآلهة من مواجهته واحداً بعد الآخر إلا مردوخ العظيم الذي قبل المهمة بشرط أن يصبح ملك الآلهة «ينظم مجمعهم، يسيّر أقدارهم وأقدار الآخرين». اجتمع الآلهة في وليمة، أكلوا وشربوا، ثم سلموا مردوخ شارات الملك والسلطة فأختار أسلحة المعركة «القوس والبرق والعاصفة والرياح الأربعة والشبكة» لبس أسلحة الحرب وحول رأسه هالة الخوف، ركب عربة العاصفة وسار ليحارب تيامات وقوى الشر والفوضى، رآه جيش التنانين فتشتتوا وأسر قائدهم كنجو، ألقىٰ شبكته على تيامات وما أن فتحت شدقيها حتىٰ نفخ الرياح الأربعة في جوفها ثم طعن قلبها بأحد نباله وحطم رأسها بصولجانه ثم شق جسدها إلى نصفين. جعل من أحد النصفين جَلَداً يغطي الأرض ووضع النصف الآخر في أسفل من تحت الأرض. وانتزع لوحات القدر من كنجو وثبتها على صدره.

«أقاموا لمردوخ عرش الامارة،
جلس عليه، واجه أباءه وترأس،

أنت المعظم بين الآلهة، أنت المبجل،
لا منازع لأحكامك،- أوامرك علياً مثل آنو،
أنت يا مردوخ أمجد كبار الآلهة،
لا مرد لحكمك، كلمتك هي العليا،
منذ اليوم لا تتبدل مشيئتك
ترفع وتدني كما تشاء...»

(اصموئيل 2: 7)

أقوالك حق وأوامرك نافذة
لن يجرؤ أي من الآلهة على امتيازاتك
ولتحظ مزارات الآلهة بالقرب من مزارك
والحق يا مردوخ إنك انتقمت لنا
لذا منحناك ملك الكون أجمع
وفي المجمع المقدس كلمتك هي العليا
أسلحتك لن تخيب بل ستسحق أعداءك
أيها السيد أمنح الحياة لمن يؤمن بك
وابد الآله الذي يضمر الشر...
وضعوا قطعة من قماش في وسطهم

(قضاة 6: 36 ـ 40)

وتوجهوا إلى مردوخ، بكر الآلهة:
أيها السيد، حقاً أن أحكامك هي الأولى،
قل كلمة أفناء أو كلمة خلق وسيكون،
قل كلمة فيختفي النسيج،
أعد كلمة وسيعود كما كان»
وبكلمة أخفاه وبكلمة أعاده،

لما رأى آباؤه ثمرة كلمته
تهللوا وبايعوه «مردوخ ملكنا»
«منحوه صولجاناً وعرشاً وحلة
أعطوه أسلحة لا تضاهى، تدمر الأعداء
أنهض وستبيد تيامات
ولتحمل الرياح دمها إلى المجهول»
وما أن ثبت الآلهة قدر بيل
حتى أرسلوه في دروب النصر والسؤدد
صنع قوساً جعلها سلاحه
ركب عليها سهماً وثبت الوتر
رفع الصولجان وقد أمسكه بيمناه
وعلى جنبه علق السهام والكنانة
أقام البرق أمامه
وبنار لاهبة ملأ جسده
ثم صنع شبكة ليطوق بها تيامات
وأقام الرياح الأربعة كي لا يفلت منها شيء
ريح الجنوب، ريح الشمال، ريح الشرق، وريح الغرب
وإلى جنبه جعل الشبكة، منحة من أبيه آنو.»
«خلق ايمهوللو» الريح الشريرة، الريح الدوارة، الأعصار
الريح المضاعفة أربع مرات وسبع مرات والتي لا تضاهى
وأطلق الرياح التي خلقها، الرياح السبعة،
تبعته لتثير جوف تيامات وتحركه
ورفع الرب عاصفة الطوفان، سلاحه القوي،
اعتلى عربة العاصفة، الرهيبة التي لا تقاوم
وربط بالنير إليها أربعة،
القاتل والقاسي والدائس والسريع،

حادة الأسنان يحملون السهم فيها،
دربوا على التخريب واتقنوا التدمير..
على يمينه وضع «الضارب» مرعب في المعركة
وعلى يساره وضع «الصراع» يدفع المغير
ومن أسلحة الرعب جعل رداءه
وأحاط رأسه بهالة «الخوف»
ومضى الرب قدما وتابع مسيره
نحو تيامات الهائجة وجّه خطاه
بين شفتيه كان يحمل نميمة
وبيده أمسك عشبة تفسد السم
وسار الآلهة أباؤه من حوله»
«اقترب الرب ليتفحص جوف تيامات
وكنحو قرينها ليفهم خططه
وبينما يراقب تزعزع خط سيره
تاهت إرادته وارتبكت أعماله
وعندما رأى الآلهة من حوله
البطل الصنديد بهرت أبصاهم».
«زأرت تيامات دون أن تلتفت
وفي شفتيها الاحتراس والتوحش
«يا سيد الآلهة، أتظن أن مكانتك تمنعني من مقارعتك
هل في ديارهم اجتمعوا أم في ديارك؟»
فرفع السيد عاصفة الطوفان سلاحه القوي
وإلى تيامات الهائجة وجه كلماته:
«لماذا تنهضين تشمخين وتتكبرين
وفي قلبك تحملين أثارة القلاقل
حتى أبناؤك ينبذون آباءهم

وأنت التي ولدتهم تنكرين عليهم الحب
جعلت من كنجو قريناً لك
وخلعت عليه رتبة آنو دونما استحقاق
ضد آنشار، ملك الآلهة، تبحثين عن الأذى
وضد الآلهة، آبائي، تبثين شرورك
قواك معدة وسلاحك جاهز
فانهضي لنتصارع منفردين»
ما أن سمعت تيامات هذا
حتى فقدت صوابها وحواسها كالـ «مسكون»
بغضب صاحت تيامات عالياً
وارتعشت ساقاها من جذورهما
وتلت تعويذة وأخذت تنفث سحرها
بينما أخذت آلهة الحرب تشحذ أسلحتها
واشتبكت تيامات مع مردوخ أحكم الآلهة
التحما في المعركة منفردين وتعاركا»
نشر السيد شبكته وطوقها
وأطلق ريح الأذى التي تبعته في وجهها
ولما فتحت تيامات شدقيها لتلتهمه
أرسل بينهما ريح الأذى كي لا تطبق الشفتين
فملأت الرياح الهائجة بطنها
وانتفخ جسمها واتسع فوهها
أطلق سهماً مزق بطنها
اخترق الأحشاء وشق فؤادها
طرح جثتها و«أطفأ» حياتها
«وبعد أن ذبح تيامات القائدة
تَشتتَّت عصابتها وتَدمَّر جيشها

والآلهة الذين ساندوها ومشوا بجوارها
هَزَّهم الرعب فولوا الأدبار
هربوا لينجوا بأنفسهم ويحيوا
طوقهم بأحكام فلم يجدو مهرباً
جعلهم أسراه وحطم أسلحتهم
سقطوا في الشبكة وأصبحوا محاصرين
وضعوا في زنزانات وأمتلأت قلوبهم نواحاً
تحملوا سخطه فاضحوا سجناء
والمخلوقات الأحد عشر الذين حملتهم بالويلات
وجمهرة الشياطين التي سارت أمامها
من أجل مقاومتهم داسهم بالأقدام
وكنجو الذي جعل رئيساً عليهم
قيده ودفعه إلى «اوجي» إله الموت
وانتزع منه «لوحات القدر» وهي ليست من استحقاقه
ختمها بختمه وثبتها على صدره».
«ولما قهر مردوخ وأخضع أخصامه
ولما داس أعداءه المتعجرفين
وثبت نصر أنشار على أعدائه
وحقق أماني آيا
شدد مردوخ الصنديد قبضته على الآلهة المغلوبين
وألتفت إلى تيامات التي قيدها»
داس الرب على ساقي تيامات
بصولجانه الذي لا يرحم، حطم جمجمتها
قطع أوعيتها وأنزف دَمها
فحملته ريح الشمال إلى أماكن مجهولة
«رأى آبائه ما حدث ففرحوا وتهللوا

قدّموا له هدايا العرفان والطاعة
توقف الرب يتفحص جثتها الهامدة
ليشق الوحش ويقوم بأعمال الإبداع
شقها فلقتين كما يشق الصدفة
رافع نصفها وجعله سقف الجلد
أغلق النوافذ وأقام الحراس عليها
أمرهم أن يمنعوا مياهها من التسرب
عبر السماوات وتفحص الأصقاع.
حدد مياه «الابسو» مسكن آيا
«المسكن العظيم» «اي ـ شارا» الذي جعله جَلَدا
وعَيَّن لآنو وانليل وأيا أماكنهم».

اللوح الخامس:

بعد أن أصبح مردوخ ملك الآلهة المطلق بدأ في تنظيم الكون فصنع منازل الآلهة وثبت الأبراج ووضع النجوم في أماكنها وحدد الأزمنة وفصول السنة والأشهر الأثني عشر، وأوكل لآله القمر، سين، أن يقيس مرور الزمن:

«صنع مردوخ منازل لكبار الآلهة
ثبت نجومهم في مجموعات
حدد السنة وجعل لها فصولاً
لكل شهر من الأثني عشر أقام ثلاثة أبراج
بعد تحديد أيام السنة برموز سماوية
أقام مسكناً لـ «نبيرو» (جوبيتر) ليحدد مجموعاتهم السماوية.
كي لا يتخطى أحد حدوده أو ينقص عنها
وبجانبه أقام مسكني (انليل) و(آيا)
وبعد أن فتح بوابة في كلا الجانبين

دعم الأقفال على اليسار وعلى اليمين
«وفي جوف تيامات ثبت السمت»
جعل القمر نيّرا وسَلّطه على الليل
عينه مخلوق الليل به تحدد الأيام
«في كل شهر بلا انقطاع تبدل أشكالك»
في بدء الشهر تطل على الأرض
وسيكون لك قرنان نيران لستة أيام
في اليوم السابع تصبح نصف دائرة
في منتصف الشهر تصبح بدراً وتواجه الشمس
وعندما ينحسر عنك ضوء الشمس في قاعدة السماء
انقص من دائرتك وانقص من نورك
عند اختفائك اقترب من مدار الشمس
وفي التاسع والعشرين تعود تواجه الشمس
بعد المحاق تعود ثانية إلى الأرض. . .»

اللوح السادس

بعد تنظيم الكون قرر مردوخ أن يخلق الإنسان ليخدم الآلهة في معابدها ويطعمها من ذبائحه وقرابينه كي تنصرف إلى مهامها الآلهية وترتاح من عنائها. فاستشار أباه آيا فنصحه أن يذبح كنجو قائد جيش تيامات ليخلط دمه بالعظام والطين، ومن الحيلة يصنع الإنسان، أول إنسان، الإنسان المتوحش «لولو».

عندما سمع مردوخ كلام الآلهة
تحرك قلبه ليخلق ما هو حسن
حدّث أباه آيا بما يجول في خاطره قائلاً
«إني جامع دما إني خالق عظماً

سأخلق متوحشاً وسيكون اسمه إنسان

(تك 1: 26)

حقاً سأخلق الإنسان المتوحش «لولو»
سأفرض عليه خدمة الآلهة كي تستريح
سأبدل طرق الآلهة لما هو أفضل
ساقسمهم مجموعتين تعبدان بالتساوي
أجاب آيا مخاطباً مردوخ
وقدم خطة أخرى لتحرير الآلهة:
«ليقبض على واحد من أخوتهم
وليقض عليه من أجل خلق البشر
فادع كبار الآلآلهة إلى المجمع
يقبض على المذنب كي يبقى الآخرون»
دعا مردوخ الآلهة إلى المجمع المقدس
تراس بجلال ووزع التعليمات
لكلماته يصغي الآلهة بانتباه
فالملك يوجه كلمته «للانوناكي»
«أن كانت أقوالكم السابقة حقة
أقسموا بي بأن تعلنوا الصدق أمامي
مَن مِن الآلهة خطط للشغب
من حرض تيامات على التمرد وحارب إلى جانبها
فليسلم من خطط للشغب
سأحمله وزر جريمته وتبقون أنتم بسلام»
«أجاب الـ (اجيجي) الآلهة العظام
«لو جال ديمرانيكيا» سيدهم (ملك آلهة السماء والأرض)

إنه كنجو من خطط للشغب
حرض تيامات على التمرد وشاركها المعركة»
قيدوه وأمسكوه أما آيا
أدانوه بالجرم وانزفوا دمه
ومن دمه صنعوا الإنسان
فرض عليه آيا الخدمة ليحرر الآلهة
آيا الحكيم خلق البشر لتخدم الآلهة
إنه عمل يفوق الإدراك
وكما صممه مردوخ هكذا خلقه آيا...»
«مردوخ ملك الآلهة قسمها
أوكل الانوناكي في الأعلى وفي الأسفل
وأوكل إلى آنو كي يحافظ على تعليماته
ثلاثمئة يسكنون الأرض بين الناس
ستمئة أقام في السماء وعلى الأرض
وبعد أن أمر بكل تعليماته
عين لانو ناكي السماء والأرض مهامهم
«حدث الانوناكي سيدهم مردوخ:
أيها الرب يا من حررتنا
كيف نعبّر عن ولائنا لك؟
تعالوا نبني له مقاماً وسنعين له إسماً
تعالوا نبني له عرشاً ومسكناً
نستريح فيه حتىٰ نصل يوم رأس السنة
سمع مردوخ كلامهم
فرح وأشرق وجهه كالنهار

لتكن بابل الشامخة التي ستبنون
أصنعوا قرميدها وأدعوا إسمها مقدساً
أخذ الانوناكي عدة العمل
ولمدة سنة كاملة صنعوا الأجر
ولما حلت السنة الثانية
رفعوا رأس آي ـ ساجيلا بعمق الأبسو
أقاموا فيها مسكناً لمردوخ وانليل وآيا
وبحضورهم زينها بعظمة وإجلال
وقرناها ينظران إلى أسفل إلى أسس آي ـ شارا
وبعد أن أتموا بناء آي ـ ساجيلا
بنىٰ الانوناكي مقاماتهم بأنفسهم
لقد تجمعوا كلهم وبنوا «بابل» له مسكناً
«أولم مردوخ لآبائه الآلهة
«هذه بابل التي صارت لكم موطناً
أفرحوا بمعابدها وأملاوا ساحاتها»
جلس الآلهة، احتفلوا وشربوا
في آي ـ ساجيلا أقاموا طقوسهم وثبتوها
وتقاسم الآلهة منازل السماء
الآلهة الخمسون الكبار أخذوا أماكنهم
وآلهة القدر السبعة وضعوا ثلاثمئة في السماء
«رفع انليل قوسه ووضعها أمامهم
رأى الآلهة الشبكة التي صنعها
وأعجبوا بالقوس وبمهارة صنعها
فمجدوا آباؤه ما صنعت يداه

وعين آنو قدر القوس
ووضع العرش المجيد أمام الآلهة
جعله آنو في مجمع الآلهة»
«ولما اجتمع الآلهة ليمجدوا مردوخ
أطلقوا فيما بينهم لعنة
لقد أقسموا بالماء والزيت أن يجعلوا الحياة مهددة
ولما منحوه الملك على الآلهة
أكدوا سلطانه على آلهة السماء والأرض
آنشار قال «النصغي بخشوع عند ذكر أسمه
وإذا تكلم ستصغي الآلهة إليه
ولتكن أوامره العليا في الأعلى وفي الأسفل
ليتمجد الابن الذي انتقم لنا
ولتعم سيادته بدون مزاحم
وليرعىٰ ذوي الرؤوس السود خلائقه
وإلى الأبد لا ينسون اتباع سبله
وليقم لآبائه الذبائح والقرابين
وليقدموا لهم الغذاء وليرعوا معابذهم
وليجعل رائحة البخور تتصاعد ليستنشقوها
وليكن على الأرض شبه ما عمل في السماء
وليأمر ذوي الرؤوس السود أن يقدسوه
وليفكر رعاياه أبداً بآلههم.
وبأمر منه يصغون إلى الآلهة
وليقدموا القرابين لآلهتم وإلهاتهم
وإلا يتقاعسوا في تغذية إلهتهم

وليحسنوا أرضهم ويبنوا مزاراتهم
وليكن ذوي الرؤوس السود بأمر آلهتهم
ونحن مهما تلفظنا بأسماء فهو الهنا
فلنعلن أذن أسماءه الخمسين. . .

(لم يذكر شيء عن خلق المرأة)

تعليم الإنسان

كان مردوخ (انليل) يجلس على عرشه الطاهر، يدل بأصبعه على البحار واليابسة، يرسل أشعة الشمس على السهول، ومياه الينابيع من التلال إلى الصحاري الجرداء فيملأها خصباً. ثم ينظر إلى خليقته متمنياً لها الخير والرخاء. وفي جلال القادر على كل شيء أو كل أيا (انكي) أن يرعى بابل العظيمة (سومر) ويعلم البشر.

كأن لآيا جسم سمكة برأسين، تحت رأس السمكة كان له رأس إنسان، وعند الذنب يخرج له ساقاً إنسان. كان صوته صوت إنسان وقضئ النهار بين الناس دون طعام.

عظيمة هي أعمال آيا، كانت كلها هبات للبشر. فآيا هو أحكم الآلهة وسيد كل علم وقادر أن يحرم الناس الفهم. عَلّم الإنسان فنّ الكتابة والعلوم وكل أنواع الفنون. من طين الأنهر جبل القرميد وعَلّم الحرفيين ذوي الرؤوس السود كيف يبنون الجدران والمدن مدماكاً فوق مدماك مزينة بخشب الأرز. فأسسوا المدن والمعابد وعلمهم مبادىء التشريع والهندسة. وبنئ حول كل مدينة سدودا ليروي السهول في فصل الجفاف فلا يلفح القمح بشمس الظهيرة.

كذلك علم الإنسان الزراعة والحصاد، وكمعلم صالح كَدَن الثيران بالنير لتحرث الأرض في الفصل المناسب. وأرى الإنسان كيف ينبت الحبوب كالجواهر في الحقول المشمسة. ومن التلال ساق الأغنام إلى

المروج تتبعها صغارها وبنىٰ لها الحظائر، وعَلَّم الأسماك في النهرين العظيمين أن تبيض بين أعشاب النهر لتتوالد وتغذي شعب بابل (سومر).

ولما انحنت أعواد الشعير بثقل السنابل بنىٰ آيا الصوامع وملأها بأنتاج الحقول وثمار البساتين، الدراق والتوت والموز والرمان والمشمش. وزين الحدائق الغنَّاء بأشجار النخيل. وكان يوشوش بنسمات الجنوب. إنه قد أعطى الإنسان كل ما يبهج الحياة. ومنذ ذلك الحين لم يخترع شيء جديد قط.

عند المغيب كان آيا يغطس في البحر ويقضي طوال الليل تحت الأمواج، لأنه كان برمائياً. وأخيراً ألف كتاباً عن أصول الأشياء وعن الحضارة ووهبه للبشر.

بعد أن انتهى آيا من تعليم الإنسان سبل الحياة اختفىٰ. فأختارت الآلهة بابليا (راعيا للشعب) وكان اسم الملك الأول «ألوليم» وسماه برعوشا (الوروس).... والملك السابع أسمه سبيزيانا (ايفيدورانكي) تعلَّم ما لم يُعلّمه آيا للبشر وهو علم العرافة على يدي شماش وهدد (اخنوخ). لقد خلق الإنسان لخدمة الآلهة وبدأ الإنسان كاملاً بفعل مشيئة الآلهة فكان عصره الذهبي....

التكوين السومري

لم تصلنا عن السومريين أسطورة متكاملة في الخلق والتكوين وأصول الأشياء. وأن كان العلماء لا يستبعدون العثور على مثل هذه الأسطورة سواء في الألواح الفخارية المبعثرة في معظم متاحف العالم أو في باطن أرض سومر حيث ما زلنا نتوقع مزيداً من الكشف عن التاريخ المطمور. إلا أن النصوص المتفرقة التي تمّ العثور عليها، والمتعلقة بأمور الخلق والتكوين، تكاد تعطي صورة واضحة عن أفكار السومريين بهذا الشأن ونظرتهم إليه. وأن دراسة متعمقة لتلك النصوص وربطها ببعضها في سلسلة منطقية، لتدلنا على أن الأسطورة ليست بالسذاجة التي تبدو عليها في نظر القارىء العادي، وأن الرموز الأسطورية التي استخدمها الإنسان القديم ليست إلا وسيلة إيصال وقالب تعبير. إنها لغة متميزة تحاول من خلال مفرداتها وتعابيرها ومصطلحاتها إيصال حقائق معينة. وهي منهج له من المشروعية فالبقية المناهج التي أبتكرها فكر الإنسان، لاحقاً، إذا أخذنا بعين الاعتبار العملية التطورية البطيئة والصاعدة التي سار بها عقل الإنسان منذ فجر التاريخ.

لم تكن أفكار السومريين عن الخلق والتكوين، أفكاراً بدائية بل أفكاراً ناضجة بالدرجة التي تتيحها معارف تلك الفترة من بداية حضارة الإنسان. فلقد أثبت السومريون مقدرة فائقة على الملاحظة الذكية والربط، واستخلاص النتائج المنطقية من المقدمات المنطقية والحقائق والوقائع المشاهدة. وأن دراسة النصوص الأسطورية المتفرقة تعطينا

التسلسل الأسطوري التالي لعملية خلق العالم والأكوان:

1) في البدء كانت الآلهة «نمو» ولا أحد معها، وهي المياه الأولى التي انبثق عنها كل شيء.

2) انجبت الآلهة نمو ولداً وبنتاً. الأول هو «آنو» إله المساء المذكور، والثانية «كي» آلهة الأرض المؤنثة وكانا ملتصقين مع بعضهما، وغير منفصلين عن أمهما نمو.

3) ثم أن «آنو» تزوج «كي» فأنجبا بِكْرَهُما «انليل» إله الهواء الذي كان بينهما في مساحة ضيقة لا تسمح له بالحركة.

4) انليل الإله الشاب النشيط، لم يطق ذلك السجن فقام بقوته الخارقة بأبعاد أبيه عن أمه (آنو وكي) رفع الأول فصار في السماء وبسط الثاني فسارت أرضاً ومضىٰ يرتع بينهما.

5) ولكن انليل كان يعيش في ظلام دامس فأنجب انليل ابنه نانا إله القمر فبدد الظلام في السماء وينير الأرض.

6) «نانا» إلّه القمر أنجب بعد ذلك (اوتو) إلّه الشمس الذي بزّه في الضياء.

7) بعد أن أبعدت السماء عن الأرض وصدر ضوء القمر الخافت وضوء الشمس الدافىء قام انليل مع بقية الآلهة بخلق مظاهر الحياة الأخرى.

والآن لنأت إلى استعراض أهم النصوص التي وصلت إلينا والتي تلقي على أفكار السومريين في موضوع البدء والتكوين:

فصل السماء عن الأرض

في مطلع أسطورة تحكي عن خلق الإنسان نعثر على إشارة لجبل لسماء والأرض:

في جبل السماء والأرض

أنجبت «آن» اتباعه الانوناكي

وهذا الجبل لم يكن أزلياً بل مخلوقاً، فمن لوح آخر، مخصص لتعداد أسماء الانوناكي، آلهة سومر، نعرف أن الآلهة «نمو» وهي المياه البدائية، قد أنجبت السماء والأرض، اللتين انفصلتا عن بعضهما. ويشير مطلع أسطورة أخرى عرضاً إلى هذا الانفصال:

بعد أن أبعدت السماء عن الأرض

وفصلت الأرض عن السماء

وتم خلق الإنسان

وأخذ آن السماء

وأنفرد «انليل» بالأرض

أخذ الإله «كور» الآلهة «أريشكيجال» غنيمة.

والإلّه كور في الميثولوجيا السومرية هو رب العالم الأسفل، عالم الموتىٰ الذي تمضي إليه الأرواح. أما اريشكيجال فقد كانت إلّهة أرضية تزوجها كور بعد أن أختطفها إلى عالمه الأسفل لتغدو إلّهة ذلك العالم السفلي وسيدته المطلقة.

وفي مطلع أسطورة ثالثة نعرف مزيداً من المعلومات عن فصل السماء عن الأرض، والإله الذي قام بتلك العملية الجبارة:

إن الإله الذي أخرج كل شيء نافع

الإله الذي لا مبدل لكلماته

انليل الذي أنبت الحب والمرعى

أبعد السماء عن الأرض

وأبعد الأرض عن السماء

تثبت لنا هذه الأساطير السومرية، تقاليد بقيت سائدة في الفكر

الأسطوري لحضارات المنطقة والحضارات المجاورة الأخرى. ففكرة الميلاد المائي تتكرر فيما بعد في الأساطير البابلية التي تحكي عن ولادة الكون من المياه الأولى «تعامه» التيامات المقابلة لـ «نمو» السومرية.

وفي التوراة نجد أيضاً المياه الأولى وروح الرب فوقها قبل التكوين وكانت الأرض خربة وخالية وروح الرب يرف فوق وجه الماء.

وفي الأسطورة البابلية يقوم الإله مردوخ بشطر جسد الآلهة تيامات المياه الأولى إلى نصفين، فيرفع الأول سماء ويبسط الثاني أرضاً.

وفي التوراة يفصل الإلّه المياه الأولى شطرين رفع الأول إلى السماء وبسط الثاني الذي تجمع ماؤه في جانب وبرزت منه اليابسة في جانب آخر.

تنظيم الكون

بعد أن فصل انليل بين السماء والأرض، وأعطاهما شكلهما الذي نعرفه اليوم، انصرف إلى خلق بقية عناصر الكون. فانليل يضاجع الإلّهة نليل فولدت إله القمر، والقمر بدوره أنجب الشمس.

وتتابع الأسطورة فتصف مولد إلّه ثالث من الإلّهة السفلى هو الإله «اليجيبيل».

ولم يكن الخلق مهمة تولاها إلّه واحد في سومر، فها هو الإلّه انكي، يتابع ما بدأه انليل ويضع اللمسات الأخيرة على صورة الكون فتخرج حية نضرة وانكي هو إلّه الماء العذب عند السومريين وإلّه الحكمة أيضاً. ومن غير إله الماء العذب يستطيع أن يبعث الحياة في كون جامد لا حركة فيه، ومن غير إله الحكمة يستطيع أن يدفع الحياة نحو غايتها ويحد أغراضها ومراميها.

يذهب انكي إلى بلاد ملوخاً فيباركها أيضاً وإلى دجلة والفرات فيملأهما ماءاً نقي ويخلق فيهما السمك، وعلى شاطئيهما ينثر القصب ثم يوكل بهما الإله انبيلولو. ثم يلتفت إلى البحر فينظم شؤونه ويوكل به

إلّهة اسمها سيراراً ثم إلى الرياح فيستلم قيادتها ويوكلها إلى الإله أشكور صاحب القفل الفضي الذي ينظم من خلاله الأمطار ثم إلى شؤون الزراعة وما يتصل بها من أدوات حيث يخلق النير والمحراث ويوكل الإله انكمدو بالقنوات والسواقي وفي المدن يهتم بالعمران فيقيم للآجر إلهاً خاصاً ويحفر الأساسات وينشيء الجدران ويعين الإله شداما للأشراف على أعمال البناء ثم يملأ السهول بالأعشاب والمراعي وينثر فيها القطعان ويعين لأمورها الإله سوموقان، ثم الحظائر يملؤها بالمنتجات الحيوانية ويعين لها الإله الراعي دوموزي.

خلق الإنسان

بعد أن أخذ الكون شكله واستقرت السماء في موضعها وكذلك الأرض بعد أن أنتظمت دورة النهار والليل وحركة الفصول بعد أن أخرجت الأرض زرعها وشجرها تفجرت ينابيعها، بعد أن ظهرت الحيوانات بأنواعها وامتلأت البحار بأسماكها، بعد ذلك كله صار المسرح مهيأ لظهور الإنسان.

والأسطورة السومرية المتعلقة بخلق الإنسان هي أول أسطورة خطتها يد الإنسان عن هذا الموضوع، وعلى منوالها جرت أساطير المنطقة والمناطق المجاورة التي استمدت منها عناصرها الأساسية وخصوصاً فكرة تكوين الإنسان من طين. وفكرة تصوير الإنسان على صورة الآلهة.

أما لماذا خلق الإنسان؟ فأن الأسطورة السومرية لا تتردد في الإجابة على هذا السؤال ولا توارب. فالإنسان خلق عبداً للآلهة يقدم لها طعامها وشرابها ويزرع أرضها ويرعى قطعانها. خلق الإنسان لحمل عبء العمل ورفعه عن كاهل الآلهة فمنذ البدء كان الآلهة يقومون بكل الأعمال التي تقيم أودهم وتحفظ حياتهم ولكنهم تعبوا من ذلك فراحوا يشتكون لانكي الحكيم ليجد لهم مخرجاً، ولكنه وهو المضطجع بعيداً في الأغوار المائية، لم يسمع شكاتهم فمضوا إلى أمه الإلهة «نمو» التي أنجبت الجيل الأول من الألّه لتكون واسطتهم إليه فمضت إليه قائلة:

أي بني انهض من مضجعك،
انهض من. . . واصنع أمراً حكيماً
أجعل للآلهة خدماً، يصنعون لهم معاشهم
فتأمل انكي ملياً في الأمر، ثم دعا الصناع الإلّهيين المهرة وقال لأمه «نمو»:
أن المخلوقات التي نَطَقتِ باسمها موجودة
فعلقي عليها صورة الآلهة
أمزجي حفنة طين من فوق مياه الأعماق
وسيقوم الصناع الإلهيون المهرة بتكثيف الطين وعجنه
ثم كَوِّني أنتِ له أعضاءه
وستعمل ننماخ معك يداً بيد
وتقف إلى جانبك عند التكوين رَبّات الولادة
ولسوف تقدرين للمولود الجديد يا أماه مصيره
وتعلق ننماخ عليه صورة الآلهة
. . . في هيئة الإنسان. . . .
وننماخ هي الأرض الأم في الأسطورة السومرية.
وفي أسطورة سومرية أخرى تحكي خلق الماشية والحبوب، تجد رواية أخرى لقصة خلق الإنسان:
كالبشر، عندما خلقوا أول مرة
لم يعرف الانوناكي أكل الخبز
لا ولم يعرفوا لبس الثياب
بل أكلوا النباتات بأفواههم
وشربوا الماء من الينابيع والجداول
في تلك الأيام وفي حجرة الخلق

في دلكوج بيت الآلهة خلق لهار واشنان
ومما انتج لهار واشنان
أكل الانوناكي ولم يكتفوا
ومن حظائرها المقدسة شربوا اللبن
شربوا ولكنهم لم يرتووا
لذا ومن أجل العناية بطيبات حظائرها
تَمَّ خلق الإنسان

تسربت العناصر الرئيسية لهذه الأسطورة إلى معظم أساطير الشعوب المجاورة. ففي الأساطير البابلية اللاحقة يتم خلق الإنسان من الطين، ويفرض عليه حمل عبء العمل. وفي سفر التكوين العبراني، نجد إلّه اليهود يهوه يقوم بخلق الإنسان من طين بعد إنتهائه من خلق العالم، ويجعله على شبهه: «وجبل الرب الإلّه آدم تراباً من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة الحياة، فصار آدم نفساً حية. . . .».

استراحة الخالق

بعد الإنتهاء من عناء الخلق، يخلد انكي للراحة والسكينة، ويشرع في بناء بيت له في الأعماق المائية. وتحدثنا أسطورة سومرية عن بناء بيت الرب الذي يبدو هنا إلهاً للأعماق بشكل عام:

بعد أن تفرقت مياه التكوين
وَعَمَّت البَرَكة أقطار السماء
وغطى الزرع والعشب وجه الأرض
انكي إله القمر انكي الملك
انكي الرب الذي يقرر المصائر
بني بيته من فضه ولازورد
فضه ولازورد كأنها النور الخاطف

حيث استقر هناك في الأعماق

وبعد أن انتهى من بناء بيته، كان لا بد له ككل الآلهة العظام من مدينة أيضاً فرفع من أعماق البحر مدينة أريدو، وأعطاها شجراً وخضرة ونباتاً وملأ مياهها سمكاً، ثم قرر السفر إلى أبيه انليل ليحصل على بركته. فارتفع من الأعماق المائية في مشهد مهيب مروع:

عندما ارتفع انكي، ارتفعت معه كل الأسماك

واضطرب الغمر واصطخب

زال عن البحر وجه المرح

وساد الرعب في الأعماق

واستبد الهلع بالأنهار العالية

ورفعت ريح الجنوب الفرات على مدّ من الأمواج

وعندما يصل انكي في مركبته إلى نيبور مدينة انليل، يقيم مأدبة للآلهة، يقدم فيها الطعام والخمر، وفي نهايتها يقف انليل فيثني على ما فعله انكي من بناء البيت ويمنحه بركاته ورضاه.

ويبدو أن بناء البيت للآلهة هو أمر ضروري بعد ارتفاع شأنه وعلو مقامه. وبعد البيت يأتي بناء المدينة للآله أيضاً. فهذا مردوخ ـ كما رأينا ـ يبني له الآلهة بيتاً يناطح برجه عنان السماء بعد إنهائه من فعل الخلق، وحول الهيكل المقدس يبني الآلهة أيضاً مدينة بابل.

ويقلد في ذلك اليهود أن يطلب يهوه ببناء بيت له بعد تعب من التجوال في خيمة بني إسرائيل. نقرأ في سفر صموئيل الثاني (7: 3): «وفي تلك الليلة كان كلام الرب على ناثان قائلاً: أذهب وقل لعبدي داود هكذا قال الرب: أنت تبني لي بيتاً لسكناي لأنني لم أسكن في بيت منذ أصعدت بني إسرائيل من مصر إلى هذا اليوم بل كنت أسير في خيمة. . . ».

التكوين البابلي

تتوضح أفكار البابليين في الخلق والتكوين، بشكلها الأكمل، في ملحمة التكوين البابلية المعروفة باسم «الانيوما ايليش». وتعتبر هذه الملحمة إلى جانب ملحمة كلكامش من أقدم وأجمل الملاحم في العالم القديم. فتاريخ كتابتها يعود إلى مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، أي قبل ألف وخمسمائة سنة تقريباً من كتابة إلياذة هوميروس، وتدوين أسفار التوراة العبرانية. وقد لقيت الملحمة كثيراً من الاهتمام والدراسة من قبل علماء المسماريات والانتروبولوجيا والميثولوجيا والثيولوجيا. فإلىٰ جانب الشكل الشعري الجميل الذي صيغت فيه الملحمة، والذي يعطينا نموذجاً لأدب إنساني متطور فأنها تقدم لنا وثيقة هامة عن معتقدات البابليين ونشأة آلهتهم ووظائفها وعلاقتها، كما إنها تقدم لدارسي الديانات المقارنة مادة غنية بسبب المشابهات الواضحة مع الأصحاحين الأول والثاني من كتاب التوراة.

وجدت الملحمة موزعة على سبعة ألواح فخارية، أثناء الحفريات التي كشفت عن قصر الملك أشور بانيبال، ومكتبته التي أحتوت على آلاف الألواح (10000 لوح) في شتىٰ الموضوعات الأدبية والدينية والقانونية وما إليها. وقد جرى الكشف عن ألواح الملحمة تباعاً منذ نهاية القرن الماضي وحتىٰ نهاية الربع الأول من القرن الحالي حيث إكتملت وصارت واضحة وميسرة للترجمة والدراسة.

واسم الملحمة مأخوذ كما هي عادة السومريين والبابليين من الكلمات الافتتاحية للنص. «فاينوما ايليش» تعني: عندما في الأعالي. فعندما في الأعالي لم يكن هناك سماء، وفي الأسفل لم يكن هناك أرض، لم يكن في الوجود سوى المياه الأولى ممثلة في ثلاثة آلهة: أبسو وتيامة وممو.

فأبسو هو الماء العذب وتيامة زوجته كانت الماء المالح أما ممو فهو الضباب المنتشر فوق تلك المياه والناشيء عنها.

هذه الكتلة المائية الأولى كانت تملأ الكون وهي العماء الأول الذي انبثقت منه فيما بعد بقية الآلهة والموجودات وكانت آلهتها الثلاثة تعيش في حالة سرمدية من السكون والصمت المطلق ممتزجة ببعضها البعض في حالة هيولية، لا تمايز فيها ولا تَشَكُّل.

ثم أخذت هذه الآلهة بالتناسل فولد لأبسو وتيامة إلّهان جديدان هما «لخمو» و«لخامو» وهذان بدورهما أنجبا «أنشار» و«كيشار» اللذين فاقا أبويهما قوة ومنعة. وبعد سنوات مديدة ولد لأنشار وكيشار ابن اسمياه «آنو» وهو الذي صار فيما بعد إلهاً للسماء. وآنو بدوره أنجب «آنكي» أو «آيا» وهو إله الحكمة والفطنة، والذي غدا فيما بعد إلّه المياه العذبة الباطنية. ولقد بلغ آيا حدا من القوة والهيبة جعله يسود على آبائه.

وهكذا إمتلأت أعماق الآلهة تيامة بالآلهة الجديدة المليئة بالشباب والحيوية والتي كانت في فعالية دائمة وحركة. دائبة، مما غير الحالة السابقة وأحدث وضعاً جديداً لم تألفه آلهة السكون البدئية التي عكرت صفوها الحركة وأقلقت سكونها الأزلي. حاولت الآلهة البدئية السيطرة على الموقف واستيعاب نشاط الآلهة الجديدة ولكن عبثاً، الأمر الذي دفعها إلى اللجوء للعنف فقام أبسو بوضع خطة لإبادة النسل الجديد والعودة للنوم مرة أخرى، وباشر بتنفيذ خطته، رغم معارضة تهامة التي ما زالت تكنّ بعض عواطف الأمومة.

لدى سماعهم بمخططات أبسو، خاف الآلهة الشباب واضطربوا، لم يخلصهم من حيرتهم سوى أشدهم وأعقلهم، الإلّه آيا، الذي ضرب حلقة سحرية حول رفاقه، تحميهم من بطش آبائهم، ثم صنع تعويذة سحرية ألقاها على أبسو الذي راح في سبات عميق، وفيما هو نائم قام آيا بنزع العمامة الملكية عن رأس أبسو ووضعها على رأسه رَمزاً لسلطانه الجديد، كما نزع عن أبسو أيضاً لقبه الإلّهي وأسبغه على نفسه، ثم ذبحه وبنىٰ فوقه مسكناً لنفسه. كما انقض على ممو (الضباب المنتشر فوق المياه الأولى) المعاضد لأبسو فسحقه وخرم أنفه بحبل يجره وراءه أينما ذهب. ومنذ ذلك الوقت صار آيا إله الماء العذب يدفع به إلى سطح الأرض بمقدار ويتحكم به بمقدار وهو الذي يعطي الأنهار والجداول والبحيرات ماءها العذب وهو الذي يفجر الأرض عيوناً من مسكنه الباطني. ومنذ ذلك الوقت أيضاً يشاهد ممو فوق مياه الأنهار والبحيرات لأن آيا قد ربطه بحبل فهو موثوق إلى الأبد.

بعد هذه الأحداث الجسام ولد الإله مردوخ أعظم آلهة بابل، الذي أنقذهم مرة أخرى من بطش الآلهة القديمة، ورفع نفسه سيداً للمجمع المقدس وكيف لا وهو ابن آيا (انكي) الذي فاق أباه قوة وحكمة. وبطشاً. وكما كان الإنقاذ الأول على يد الأب انكي كذلك كان الإنقاذ الثاني على يد الابن الشاب مردوخ.

فتيامة التي تركت زوجها أبو لمصيره المحزن دون أن تهرع لمساعدته وهو يذبح على يد الآلهة الصغيرة تجد نفسها الآن مقتنعة بضرورة السير على نفس الطريق لأن الآلهة الصغيرة لم تغيّر مسلكها، بل زادها انتصارها ثقة وتصميماً على أسلوبها في الحياة.

وهنا اجتمعت الآلهة القديمة إلى تيامة وحرضتها على حرب أولئك المتمردين على التقاليد الكونية فوافقت وشرعت بتجهيز جيش عرم قوامه أحد عشر نوعاً من الكائنات الغريبة التي أنجبتها خصيصاً لساعة الصدام،

أفاع وزواحف وتنانين هائلة وحشرات عملاقة، جعلت عليها الإله «كينْجو» قائداً، بعد أن أختارته زوجاً لها، وعلقت على صدره ألواح الأقدار.

علم الفريق الآخر بما تخطط له تيامة وصحبها فأجتمعوا خائفين قلقين وأرسلوا الإله آيا الذي أنقذهم في المرة الأولى، عسى ينقذهم في المرة الثانية، ولكن آيا عاد مذعوراً مما رأى، فأرسلوا آنو الذي مضىٰ وعاد في حالة هلع شديد. أسقط في يد الجميع وأطرقوا حائرين كل يفكر في مصيره الأسود القريب.

وهنا خطر لكبيرهم أنشار خاطر جعل أساريره تتهلل، إذ تذكر مردوخ الفتىٰ القوي العتي، فأرسل في طلبه حالاً، وعندما مثل بين يديه وعلم سبب دعوته، أعلن عن استعداده للقاء تيامة وجيشها بشرط الموافقة على إعطائه امتيازات وسلطات استثنائية. فكان له ما أراد. وجلسوا جميعاً حول مائدة الشراب وقد إطمأنت قلوبهم لقيادة الإله الشاب.

أعطى الآلهة، مردوخ، قوة تقرير المصائر، بدلاً من الألّه أنشار، وأعطوه قوة الكلمة الخالقة، ولكي يمتحنوا قوة كلمته الخالقة، أتوا بثوب وضعوه في وسطهم وطلبوا من مردوخ أن يأمر بفناء الثوب، فزال الثوب بكلمة آمرة من مردوخ، ثم عاد إلى الوجود بكلمة أخرى.

هنا تأكد الآلهة من أن مردوخ إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون. فأقاموا له عرشاً يليق بألوهيته، وأعلنوه سيداً عليهم جميعاً، ثم أسلموه الطريق إلى تيامة. وقبل أن يمضي صنع لنفسه قوساً وجعبة وسهاماً وهراوة، كما صنع شبكة هائلة، أمر الرياح الأربع أن تمسكها من أطرافها. ملأ جسمه باللهب الحارق، وأرسل البرق أمامه، يشق له الطريق، دفع أمامه الأعاصير العاتية وأطلق طوفان المياه. وانقض طائراً بعربته الألهية وهي العاصفة الرهيبة التي لا تُصَدّ، منطلقاً نحو تيامة،

والألهة تتدافع من حوله تشهد مشهداً عجيباً.

عندما التقىٰ الجمعان، طلب مردوخ قتالاً منفرداً مع تيامة، فوافقت عليه، ودخل الإثنان حالاً في صراع مميت. وبعد فاصل قصير نشر مردوخ شبكته ورماها فوق تيامة محمولة على الرياح، وعندما فتحت فمها لإلتهامه دفع في بطنها الرياح الشيطانية الصاخبة فانتفخت وأمتنع عليها الحراك، وهنا أطلق الرب من سهامه واحداً تغلغل في حشاهاوشطر قلبها. وعندما تهاوت على الأرض أجهز على حياتها، ثم ألتفت إلى زوجها وقائد جيشها كينجو فرماه في الاصفاد، وسلبه ألواح الأقدار وعلقها على صدره، وهنا تمزق جيش تيامة شر ممزق. وفرّ معظمه يطلب نجاة لنفسه، ولكن مردوخ طاردهم، فقتل من قتل وأسر من أسر.

بعد هذا الانتصار المؤزر علىٰ قوة السكون والسلب والفوضىٰ ألتفت مردوخ إلى بناء الكون وتنظيمه وإخراجه من حالة الهيولية الأولى إلى حالة النظام والترتيب حالة الحركة والفعالية و. . . الحضارة.

عاد مردوخ إلى جثة تيامة يتأملها، وثم أمسك بها وشقها شقين، رفع النصف الأول فصار سماء وسوى النصف الثاني فصار أرضاً، ثم ألتفت بعد ذلك إلى باقي عمليات الخلق. فخلق النجوم محطات راحة للآلهة، وصنع الشمس والقمر وحدد لهما مساريهما. ثم خلق الإنسان من دماء الإله السجين كينجو، حيث قتله وأفرج عن بقية الأسرى بعد أن اعترفوا بأن المحرض الأول هو كينجو. كما خلق الحيوان والنبات ونظم الألهة في فريقين، جعل الفريق الأول في السماء وهم الانوناكي، والثاني جعله في الأرض وما تحتها وهم الألجيجي.

بعد الانتهاء من عملية الخلق، يجتمع الإله مردوخ بجميع الآلهة ويحتفلون بتتويجه سيداً للكون، وبنوا مدينة بابل ورفعوا له في وسطها معبداً تناطح ذروته السحاب هو معبد الايزاكيلا وفي الاحتفال المهيب أعلنوا أسماء مردوخ الخمسين.

هذه هي الخطوط العريضة للملحمة البابلية الكبيرة، عرضتها في عجالة للوقوف على مجرى أحداثها بصورة عامة.

وهناك نصوص أخرى تحكي لنا قصة خلق آدم وحواء الإنسانين الأولين من طين ونص يقص خلقتهما من غير طين وقد وجد محفوراً على لوح يعود للقرن الثامن قبل الميلاد عثر عليه في خرائب مدينة أشور والأول وجد في مكتبه أشور بانيبال.

التكوين التوراتي
الإصحاح الأول والثاني من سفر التكوين

يقتفي التكوين التوراتي أثر أساطير التكوين السومري والبابلي في خطوطه العامة وفي تفاصيله. فالحالة البدئية السابقة للخلق حالة عماء مائي وظلمة سرمدية. ومن هذه المياه تَمَّ التكوين حيث قام يهوه بتقسيم المياه إلى قسمين رفع الأول إلى السماء وترك الثاني في الأسفل فصار بحاراً منها برزت اليابسة. وعلى هذه اليابسة تابع يهوه أفعاله الخلاقة، فأخرج النبت والمرعى والشجر المثمر. وخلق الحيوان. وفي السماء خلق الشمس والقمر والنجوم. وفي البحر خلق الحيوانات المائية، وفي الجو خلق الطير، وأخيراً خلق الإنسان.

وإذا كان صراع يهوه مع التنين البدئي لم يظهر في هذه الخلقة كمقدمة للخلق، كما هو الشأن في أسطورة التكوين البابلية، فأن مثل هذا الصراع يظهر في نصوص أخرى تتحدث عن أفعال يهوه الخلاّقة وفيها نجده قبل الخلق وقد إنهمك في الصراع مع تنينه لوياثان من ذلك مثلاً المزمور الرابع والسبعون:

أنت شققت البحر بعزّتك

وحطمت على المياه رؤوس التنانين

أنت هَشَّمت رؤوس لوياتان

وأعطيته للوحوش مأكلا

أنت فجّرت عيناً وسَيلاً

أنت جففّت أنهاراً لا تجف مياهها

لك النهار ولك الليل

أنت أحكمت الشمس والنور

أنت وضعت حدود الأرض جميعها

وصنعت الصيف والشتاء

على أن القراءة المتأنية لنص التكوين التوراتي تظهر لنا تناقضاً واضحاً في أحداثه، ففي البدء خلق الرب السموات والأرض، ثم نجده يخلقهما مرة ثانية بفصل المياه عن بعضها. ومرة نجده يخلق البشر دفعة واحدة «ذكراً وأنثىٰ خلقهم وباركهم الرب وقال لهم أثمروا وأكثروا وأملأوا الأرض» وفي المرة الأخرى يخلق الرب الإنسان بدءاً من زوجين أوليين مقتفياً بذلك أثر الأساطير البابلية والسومرية. وفي الواقع فأن هذا النص ونصوصاً أخرى كثيرة في التوراة قد كتبت بعد التوفيق بين روايتين توراتيتين دعا علماء التوراة الرواية الأولى بالرواية اليهوية والثانية بالرواية الألوهيمية. في الرواية الأولى يظهر الإله تحت اسم يهوه وفي الثانية تحت اسم أيلوهيم (يذكرنا اسم ايلوهيم بلفظ الجلالة اللهم. كما أن الشق الأول منه مأخوذ من اسم ايل إلّه السماء الكنعاني). وقد جرى المزج بين الروايتين بعد العودة من الأسر البابلي عام 538 ق. م عندما قام كهنة اليهود بصياغة موحدة لأسفار التوراة. فأذا حللنا رواية التكوين إلى مكوناتها، أستطعنا تمييز الروايتين عن بعضهما وفق الآتي:

النص اليهوي

1) الحالة الأولى للكون: عماء مائي.

2) يعزىٰ الخلق إلى يهوه الذي قام به في ستة أيام منفصلة في كل يوم عمل.

3) تتسلسل مراحل الخلق وفق الآتي:

- النور.
- السماء.
- اليابسة.
- الزرع.
- الإجرام السماوية.
- الأسماك والطيور.
- الحيوانات والشر رجالاً ونساء.

النص الايلوهيمي

1) الحالة الأولى للكون قفرٌ خَرِب لا حياة فيه ولا زرع ولا ماء.

2) يعزى الخلق إلى ايلوهيم دون أي تقسيم زمني.

3) تتسلسل مراحل الخلق وفق التالي.

- الإنسان، آدم من تراب.
- جنة في شرقي عدن.
- الأشجار من كل نوع بما فيها شجرة المعرفة.
- الحيوانات والوحوش والطيور (لا ذكر للأسماك).
- المرأة تخلق من الرجل.

لعل أكثر المشابهات إثارة بين التكوين التوراتي وبقية الأساطير السومرية والبابلية هي المشابهات مع الاينوما ايليش، مما سأتحدث عنه مفصلاً فيما يلي:

ألواح التكوين السبعة وأيام التكوين السبعة

أن السبي البابلي قد قدم لليهود فرصة الإطلاع على آداب وديانة وأساطير ثقافة وادي الرافدين. وعندما عادوا إلى أورشليم وقاموا بتدوين نصوص التوراة المتفرقة في كتاب جامع شامل، دخلت خبراتهم أيام السبي بشكل تلقائي وطبيعي فيما دونوه من نصوص. وكانت الاينوما ايليش على أفكار العبرانيين في مسائل الخلق والتكوين بل يتعداها إلى جوانب أساسية وهامة في فكرهم الديني. من ذلك مثلاً تأثرهم الكبير بفكرة شمولية الإله مردوخ التي أبرزتها الاينوما ايليش من خلال شرحها لمضمون أسمائه الخمسين، فظهر مردوخ رغم وجود بقية الآلهة، إلهاً أوحداً مطلقاً إلا إننا سنقتصر في هذا المجال على دراسة التأثر الخاص بموضوعات التكوين فنقارن النقاط الأساسية لكلا النصين واحدة واحدة:

1 ـ طبيعة المبدأ الأول:

المبدأ الأول في كلا النصين هو المياه. وانطلاقاً من هذه المياه البدئية تتم كل عمليات الخلق. وهي أزلية غير مخلوقة، في النص البابلي هي جسد آلهة ثلاثة آبو وتيامة وممو. وفي النص التوراتي نجدها إلى جانب الإله دون أن يوضح لنا النص أيهما أقدم.

2 ـ الظلام البدئي:

يأتي النصان على ذكر الظلام البدئي، غير أن الاينوما ايليش لا تذكره بوضوح، بل يأتي ذكره صراحة في نص بابلي آخر الذي يقول إنه في البدء لم يكن هناك سوى الظلام والماء... ويسمى النص باسم نص بيروسوس.

3 ـ الضوء قبل النجوم والإجرام السماوية المشعة

يقول النصان بوجود الضوء واختلاف الليل والنهار، قبل خلق الإجرام السماوية. فالاينوما ايليش تتحدث عن وجود الأيام والليالي منذ عهد آبو، وغضبه على أبنائه، عندما كان لا يستطيع النوم ليلاً ولا الراحة نهاراً. كما أن مردوخ نفسه كان يشع بالنور. وفي الفصل الأول من سفر التكوين يخلق الرب النور ويميز الليل من النهار قبل أن يخلق الإجرام المنيرة والنجوم والكواكب.

4 ـ خلق السماء

يتفق النصان على أن السماء أتت نتيجة فصل المياه الأولى إلى قسمين. ففي النص البابلي شطر مردوخ تيامة شطرين ويرفع أحدهما سماء وفي النص التوراتي «وفصل بين المياه التي تحت الجلَدَ والمياه التي فوق الجلد، وكان ذلك، ودعا الرب الجَلَد سماء».

5 ـ خلق الأرض

قام مردوخ بقياس أبعاد الأبسو وأقام لنفسه نظيراً له، بناء هائلاً دعاه عيشاراً أي الأرض. ولقد صنع ذلك بنصف تيامة الأخر. كذلك الأمر في سفر التكوين التوراتي فبعد أن يرفع الرب نصف المياه الأولى إلى الأعلى، تتجمع المياه السفلى إلى جانب مشكلة البحار، وتظهر الأرض منبثقة من تحتها «وقال الرب لتتجمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد، ولتظهر اليابسة، ودعا الرب اليابسة أرضاً ومجتمع المياه دعاه بحراً».

6 ـ خلق الإجرام المنيرة

بعد أن شكل مردوخ السماء والأرض، التفت إلى خلق الإجرام المضيئة. وقسم الوقت فرسم خط السمت، وحدود السنة وجزأها إلى

أشهر وأيام، وأمر القمر بالسطوع وأوكل به الليل، جعله حلية وزينة ومنظماً لشهور السنة، وخلق الشمس محددة لأيام الأرض. وفي سفر التكوين، بعد أن ينتهي الرب من تشكيل السماء والأرض: «وقال الرب لتكن أنوار في جلد السماء لتنير على الأرض، وكان كذلك، فعمل الرب النورين العظيمين النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل والنجوم وجعلها في جلد السماء لتنير على الأرض».

7 ـ خلق الحيوان والنبات

لا تحتوي ملحمة التكوين البابلية في أجزائها المقروءة شيئاً عن خلق الحيوان والنبات، ويعتقد أن الأجزاء المفقودة من اللوح الخامس تتحدث عن مثل هذا الخلق، أما النص التوراتي فيتحدث عن خلق الحيوانات في اليوم الخامس. أما نبات الأرض فلم يظهر إلا بظهور الإنسان.

8 ـ خلق الإنسان

تتفق الروايتان على أن خلق الإنسان هو آخر عمل في سلسلة الخلق التي قام بها الإله. كما تتفقان على الأهمية البالغة لهذا العمل. ففي بداية اللوح السادس نجد مردوخ وقد حدثته نفسه بخلق أشياء مبدعة. وقد وصف هذا العمل في مكان آخر من اللوح بأنه العمل الذي يسمو على الأفهام. أما أهمية خلق الإنسان في نص التوراة فتظهر في كونه قد خلق على صورة الإله وأعطي السيطرة على الأرض وسخرت له حيواناتها ونباتاتها.

وفي نصوص بابلية أخرى تتعلق بالتكوين، تتحدث عن خلق الإنسان انطلاقاً من زوجين أولين. وكذلك الأمر في الرواية التوراتية. وقد تم صنع الإنسان الأول في الأسطورة أما من دم الإله وحده، أو من دم الإله ممزوجاً بالطين، ثم تعلق عليه صورة الآلهة فيأتي على شبهها. وفي الرواية التوراتية يصنع الإنسان من طين على صورة الإله.

هدفت الآلهة البابلية من خلق الإنسان إلى تحميله عبء العمل الذي كان مفروضاً على الآلهة ورغم أن هذا الهدف لا يظهر واضحاً في النص التوراتي إلا أن النتيجة النهائية الأخيرة تتطابق مع غايات الأسطورة البابلية، عندما يطرد آدم من الجنة ويفرض عليه العمل كعقوبة: وقال للمرأة: تكثيراً أكثر أتعاب حبلك بالوجع تلدين البنين وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك. وقال لآدم: ملعونة الأرض بسببك بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك وشوكاً وحَسَكاً تنبت لك. وتأكل عشب الحقل بعرق وجهك تأكل خبزاً حتىٰ تعود إلى الأرض التي أخذت منها، لأنك تراب وإلى تراب تعود».

وكاختصار لما سبق نصنع تسلسل الخلق في كلا النصين جنباً إلى جنب.

الاينوما ايليش	سفر التكوين
1 ـ العماء الأول تيامة الماء المالح. وزوجها الماء الحلو يحيط بهما الظلام	1 ـ الظلام يغلف المياه الأولى ورح الرب. يرف فوق المياه.
2 ـ النور يشع ويتولد من الآلهة	2 ـ خلق النور.
3 ـ خلق السماء	3 ـ خلق السماء.
4 ـ خلق الأرض	4 ـ خلق الأرض.
5 ـ خلق الإجرام السماوية	5 ـ خلق الإجرام السماوية
6 ـ خلق الإنسان	6 ـ خلق الإنسان
7 ـ مردوخ ينتهي من الخلق والآلهة تحتفل به	7 ـ يهوه يستريح.

تفسيرات حول تشابه النصين

«1» التفسير الأول:

النص البابلي قد اعتمد على النص التوراتي، وهذا بعيد الاحتمال لأسبقية الاينوما ايليش على أية نصوص مدونة للتوراة. فتاريخ تدوين الملحمة البابلية يعود إلى تاريخ قديم حدد دارسوها بحوالي 1800 قبل الميلاد أي قبل ولادة موسىٰ بأربعة أو خمسة قرون. ولا شك أن أصولها ترجع إلى مصادر موغلة في القدم.

أما التوراة العبرانية فقد دونت أقدم أسفارها وهي أسفار موسىٰ الخمسة بعد العودة من الأسر البابلي في القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد. ولم يقرّ النص النهائي للتوراة إلا في القرن الأول قبل الميلاد. وقد علقت مصادر دينية مسؤولة على هذا التشابه في بعض المناسبات بقولها أن موسىٰ قد استعمل وثائق مخطوطة وتقاليد شفوية ونقل عنها ما يوافق الغاية التي استهدفها بإلهام الروح القدس.

التفسير الثاني:

النص التوراتي قد اعتمد النص البابلي، وهناك الكثير من المبررات التاريخية التي تدعم هذا الرأي. فاللغة البابلية قد شاعت في المنطقة وانتشرت غرباً حتىٰ الساحل السوري، وشمالاً حتىٰ آسيا الصغرى وذلك منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد. فقد تم العثور في خرائب عاصمة الحثيين على نصوص أدبية بابلية مكتوبة باللغتين الحثية والبابلية، منها أجزاء ألواح تحتوي على مقاطع من ملحمة كلكامش. كما تمّ العثور في خرائب تل العمارنة في مصر على مراسلات بين ملوك فينيقيا وملوك مصر باللغة البابلية، مما يدل على أن اللغة البابلية قد غدت في زمن ما حوالي منتصف الألف الثاني لغة الدبلوماسية في المنطقة. كما عثر في تل العمارنة أيضاً على نصوص من الأساطير البابلية كأسطورة آدَبا

وأسطورة ملكة العالم الأسفل، وقد كتبت بلغة بابلية وبطريقة أقرب للتمارين المدرسية. ويغلب الظن إنها كانت تستعمل للتدريس.

وهكذا نرى العبرانيين كانوا معرضين للإطلاع على الأدب البابلي في أماكن مختلفة وأزمنة مختلفة. ولكن أفضل مكان وأنسب زمان لمثل هذا الإطلاع كان أبان الأسر البابلي خلال القرن السادس قبل الميلاد. ومن ناحية أخرى إذا أردنا أن نعتبر إبراهيم الجد الأول، شخصية تاريخية، فأنه عندما هاجر من أرض الرافدين كان يحمل معه تقاليد دينية بابلية إذ كان زمن هجرته حوالي أوائل الألف الثاني قبل الميلاد...

التفسير الثالث:

كلا النصين اعتمدا نصاً أقدم وتقاليد دينية أعرق وربما الفكران البابلي والعبراني من ديانة توحيدية قديمة وهي الديانة التي تسلسلت من نوح إلى إبراهيم وهذا التفسير ربما قامت عليه بينة في المستقبل(*).

(*) اقتبسنا هذا البحث عن كتاب الأستاذ فراس السوّاح، مغامرة العقل الأولى.

سفر التكوين وألواح السومريين

خلق الكون والإنسان

ألّف السومريون والبابليون من بعدهم أساطير وقصص عديدة تتناول بصورة مباشرة أو غير مباشرة موضوع خلق الكون وخلق الإنسان، وجاءوا بهذا الخصوص بأفكار مهمة أعتمدتها كثير من الشعوب المعاصرة واللاحقة لهم كلاً أو جزءاً. ونذكر من هذه الأساطير على سبيل المثال الأسطورة الخاصة بكلكامش ورفيقه انكيدو[1] حيث تحتوي مقدمتها، رغم قصرها، على معلومات في غاية الأهمية عن انفصال السماء عن الأرض على يد الإله انليل بعد أن كانتا كتلة واحدة.

والكون في السومرية أنكي an-ki «السماء والأرض» يمكن تجزئته بموجب الفكر السومري إلى جزئين، سماوي ويتكون من السماء وفضاء فوقها (يعنىٰ في السومرية «العلىٰ») حيث تسكن الآلهة السماوية. والآخر أرضي ويتكون من سطح الأرض وفضاء تحتها بـ «العالم السفلي» حيث تعيش آلهة العالم السفلي وحيث يوجد الأموات. ويمكن القول على ضوء المعلومات الواردة في هذه المقدمة لقصة «كلكامش وانكيدو» وعلى ضوء أساطير سومرية أخرى مثل أسطورة «الماشية والحنطة» وأسطورة

---

(1) د. فاضل عبد الواحد، بين ألواح سومر وسفر التكوين.
مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، 1978، عدد خاص، ملحق، ص 18.
Kramer, Sumerian and Mythology P. 30 - 41.

«خلق المعول» أن هناك خمس نقاط أساسية عند السومريين بخصوص خلق الكون:

1) في البدء كانت مياه البحر (في السومرية الآلهة نمو Nammu والأرجح أن السومريين تصوروا أن المياه هذه كانت أزلية طالما لا يوجد ما يشير في النصوص السماوية إلى أصلها أو «مولدها».

2) من مياه البحر الأزلية هذه «ولد» جبل كوني يمثل السماء والأرض مُخدِثَين: السماء في (السومرية An واعتبرت عنصراً مذكراً) والأرض (Ki عنصراً مؤنثاً).

3) نتيجة «لاتحاد» السماء والأرض ولد إلّه الهواء انليل.

4) إن الإلّه انليل فصل السماء عن الأرض «فحمل» أبوه An السماء وحمل هو الأرض.

5) بعد أن تم فصل السماء عن الأرض وتم خلق الكواكب والنجوم ظهرت معالم الحياة على الأرض.

أما بالنسبة للبابليين فلا شك في أن قصة الخليقة البابلية الموسومة «عندما كان في العلى» (اينوما ايليش)[2] تعتبر على قدر كبير من الأهمية بالنسبة للموضوع. غير أن هذه القصة، برغم تفاصيلها الكثيرة وطابعها المسرحي في عرض قصة التكوين، لا تختلف في جوهرها كثيراً عن معتقدات السومريين المذكورة أعلاه.

هنا نجد أيضاً إنه لم يكن في البدء سوى المياه الأزلية «أبسو» (المياه العذبة، مذكر) وتيامة (المياه المالحة مؤنث)، وإنه من امتزاجهما ولد الجيل الأول من الآلهة ثم الثاني والثالث... وتتكاثر على هذا النحو

(2) د. فاضل عبد الواحد، المصدر السابق ص 19.
Heidel, The Babylonian Genesis P. 1 ff.

ويصبح صخبها وضجيجها مدعاة لضجر أبيهم «أبسو» فيعقد العزم على إبادة أبنائه. لكن الآلهة الحديثة تعلم بالمكيدة فتقدم على قتله. وتحاول تيامة الانتقام لزوجها القتيل فتجند كل ما لديها من قوى وأرواح شريرة فتاكة. وإزاء ذلك تصاب الآلهة بالذعر وتجتمع لتتدبر الأمر... وبعد الأخذ والرد تعلن بالإجماع اختيار الإلّه مردوخ ملكاً عليها وبذلك تضعه أمام مسؤولية الدفاع عنها وخوض حرب طاحنة ضد تيامة وجيوشها. ويقود مردوخ جيوشه ويخرج في نهاية الصراع منتصراً وذلك عندما يقتل تيامة ويشطر جسدها إلى شطرين ليجعل من أولهما السماء ومن ثانيهما الأرض.

هنا في أسطورة الخِلقة البابلية نجد أيضاً أن المياه كانت أصل الوجود وأن السماء والأرض تكونتا، على غرار المعتقدات السومرية، نتيجة لعملية إنشطار جسد تيامة (المياه المالحة) إلى شطرين على يد مردوخ.

إن خلق الكون في معتقدات السومريين والبابليين وما تبعه من خلق النجوم والكواكب له ما يوازيه في بداية الإصحاح الأول من سفر التكوين حيث تعتبر التوراة أن المياه أصل الوجود وأن السماء والأرض خلقتا بعد عملية فصل أيضاً «بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد»[3].

وكذلك فقد كان خلق الإنسان واحداً من المواضيع التي تناولتها الأساطير السومرية والبابلية على حد سواء والتوراة أيضاً. إذ نفهم من أسطورة سومرية يعود زمن تدوينها إلى الألف الثالث ق. م أن الآلهة أصابها الجوع بعد أن تكاثرت وزاد عددها وأن الآلهة نمو «الأمّ التي ولدت كل الآلهة» جاءت إلى ابنها انكي إله المياه وطلبت منه أن يخلق

(3) سفر التكوين 6 ـ 7.

«عبداً للآلهة ينتج لها طعامها» وكان جواب انكي أن الأمر ممكن وأن عليها أن تأخذ شيئاً من الطين «الذي وسط مياه العمق وتخلق منه الإنسان، وينخرم الرقيم الطيني في هذا الموضع من النص، وعندما ينتظم ثانية نجد الإله انكي يقيم دعوة للآلهة للأحتفال على ما يبدو يخلق الإنسان. وفي خلال ذلك تقوم الآلهة ننماخ (السيدة العظيمة) يأخذ قطع من الطين وجعلها على صورة البشر بينما «يقرر لها انكي المصائر».

ونقرأ في أسطورة سومرية أخرى[4] أن الآلهة بقيت بحاجة إلى المزيد من اللبن والخبز حتى بعد أن تم خلق لخار (إله الماشية) واشنان (إلهة الحنطة) وإنها لذلك خلقت الإنسان يعني بزرائب الماشية ولتتمكن هي من التنعم بمزيد من الأكل والشراب.

أما عند البابليين فتعتبر قصة الخليقة وقصة الطوفان «اتراخاسيس» من المراجع الأساسية عن موضوع خلق الإنسان وتتميز قصة الطوفان البابلية لـ «اتراخاسيس»[5] عن قصة الخليقة وعن غيرها من المراجع المسمارية ذات العلاقة بخلق الإنسان في إنها تحتوي على تفاصيل وافية عن عملية الخلق لا يجدها الباحث في المؤلفات المسمارية الأخرى. فنحن نقرأ في منتصف الرقيم الأول من هذه القصة أن الآلهة العظام آنو وآيا وانليل اجتمعوا ليتدبروا الأمر بشأن التمرد الذي قامت به الآلهة المسماة ايكيكي (Igigi) فالمعروف عن هذه الآلهة إنها أوكلت بمهمة إصلاح الأرض وفلاحتها وإنها عملت أربعين عاماً حتى أضناها التعب ومشقة العمل فأعلنت عصيانها مطالبة بخلق من يحمل عنها «النير». بعد مناقشة الأمر بين الآلهة العظمى طلب آيا آله الحكمة من الآلهة الأخرى أن تبعث في طلب ننتو Nintu إلهة النسل لتخلق الإنسان الذي عبر عنه النص البابلي

(4) فاضل عبد الواحد، المصدر السابق، ص 20.

Kramer, op. cit, P. 68.

(5) فاضل عبد الواحد، الطوفان (1975) ص 9 وما بعدها.

بكلمة لوللو (Lullu)[6].

وعندما حضرت الآلهة ننتو خاطبها الآلهة العظام قائلين:
أنت يا إلهة النسل القادرة على خلق البشر
أخلقي لوللو من أجل أن يحمل النير
ليحمل النير الذي فرضه انليل
ليحمل الإنسان عناء الآلهة

وتذكر قصة الطوفان البابلية لـ «اتراخاسيس» إنه جيىء بعد ذلك بالإله وي ـ ايلا (We-ila)[7] فذبح أمام الآلهة و«مع لحمه ودمه مزجت الآلهة ننتو الطين» وخلقت منه الإنسان.

وذبحوا في مجلسهم وي ـ ايلا الذي كانت له شخصية
ومع لحمه ودمه
مزجت ننتو الطين
ثم إستعموا إلى الطبل[8] لما تبقى من الوقت

---

(6) الكلمة Lullu مستعارة من السومرية Lu - ulux والتي تعني حرفياً الإنسان البعيد أو «السحيق» أي «الإنسان الأول» وتستعمل الكلمة lullu أحياناً عن الإنسان المتوحش باعتبار أن التوحش أي كان من صفات الإنسان البدائي.
أما الكلمة السومرية Lu ومرادفتها الأكدية awelu فأنها تدل على الإنسان بالمعنئ الاعتيادي.

Von Soden, Akkadische Handworterbuch P. 562, Speisir, Ancienet Ner Eastern Texts, P. 68 n. 86.

(7) يكتب اسمه أحياناً بشكل وي (we) فقط. أما مدلول الاسم فأنه غير واضح. ولا يخفى أن الإله وي ـ ايلا في قصة اتراخاسيس نظير للإله كنكو Kingu في قصة الخليقة البابلية التي أشرنا إليها في أعلاه فالآله حكم عليه بالموت بعد أن شهدت ضده الآلهة ايكيكي بكونه قائداً لقوات تيامة العادية ومن ثم ذبح من أجل أن يخلق الإنسان من دمه.

(8) يبدو أن قرع الطبول كان جزءاً من الطقوس الخاصة بالخلق وأن كانت الإشارة هنا غير واضحة.

فكانت روح من لحم الآله

ونودي (بالإنسان) الحي رمزاً لها[9].

وإذا ما صرفنا النظر عن التفاصيل الجزئية، فيمكننا القول على ضوء ما تقدم أن المآثر السومرية والبابلية تتفق على نقاط جوهرية بخصوص خلق الإنسان وهي.

1) إنّ الإنسان خُلق من طين (أو طين ودم حسب المأثر البابلية).

2) إنّ خلق الإنسان لم يكن غاية في حدّ ذاتها أو نتيجة مكمّلة لبقية مراحل خلق الكون، وإنما بسبب العناء الذي أصاب الآلهة من جراء العمل في الأرض، فقررت أن تخلق بديلاً عنها يحمل المشقّة.

3) إنه خُلق من أجل أن يكدّ ويكدح في الأرض لكي يريح الآلهة من عناء العمل وليقدم لها الطعام.

وبالمثل فقد كان خلق الإنسان بموجب التوراة من أجل «أن يعمل في الأرض»، «كما أن جُبِلَ تراباً من الأرض»[10] على غرار ما رأينا عند السومريين والبابليين[11].

---

(9) فاضل عبد الواحد، الطوفان، ص 53.

(10) سفر التكوين 2: 6 ـ 8.

(11) قد اقتبسنا هذا عن بحث الدكتور فاضل عبد الواحد، المنشور في مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، بعنوان: «بين ألواح سومر وسفر التكوين».

جنة عدن والفردوس المفقود

يذكر سفر التكوين في الأصحاحين الثاني والثالث تفاصيل عن جنة عدن وأنهارها وعن خلق حواء من ضلع آدم كما ويذكر خطيئة آدم ودور الحية في ذلك وأخيراً خروج آدم من الجنة.

ولمعظم هذه المسائل جذور سومرية ـ بابلية سنعرض لها تباعاً في هذا البحث وبقدر ما يتعلق الأمر بجنة عدن فمن المحتمل أن التسمية قد جاءت من الكلمة السومرية (edin) بمعنىٰ (السهل، الأراضي الزراعية السهلية). وبالإضافة إلى هذا المدلول العام يظهر من النصوص السومرية من عصر فجر السلالات الثالث (في حدود 2450 ق. م). أن (edin) كانت تطلق على المناطق السهلية الواقعة جنوبي مدينة (اوما) جوخه وغربي مدينة لكش[1]، وهي المنطقة التي كانت سبب صراع طويل بين هاتين المدينتين كما هو واضح من الوثيقة السومرية التي جاءتنا من انتمينا أحد.أمراء لكش[2].

ولا شك في أن التوراة تفترض ضمنياً أن جنة عدن كانت تقع في جنوبي وادي الرافدين أي في سومر بدليل أن نهر دجلة (في السومرية

---

(1) Jacobson, (A survey of the Cirsu Telloh Region) Sumer XXV (1969) P. 109.

(2) S. N. Karamer, History Begins At Sumer, (Thames and Hu 1 A 58), PP. 80 - 88.

Idigna والعبرية Hiddekel «حدقيال») والفرات كانا من بين الأنهار الأربعة التي تجري فيها، وعلى الرغم من إننا لا نستطيع تشخيص النهرين فيشون Pishon وجيجون Gihon فمن المهم أن نلاحظ أن النهر الأخير كان يحيط بجميع أرض كوش Kush على حد تعبير التوراة. أن كلمة كوش هذه يقصد منها في الغالب بلاد الكاشيين(3) Kassites الذين أسسوا في العراق سلالة بابل الثالثة واتخذوا من بابل عاصمة لهم أول الأمر، وليس بلاد «النوبة» التي يرد ذكرها بهذا الاسم أيضاً في الكتابات المسمارية والهيروغليفية.

وبالإضافة إلى التسمية «عدن» واحتمال اشتقاقها من السومرية edin فأن فكرة وجود الجنة بحد ذاتها ليست غريبة عليهم وأن كانوا قد تصوروها في مكان آخر يقع إلى الجنوب من بلادهم. فنحن نعرف من النسخة السومرية لقصة الطوفان(4) أن الآلهة عندما منحت الخلود لرجل الطوفان زيوسدرا Ziusddra مقابل إنقاذه نسل البشر من الفناء، قد أسكنته في بلد على البحر، في الشرق، في دلمون Dilmun والتي يتفق معظم الباحثين على إنها البحرين. ولحسن الصدف فقد وصلتنا أسطورة سومرية تعرف بين الباحثين بـ «أسطورة ننكي وننخرساك» تدور حوادثها في دلمون هذه ويتبين من خلالها أن السومريين تصوروها جنة بالفعل. فهي أرض مطهرة مشرقة وقد حباها إله المياه انكي برعايته الخاصة فجلب إليها المياه العذبة وجعل من آبارها العسرة مياها حلوة ومن شواطئها موانيء عامرة للبلاد. وأهم من هذا وذاك فقد كانت دلمون أرض السلام والطمأنينة وهي أرض لا يعرف سكانها المرض:

في بلاد دلمون لا ينعق الغراب

---

(3) E. Speiser, (Mesopotamian Motifs in Early Chapters of Genesis), Expedition Vol. 51/1 (1962) P. 18.

(4) فاضل عبد الواحد علي، الطوفان (1975)، ص 19 و24.

والطائر كيتي لا يطلق الصراخ هنا كعادته

والأسد لا يفترس أحد

والذئب لا يخطف الحمل.

ولا يعرف (هنا) الكلب مفترس الجداء

ولا الخنزير ملتهم الحنطة

والذي فيه وجع في العين لا يقول: «عيني توجعني»

والرجل المسن لا يقول: «أنا رجل مسّن»[5].

وبتعبير آخر فقد كانت دلمون أرضاً لا يعرف سكانها المرض والشيخوخة وبالتالي فأنها من دون شك كانت أرض الخلود. ولا غرابة أن تسكن الآلهة فيها رجل الطوفان زيو سدرا الذي كافأته بالخلود كما ذكرنا ذلك قبل قليل.

أن هذه الصورة للجنة السومرية في دلمون لها انعكاسها في سفر أشعيا في التوراة الذي نقرأ فيه، على غرار ما نجده في الأسطورة السومرية. عن انتشار السلم والطمأنينة في الأرض حتىٰ بين جنس الحيوان:

فيسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدي والعجل والشبل والمسمن معاً وصبي صغير يسوقها والبقر والدابة ترعيان تربض أولادهما معاً والأسد كالبقر يأكل تبناً، ويلعب الرضيع على سرب الصل ويمد الفطيم يده على جحر الأفعوان لا يؤذه ولا يفسدون في كل جبل قدسي لأن الأرض تمتلىء من معرفة الرب كما تغطي المياه البحر. (اشعيا 1: 6 ـ 10)

ولعل من أبرز المظاهر الأساسية للجنة كما تصفها التوراة وجود

(5) S. N. Kramer Sumerian Mythology (Harper Torchbook 1961), P. 54 ff.

الأنهار وشجرة المعرفة وشجرة الحياة. وإذا ما استثنينا شجرة المعرفة فالملاحظ أن هناك تأكيداً لا يمكن أن يكون عفوياً في فنون وادي الرافدين على أهمية الماء وعلى شجرة الحياة باعتبارهما مصدراً ورمزاً للحياة. فلدينا أكثر من تمثال سومري[6] يمثل إلّهة وهي تحمل بكلتا يديها إناء يتدفق الماء منه بغزارة على شكل جداول. وهناك قطعاً فنية كثيرة تصور بشكل أو بآخر شجرة الحياة باعتبارها رمزاً للإنماء والخصب[7].

غير أن أهم وأبرز القطع الفنية التي تسترعي انتباه الباحث وتدعو إلى مزيد من التأمل بهذا الخصوص رسم جداري[8] بالألوان من قصر الملك زمريلم في مدينة ماري (القرن الثامن عشر قبل الميلاد). فنحن نشاهد في وسط المشهد ضمن افريز مستطيل الملك زمريلم وهو يتسلم شارات الحكم من الآلهة عشتار. ويظهر تحت ذلك افريز آخر بالحجم نفسه يصور آلهتين تقف كل منهما مقابل الأخرى وهي تحمل وعاء يتدفق الماء منه على شكل جداول أربعة تتشعب وتتلاقىٰ بعضها مع البعض الآخر. وفي طرفي المنظر نشاهد نخلة وشجرة محورة عالية. وأخيراً نشاهد أربعة حيوانات على شكل أبي الهول، اثنين على كل جانب وهي تقف أمام الشجرة العالية لحراستها.

أن هذا المشهد الجداري بجداوله الأربعة المتدفقة وبحيواناته الخرافية التي تحرس الشجرة العالية تدعو الباحث إلى استذكار جنة عدن في التوراة: أنهارها الأربعة أيضاً والكروبيم Cherubim التي أقامها الرب شرقي جنة عدن لحراسة طريق شجرة الحياة.

ترىٰ هل أن هذا التشابه مجرد صدفة أم إنه في الواقع دليل آخر

---

(6) Parrot, Sumer, fig. 301, 339.

(7) Parrot, Sumer, sub. Tree of life, P. 359.

(8) Strommenger, The Art of Mesopotamia, P1. XXIX fig. 165.

مادي في هذه المرة، يضاف إلى الأدلة السابقة عن تأثر التوراة بأفكار السومريين والبابليين الخاصة بالفردوس ننتقل الآن إلى نقطة أخرى متعلقة بجنة عدن كانت وما تزال بحاجة تفسير إلا وهي مسألة خلق حواء من أحد أضلاع آدم. تذكر التوراة بهذا الخصوص: «فاوقع الرب الإلّه سباتاً على آدم فنام. فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً». وبني الرب الإله الضلع التي أخذهما من آدم امرأة وأحضرهما إلى آدم: (التكوين 2: 21 ـ 23)

لماذا خلقت من ضلعه بالذات دون أي من أطرافه الأخرى؟

يقودنا هذا السؤال بالضرورة إلى الأسطورة السومرية المعروفة بأسطورة «انكي وننخرساك» التي تذكر ضمن أشياء أخرى، أن الإلّه السومري انكي جلب إلى دلمون المياه العذبة، وأن الإلهة ننخرساك Ninhursag الآلهة الأم عند السومريين، غرست في أرضها نباتات لم تلبث أن تفتحت ونمت، ويبدو من سياق النص السومري أن الآلهة ننخرساك خلقت هذه النباتات بعد أن ولدت ثلاثة أجيال من الآلهة الإناث ولكن دون أن تشعر بأي ألم عند المخاض. وتذكر الأسطورة السومرية أن هذه النباتات استهوت أنظار إله المياه انكي. وفي غفلة من ننخرساك انتزعها من الأرض وأكلها الواحدة بعد الأخرى.

لقد أثار ذلك غضب الإلهة ننخرساك وكان مدعاة لإحلال ثمانية أمراض في جسد الإله انكي سببت له أوجاعاً لا تطاق. وعندئذ تدخلت الإلهة الأخرى لإنقاذه، وبعد الأخذ والرد وافقت الإلهة ننخرساك على أشفائه من آلامه ولذلك خلقت ثماني آلهات تتولى كل واحدة منهن إشفاء واحد من الأمراض.

هنا نتوقف قليلاً لنتذكر ما تقوله الأسطورة السومرية موضوعة البحث عن الإلهة الأم ننخرساك إنها كانت تلد في دلمون دون أي ألم لأن ذلك يسلط الضوء على اللعنة التي أنزلها الرب الإله على حواء بعد أن اقترفت

المعصية وأكلت من ثمرة الشجرة المحرمة حيث كتب عليها عندئذ التعب والوجع عند الحمل والوضع. تذكر التوراة بهذا الخصوص: «وقال (الرب) للمرأة تكثيراً أكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولاداً» (التكوين 3 : 16) كما أن أقدام الإله انكي على أكل النبات وأصابته بالأمراض من جراء ذلك له ما يوازيه في التوراة أيضاً عندما أقدم آدم على أكل الثمرة المحرمة.

أما حواء فهناك معتقدان أساسيان يبرزان بخصوصها في التوراة. أولهما أن اسم حواء في العبرية يعني «تحيي (أي التي تعطي الحياة)». وثانيهما إنها خلقت من ضلع آدم. ونحن لا نشك في أن هاتين الصفتين لحواء في التوراة قد جاءتا نتيجة لتأثير واضح بأسطورة انكي وننخرساك التي تدور حول جنة دلمون. فنحن نقرأ في هذه الأسطورة أن الضلع (يلفظ في السومرية ti) كان أحد أعضاء الإله انكي الثمانية التي أصابها الوجع بسبب أكله النباتات التي ذكرنا قصتها قبل قليل. ولذلك فقد كان لزاماً لشفائه أن تخلق ننخرساك إلهة خاصة بهذا المرض سمتها الأسطورة Nin-ti. هذا من جهة ومن جهة أخرى فأن للفظ السومري (ti) نفسه معنىً آخر مهم وهو (يحيي) ويكتب بالعلامة السابقة نفسها أيضاً. ولذلك فأن التعبير السومري حيثما يرد يمكن أن يعني «سيدة الضلع» أو «السيدة التي تحيي». أن هذا المعنىٰ المزدوج لاسم الإلهة السومرية التي خلقت في «جنة» دلمون قد نقله العبرانيون من الأسطورة السومرية فدعيت أول امرأة في جنة عدن في التوراة باسم حواء «التي تحيي» (في السومرية Nin - ti)[9] وتصورها في الوقت نفسه إنها من ضلع آدم لأنها كانت موكولة بشفاء ضلعه (في السومرية Nin - ti أيضاً).

والآن ننتقل إلى القسم الثاني من البحث وهو الذي يتعلق بالأسطورة

---

(9) S. N. Kramer, The Sumerians, (1963), P. 149.

البابلية المعروفة بأسطورة أدابا Adapa[10] وإظهار نقاط إلتقائها مع قصة آدم في التوراة وخاصة خروجه من الجنة والملابسات التي صحبت ذلك.

مما تجدر ملاحظته في المعتقدات السومرية ـ البابلية أن خلق الإنسان لم يكن مسألة جوهرية من عملية التكوين فخلقه جاء متأخراً جداً أي بعد أن تم خلق السماء والأرض، والشموس والأقمار والبحار والأنهار وبعد أن وزعت المناصب بين الآلهة في العلىٰ والأرض. والحقيقة هي أن الآلهة ما كانت لتفكر في خلق الإنسان أصلاً لولا أن أعلنت فئة منها التمرد مطالبة بأعفائها من المهمة الشاقة التي فرضت عليها والمتمثلة بإصلاح الأرض وزرعها وأعمارها، أنذاك خلق الإنسان ليكون بديلاً يحمل عن الآلهة «النير» في الأرض. ولهذا جاء خلقه استجابة لظروف طارئة وإنه أي الإنسان لم يكن أساساً ضمن المخطط العام لخلق الكون. ويلاحظ الباحث في النصوص المسمارية والبابلية أيضاً أن البون شاسع بين الآلهة والبشر في الجوهر والمنزلة. فأصل الآلهة يرجع إلى المياه الأزلية الأولى (أبسو وتيامة) بينما خلق الإنسان وعلى يد الآلهة العظام من طين ممزوج بدم أحد الآلهة الذبيحة. وأهم من هذا وذاك فأن الآلهة احتفظت لنفسها بالخلود بينما جعلت الموت من نصيب البشر، وهي حقيقة أكدت عليها النصوص المسمارية في أكثر من مناسبة. إذاً فلا مفر للإنسان من الموت، فهو يلاحقه دائماً حتىٰ يقبض عليه في نهاية المطاف. ولكن ومع استسلام الإنسان لحتمية الموت في بلاد وادي الرافدين وإعتقاده الراسخ بأن الخلود للآلهة فقط، فأننا نجد أن هناك تطلعات للنفس البشرية نحو الخلاص من شبح الموت.

انعكست تلك التطلعات في عدد من القصص النثرية والشعرية التي ألفها الكتاب والشعراء السومريون والبابليون. فنحن نجد في واحدة من

---

(10) E. Speiser, (Adapa;) in Ancient Near Eastern Texts (Third ed. 1969), PP. 101 - LO 8.

تلك القصص أن الإنسان يصبح ذات مرة قاب قوسين أو أدنى من الخلود عندما يُقدّم له إله السماء «ماء الحياة وطعام الحياة» ولكنه لسبب أو لآخر يضيع تلك الفرصة الثمينة. (قصة آدابا)[11] وفي مرة أخرى نجده يحصل على الخلود مكافأة له على إنقاذ نسل البشرية من الطوفان المدمر[11]. وفي مناسبة ثالثة يضيع الإنسان فرصة ثمينة للبقاء بشباب دائم متجدد عندما يفقد بإهماله نبات الحياة الذي لاقىٰ الأهوال في سبيل الحصول عليه[12]. وعلى الرغم من أن القصص التي نحن بصددها الآن تؤلف ثلاث قطع أدبية منفصلة بعضها عن البعض الآخر، فيمكننا القول بصورة عامة أن هناك صلة موضوعية بينها جميعاً حيث إنها تتعلق بشكل أو بآخر بمسألة حتمية موت الإنسان وبخيبة أمله في الحصول على الخلود، وهم الأطار العام للمعتقدات السومرية البابلية الخاصة بالإنسان والحياة.

وعلى أية حال فأن ما يهمنا من هذه القصص الثلاث في الوقت الحاضر هي القصة الخاصة بآدابا لأهميتها بالنسبة إلى قصة آدم كما جاءت في التوراة.

وصلتنا قصة أدابا مدونة على أربعة رقم طينية مهشمة عند نهاياتها مما تسبب في ضياع قدر كبير من محتوىٰ القصة. ومع ذلك فبإمكاننا أن نرسم الإطار العام لقصة أدابا في ضوء الأجزاء الأولى المتبقية، والقصة مدونة باللغة البابلية ويعود تاريخ أقدم رقمها، وهو الرقيم الذي عثر عليه في تل العمارنة بمصر، إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

أما الرقم الثلاثة الأخرى فقد عثر عليها في مكتبة أشور بانيبال بمدينة نينوى. تعطي المعاجم اللغوية المسمارية للاسم Adapa بصيغته البابلية عدة مرادفات يستنتج منها أن الاسم يعني (الحكيم، العاقل، العارف)

(11) فاضل عبد الواحد علي، الطوفان، ص 23 ـ 24، ص 100، 101.

(12) E. Speiser, (The Epic of Gilgamesh) in Ancient Ner Eastern Texts (Third ed. 1969) P. 96 - 97.

كما أطلقت نصوص مسمارية أخرى بهذا الاسم Adapa على أول «حكيم» من عصر ما قبل الطوفان[13]. والحقيقة هي أن أدبا بالحكمة ورجاحة العقل قد ذكر بالنص في مستهل القصة أيضاً ولا بد من أن نذكر هنا بأن محاولة الربط بين الاسمين آدابا وآدم عبارة عن مجرد قول لا يستند إلى دليل في ضوء ما يتوفر من إشارات في النصوص المسمارية[14].

يذكر الرقم الأول من القصة إنه كان هناك رجل يعيش في مدينة اريدو[15] اسمه آدابا وأن إله الحكمة ايا «Ea» قد وهبه حكمة واسعة ليكشف خطط البلاد أجل، لقد وهبه الحكمة ولكن لم يعطه حياة أبدية.

ثم تذكر القصة البابلية أن الآله ايا جعله، أي آدابا نموذجاً أمثل للإنسان. فكان محباً للناس، يساعدهم في أعمالهم ويساهم في توفير الطعام والشراب لسكان مدينته، وكان رجلاً تقياً يخشىٰ الآلهة ويقدم لها القرابين باستمرار. وتنسب إليه القصة بأنه هو الذي أشار على سكان مدينته (اريدو) بامتهان حرفة صيد السمك[16].

وذات يوم بينما كان آدابا يصطاد في قاربه هبت «ريح الجنوب» فقلبت قاربه رأساً على عقب. وعندئذ غضب آدابا فأمسك بالريح الجنوبية وكسر جناحها، لقد سبب ذلك بالطبع توقفّها عن الهبوب، فعلم آنو، آله السماء، بالحادث وطلب إحضار آدابا إمامه على الفور. لقد خشي آدابا العاقب. فلاذ بآله الحكمة أيا الذي هذبه وأعطاه الحكمة

---

(13) The Chicago Assyrian Dictionary Vol. 1' part 1. p. 102.

(14) E, Ebeling, Tod und Leben, P. 27 a.

(15) نحو 25 كم شمال شرقي مدينة اور.

(16) لا شك في أن الحرفة كانت ذات أهمية بالنسبة لاقتصاديات معبد المدينة ومن المعروف عن آيا إنه كان إلّه الأرض والمياه. وقد كشفت التنقيبات عن كميات كبيرة من عظام السمك ربما كانت قرابين مما قدم إلى الإلّه آيا الذي ظلت عبادته مشهورة في هذه المدينة خلال العصور القديمة.

والمعرفة كما ذكرنا ذلك قبل قليل. فنصحه أيا بأن ينشر شعره ويلبس ثوب حداد عند صعوده إلى السماء وإنه سوف يلاقي عند بوابة آنو آلهين يدعيان دموزي Dumuzi وكزيدا Gizzida فإذا ما سألاه عن سبب ما جرى وجب عليه أن يقول لهما: أن آلهين اختفيا من الأرض وإنه حزين على فقدهما. وإذا ما سألاه عن اسميهما وجب أن يقول لهما: إنهما يدعيان دموزي وكزيدا وعندئذ سوف يشعر هذان الآلهان الحارسان بالإمتنان لآدابا لمشاعره نحوهما وسوف يتشفعان له عند إلّه السماء آنو.

وأهم من هذا وذاك فقد قال إلّه الحكمة أيا بأن آنو سوف يقدم له عند مثوله أمامه «خبز الموت وماء الموت» فعليه ألا يقربهما، ولكن عندما يقدم له آنو رداء فعليه أن يلبسه وزيتاً فعليه أن يدهن به جسده. ثم أكد إلّه الحكمة آدابا بالاّ يخالف وصيته هذه مهما كلف الأمر. وأصعد آدابا إلى السماء. ومرّ بالحارسين عند بوابة آنو فجرى بينه وبينهما سؤال وجواب على النحو السابق الذي توقعه أيا. ثم جيىء به أمام الإلّه آنو الذي سأله عن السبب الذي دفعه إلى كسر جناح ريح الجنوب فأجابه آدابا قائلاً.

كنت اصطاد السمك وسط البحر لعائلة سيدي

وكان البحر (صافياً) كالمرآة

ولكن ريح الجنوب جاءت عاصفة فاغرقتني

وفي سورة من الغضب أنزلت عليها اللعنة

وفي هذه الأثناء تدخل كل من الحارسين دموزي وكزيدا، اللذين سبق وأن أعجبا بعواطفه تجاههما فالتمسا الآله آنو أن يعفو عنه وأن يقدم له جزاء لتلك المشاعر (خبز الحياة وماء الحياة) فوافق آنو على التماسهما وأمر بما أرادا. ولكن ماذا حدث عندئذ تقول قصة آدابا ما نصه:

وعندما جلبوا له خبز الحياة لم يأكله

وعندما جلبوا له ماء الحياة لم يشربه

ولكن عندما جلبوا له الرداء فأنه لبسه

والزيت فأن دهن به جسده

(وأنذاك) نظر إليه آنو (باستغراب) ثم ضحك منه وقال:

تعال يا آدابا وقل لي لماذا لم تأكل أو تشرب

إنك سوف لن تحصل على الحياة (الأبدية)

(إنك تقول) أن آيا أمرك ألاّ تأكل وألاّ تشرب

(ثم التفت آنو إلى الحراس وقال لهم عبارته المأثورة)

خذوه وردوه إلى أرضه

وأخيراً يضحك إلّه السماء آنو عالياً من قول آدابا بأن سيده آله الحكمة والذي أمره أن يتصرف على النحو الذي فعل بالضبط فيقول:

مَن مِن آلهة السماء والأرض على كثرتهم

أعطى مرة مثل هذه الأوامر

ومن منهم يستطيع أن يجعل أمره يفوق أمر آنو؟

أما الأسطر القليلة الباقية من قصة آدابا فأنها غير ذات أهمية لصلب الموضوع وهو ضياع فرصة الخلود. بعدها ينخرم رقيم الطين دون أن نتعرَّف على نهاية القصة التي ربما تطرقت إلى عودة آدابا من السماء إلى الأرض بِخُفَي حنين بعد أن ضَيَّع على نفسه وعلى البشرية جميعاً فرصة ثمينة للخلود.

إن قصة آدابا هذه تذكرنا بقصة خروج آدم من الجنة التي تذكرها التوراة[17]: وجبل الرب الإلّه آدم تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسه حية. وغرس الرب الإلّه جنة في عدن شرقاً ووضع هناك آدم الذي جبله. وأنبت الإلّه من الأرض كل شجرة شهية النظر وجيدة للأكل وشجرة الحياة في وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر[18]. وأخذ الرب الإلّه آدم قائلاً من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً

---

(17) سفر التكوين 2 ـ 3.

وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت[19].

وكانت الحية أحيل جميع الحيوانات البرية التي عملها الرب الآله. فقالت للمرأة أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجرة الجنة. فقالت المرأة للحية من ثمر شجرة الجنة تأكل. وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة منعنا الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتاً فقالت الحية للمرأة لن تموتا. بل الله عالم إنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر. فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وإنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر. فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت زوجها أيضاً معها فأكل. فانفتحت أعينهما وعلما إنهما عريانان. فخاطا أوراق تين وصنعا مآزر[20].

وقال الرب الإله هو أن الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً. ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الرب الآله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها[21].

لا شك في أن قصة آدابا تبدو مختلفة لأول وهلة في تفاصيلها العامة عن قصة آدم. غير إنها في اعتقادنا تلتقى مع القصة التوراتية في نقاط جوهرية عديدة.

الأولى: أن كلتا القصتين تدوران حول ما يمكن تسميته بخطيئة الإنسان الذي فوّت على نفسه وعلى البشرية فرصة الحصول على الخلود.

(18) سفر التكوين 2: 7 ـ 9.
(19) سفر التكوين 2: 15 ـ 17.
(20) سفر التكوين 3: 1 ـ 7.
(21) سفر التكوين 3: 22 ـ 23.

الثانية: في كلتا القصتين يجد الباحث أن هناك شيئاً محرماً كان على الإنسان عدم الاقتراب منه «طعام وماء الحياة» (قصة آدابا) و«شجرة الجنة» (التوراة).

الثالثة: كلتا القصتين تدوران حول محور واحد وهو عصيان الإنسان لأوامر الرب. فقد عصا آدابا أبي الآلهة وأعظمهم وهو آنو، إلّه السماء عندما تناول طعام وماء الحياة. وكذلك عصىٰ آدم أوامر الرب أيضاً عندما أكل من شجرة الجنة، وعلى الرغم من أن الصورتين معكوستان تماماً لكن العصيان في كل الحالتين كان مخالفة لأوامر الرب وكان سبباً في إنزال اللعنة على الإنسان في الحالتين.

الرابعة: يلاحظ الباحث أن في القصتين تأكيداً على وجوب «نزول» أو «خروج» الإنسان إلى موضع أدنىٰ هو الأرض عقاباً له على خطيئته. فقد أصدر آنو أمره بأن يعاد آدابا من السماء إلى الأرض وعلى غرار ذلك تذكر التوراة أن الرب أمر بخروج آدم من جنة عدن إلى الأرض.

الخامسة: يتلمس الباحث في كلتا القصتين أن هناك خيبة أمل شديدة لحقت بالإنسان لعصيانه أوامر الرب وأن النتيجة كانت وخيمة بالنسبة لبني البشر عامة.

السادسة: نجد في كلتا القصتين أن هناك رمزاً للشر حمل الإنسان على عصيان أوامر الرب وأن كانت طريقة العصيان معكوسة تماماً من قصة أخرى. فالإلّه آيا بنصيحته المطوّلة التي أسداها إلى آدابا كان السبب المباشر في حمل الأخير على عصيان أوامر إلّه السماء آنو يرفضه طعام وماء الحياة. وفي التوراة نجد أن الحية كانت السبب في إغراء حواء وآدم لعصيان أوامر الرب عندما أكلا من ثمر شجرة الخير والشر[22].

(22) د. فاضل عبد الواحد، جنة عدن والفردوس المفقود، مجلة كلية الآداب / جامعة بغداد. عدد 22 (شباط ـ 1978) ص 269 ـ 283. وعنه أخذنا هذا البحث.

حكاية الطوفان الكبير البابلية

تعد أسطورة الطوفان البابلية، أو بالأحرىٰ السومرية أقدم أساطير الطوفان المدونة في الأدب. ذلك إننا نعلم إنه على الرغم من قدم الرواية البابلية، فأنها لا تزال مستمدة من أسلافهم السومريين-الذين استمد منهم سكان بابل، فيما يبدو، العناصر الأساسية لحضارتهم.

وتجري هذه الحكاية على النحو التالي.

ففتح انكي (ايا) فاه

وقال مخاطباً عبده (اتراخسيس)

قد قلت «ماذا عليّ أن أفعل؟»

فعليك الانتباه إلى الخبر الذي سأقوله

يا جدار استمع إليّ

يا جدار القصب انتبه إلى كلماتي

أهدم بيتك وابن سفينة

انبذ المال وانقذ النفس

وتلقىٰ اتراخسيس الأوامر

فجمع الشيوخ عند بوابته

ثم فتح اتراخسيس فاه

وقال مخاطباً الشيوخ:

إن إلهى لا يتفق مع إلهكم
وأن أنكي وأنليل غضبان كل منهما على الأخر
فابعداني عني . . .
ولما كنت أعبد الإله أنكي
فقد أخبرني بهذا الأمر
إنني لن استطيع العيش في . . . (بعد الآن)
ولن استطيع أن أضع (قدمي) في أرض انليل
ابن سفينة كبيرة
وليكن بناؤها كلياً بالقصب
واجعلها سفينة «ماكوركور» (Magurgur)
وسمّها «منقذة الحياة»
ففتح اتراخسيس فاه
وقال مخاطباً الإله آيا .
لم ابن سفينة من قبل أبداً . . . .
ارسم لي صورة على الأرض
حتى أرى الصورة وابني السفينة
فرسم الإله آيا الصورة على الأرض

. . . .

ترقب الوقت المحدّد الذي سوف أخبرك عنه
ثم أدخل السفينة وأغلق بابها
احمل فيها شعيرك وأمتعتك وأموالك
وزوجتك وصاحبك وقريبك والعمال الماهرين
وإني سأرسل إليك حيوان السهل وكل حيوان وحشي
يأكل العشب في السهل

وإنها سوف تنتظر عند بابك

. . . . أرسل عائلته إلى ظهر السفينة

فأكلوا وشربوا

أما هو فقد كان يدخل ويخرج

فلم يستطع أن يجلس أو أن يستقر

ثم تغيرت مظاهر الجو

وأرعد الإله أدد في الغيوم

وحالما سمع (اتراخسيس) صوت أدد

جيء له بالقير ليسد بابه

وبعد أن زلج الباب

كان الإله إدد يرعد في الغيوم

وأصبحت الريح عاتية عند نهوضه

فارخى الحبال وانطلقت السفينة مع التيار

. . . .

ومزّق الإله الطائر (زو) (Zu) بمخالبه السماء

. . . . . البلاد

وحطم ضجيجها مثل الإناء

. . . وبدأ الطوفان

وكان في شدّته كل الناس كالحرب الضروس

فلم يعد بإمكان الأخ أن يرى أخاه

ولم يعد بالإمكان التمييز بينهم لهول الدمار

وكان الطوفان يخور كالثور

وكانت الأعاصير تعصف مثل نهيق حمار الوحش

وكان الظلام حالكاً (بعد أن اختفت) الشمس

وكانت الإلهة ننتو تنوح..
ماذا جرىٰ؟ هل إنهم جاءوا بالبحر....؟
إنهم يملأون البحر وكأنهم فراشات
وقد تحاشدوا عند حافة النهر وكأنهم الاكلاك
فرأيتهم وبكيت عليهم
حتىٰ استنفذت نواحي من أجلهم
ونامت ننتو حتىٰ استنفذت عواطفها
وبكىٰ الإلّهة معها من أجل الأرض
لقد شبعت (ننتو) حزناً فظمأت إلى الخمر
وحيثما جلست فأنهم (الإلّهة) جلسوا باكين
فملأوا أحواض السقي وكأنهم أغنام
وكانت شفاههم محمومة من العطش
وكانوا يتضورون من الجوع
ولسبعة أيام وسبع ليالٍ
استمر الطوفان والعواصف والفيضان
حيث....
طرحت أرضاً....
إلى الرياح الأربعة
فوضع...
يجهز الطعام...
....
وشمّ الإلهة الرائحة
فتهافتوا كالذباب فوق القربان
وبعد أن أكلوا القربان

وقفت الإلهة ننتو لتوجه الإتهام إليهم جميعاً

. . . .

إلى آخر الملحمة لا نرغب في سردها هنا كاملة خوف الإطالة والملل دائماً سننشرها بنصيها السومري والبابلي مع الترجمة العربية ودراسة مقارنة في كتابنا القادم «التوراة البابلية» إن شاء الله قريباً. .

هذه هي قصة الطوفان التي تدخل في نسيج ملحمة كلكامش. ولعله يتضح لكل دارس، أن هذه القصة لم تكن لها في الأصل صلة بالملحمة. وقد احتفظ لوح مكسور بجزء من رواية أخرى لهذه القصة. وقد عثر على هذا اللوح مع سائر ألواح ملحمة كلكامش بين انقاض مكتبة أشور بانيبال في نينوى. وهذا اللوح يحتوي على جزء من الحديث الذي قيل إنه دار بين الإلّه «آيا» ونوح البابلي قبل أن يحدث الطوفان. ونوح البابلي هنا يدعى «اتراخسيس» وهو اسم أطلق عوضاً عليه في الملحمة، لأنه في غير هذا المكان من الملحمة لا يسمى «اتراخسيس» بل «اوتنابشتيم» ويقال أن «اتراخسيس» هو الاسم البابلي الأصلي.

بل هناك رواية أخرى لأسطورة الطوفان قديمة كل القدم اكتشفت في «نيبور». أن هذه الرواية لم تدون إلاّ بعد سنة 2100 ق. م وقد ورد في هذه الرواية أن الإلّه ظهر ليذيع نبأ حدوث طوفان سيكتسح الجنس البشري في الحال، وحذر من هذا الطوفان شخصاً بعينه، فطلب منه أن يبتني سفينة كبيرة ذات سقف قوي لينجو فيها بحياته، وأن يأخذ معه فيها صنوف الحيوان الأليفة وطيور السماء.

هذه الروايات المختلفة عن قصة الطوفان قد دونت باللغة السامية البابلية والأشورية. ولكن هناك رواية أخرى مكتوبة باللغة السومرية. وإنها هي الأخرى تتفق مع ملامحها الأساسية مع قصة الطوفان التي تحتوي عليها ملحمة كلكامش.

قصة الطوفان الكبير العبرية

يجمع نقاد العهد القديم على أن أسطورة الطوفان العبرية كما هي مدونة في سفر التكوين تجمع بين قصتين متميزتين في أصلهما ومتناقضتين تناقضاً جزئياً. وقد مزج المؤلف بين القصتين لكي يكوّن منهما قصة واحدة متجانسة من ناحية الشكل. ومع ذلك فقد مزج المؤلف بينهما بطريقة فجة للغاية، بحيث لا يفوت القارىء ما فيهما من تكرار وتناقض حتىٰ وأن كان القارىء غير مدقق في قراءته. الأولى من المصدر الكهنوتي الذي يرجع تاريخه إلى ما بعد عام 586 ق. م عندما استولى بختنصر (نبوخذنصر) ملك بابل على أورشليم وأخذ اليهود أسرى إلى بابل. والثاني المصدر اليهوهي وهو الأقدم والذي يعتقد إنه كتب في العصور الأولى من الحكم العبري في فلسطين أي في القرن الثامن أو التاسع قبل الميلاد على وجه الاحتمال. فكلا المصدرين تاريخي في شكله.

فبينما نجد مؤلف المصدر اليهوهي يهتم اهتماماً حقيقياً بشخصية الرجال والنساء الذين يصفهم، كما يهتم بمغامراتهم فأن كاتب المصدر الكهنوتي يهتم بهم في حدود استخدامهم وسيلة لخدمة فكرة «العناية الآلهية» وبنظم اجتماعية ودينية. فالتاريخ الذي كتبه مؤلف هذا المصدر تاريخ مقدس وكهنوتي أكثر منه دنيوي ومدني.

المقارنة:

ربما كانت المقارنة السطحية بين حكايتي الطوفان العبرية والبابلية كافية لأن تؤكد لنا أن كلتا الحكايتين لم تنشأ في الأصل مستقلتين، بل من المؤكد أن أحداهما اعتمدت على الأخرى، أو إنهما استمدتا معاً من أصل واحد. وتتعدد وجوه الاتفاق بين الحكايتين حتىٰ تشمل التفصيلات الجزئية، بحيث لا يمكننا أن نرجع هذا إلى محض الصدفة، ففي كلتا الحكايتين قررت القوىٰ الإلّهية أن تقضي على الجنس البشري بأن ترسل إلى الأرض طوفاناً عظيماً. وفي كلتيهما أفشىٰ إله هذا السر إلى رجل قبل إغراق الأرض بالطوفان وقد أرشد الإلّه هذا الرجل إلى بناء فُلْك كبير لكي يأوي إليه فينقذ نفسه وينقذ معه صنوف الكائنات الحية جميعاً. ومن المحتمل إنه ليس من قبيل الصدفة أن يكون البطل الذي أُنقِذَ من الطوفان في الحكاية البابلية وفقاً لرواية بيروسوس هو ملك بابل العاشر. وإنه يكون نوح في الحكاية العبرية هو الرجل العاشر في نسل آدم. وفي كلتا الحكايتين إبتنىٰ الرجل المختار بعد تحذير الإلّه إياه، سفينة ضخمة مكونة من عدة طوابق وطلاها بالقار والقطران حتىٰ لا تتسرب إليها المياه، وأدخل فيها أسرته وحيوانات من كل صنف. وفي كلتيهما هطلت الأمطار الغزيرة. فتجمَّع الطوفان بمقدار كبير ودام أياماً يختلف عددها قلة أو كثرة. وفي كلتيهما غرق الجنس البشري جميعه فيما عدا البطل وأسرته. وفي كلتيهما أرسل الرجل الذي أنقذ، طائرين: غراباً وحمامة ليرى عن طريقهما ما إذا كانت مياه الطوفان قد انحسرت عن الأرض. وفي كلتيهما عادت الحمامة إلى السفينة، لأنها لم تجد مكاناً تستقر فيه، أما الغراب فلم يعد في كلتا الحكايتين، وفي كلتيهما رست السفينة على جبل. وفي كلتيهما قدم البطل على الجبل ضحية للآله شكراً له على إنقاذه أياه. وفي كلتيهما اشتمت الآلهة رائحة الشواء الطيبة فسكن غضبها.

وهكذا تتعدد وجوه الشبه بين الحكايتين البابلية والعبرية في

مجموعهما. فإذ شئنا بعد ذلك أن نتعمق في التفصيلات، فأننا نجد أن الحكاية البابلية أقرب إلى الحكاية اليَهوهية منها إلى الحكاية الكهنوتية، فلكل من الرواية اليَهوهية والبابلية تعطي أهمية للعدد سبعة.

فقد حذّر نوح في الرواية اليهوهية، من حدوث الطوفان سبعة أيام على التوالي. كما أخذ معه في السفينة سبعاً من كل صنف من صنوف الحيوانات الطاهرة، ثم إن المسافة الزمنية بين إطلاقه طائرٍ وآخر كانت سبعة أيام. وبالمثل دام الطوفان في الرواية البابلية حتىٰ بلغ قمته سبعة أيام. كما أن البطل فيها وضع مجموعات أوعية التضحية فوق الجبل، وكانت كل مجموعة تتكون من سبعة أوعية. وتؤكد كل من الروايتين البابلية واليهوهية أن باب السفينة أوصد بعد أن دخلها الرجل وأسرته وصنوف الحيوان التي اختارها.

وفي كلتيهما صورت الحادثة المثيرة، حادثة إرسال الحمامة، ثم الغراب من السفينة. كما أن الضحية قدمت في كلتا الحالتين، وقد اشتمت الآلهة فيهما رائحة الشواء وسكن غضبها. على إننا نجد من ناحية أخرى أن الحكاية الكهنوتية في سفر التكوين تقترب من الحكاية البابلية في بعض التفصيلات المحددة أكثر من اقتراب الرواية اليهوهية منها. ففي كل من الروايتين: الكهنوتية والبابلية أصدرت الآلهة تعليمات محددة إلى البطل لبناء السفينة، وبناء على هذه التعليمات، بنيت السفينتان في كل من الروايتين من عدة طوابق وقُسّم كل طابق إلى عدة حجرات كما إنها طليت في كل منهما بالقار أو القطران، ورست كل منهما على جبل واستقبل البطلان بَرَكة الآله عند خروجهما.

فإذا كانت الحكايتان العبرية والبابلية عن الطوفان تتشابهان إلى هذا الحد، فكيف يمكننا أن نفسر هذا التشابه؟ أن الرواية البابلية لا يمكن أن تكون مستمدة من الرواية العبرية حيث أن الرواية البابلية أقدم من الرواية العبرية بما يقرب من أحد عشر أو اثني عشر قرناً، وفضلاً على ذلك

«فأن الحكاية العبرية في جوهرها، كما لاحظ (تسيمرن) تقضي بأن يكون البلد المشار إليه قابلاً لحدوث الفياضانات مثل بابل الأمر الذي لا يدع مجالاً للشك في أن الحكاية «نشأت أصلاً في بابل، ثم انتقلت بعد ذلك إلى فلسطين»، ولكن إذا كان العبريون قد أخذوا حكاية الطوفان الكبير عن البابليين، فمتىٰ وكيف تم ذلك؟

إننا لا نملك أدنىٰ قدر من المعلومات عن هذا الموضوع، ومن ثم فأن الإجابة عن هذا السؤال لا يكون إلا عن طريق التخمين. وقد افترض بعض الباحثين الذين يتمتعون بسمعة طيبة في البحث أن اليهود قد عرفوا هذه الحكاية في فترة أسرهم في بابل، وبناء على ذلك لا يرجع تاريخ العبرية إلى أقدم من القرن السادس قبل الميلاد. وقد تكون وجهة النظر هذه سليمة لو أن الرواية العبرية كانت متمثلة في الأثر الكهنوتي المنقح وحده. ذلك إن الاحتمال يؤيد كما رأينا، أن المصدر الكهنوتي قد ألّف في أثناء الأسر أو بعده.

ومن المحتمل كل الاحتمال أن كتّاب هذا المصدر قد تعرفوا على التراث البابلي، أما عن طريق الروايات الشفوية أو المدونة، وذلك في أثناء أسرهم أو ربما بعد عودتهم إلى فلسطين. ويحق لنا أن نفترض أن العلاقة الوثيقة بين البلدين التي مهد لها الغزو البابلي لفسلطين، ربما أدت على نحو ما إلى انتشار الأدب البابلي في فلسطين، كما أدى السبي إلى انتشار الأدب اليهودي في بابل. وبناء على وجهة النظر هذه فأن بعض التفصيلات التي تختلف فيها الرواية الكهنوتية عن الرواية اليهوهية، وتتفق فيها مع الرواية البابلية، ربما نقلها الكّتاب الكهنوتيون مباشرة عن المصادر البابلية. وهذه التفصيلات تتعلق ببناء السفينة وطلائها بالقار أو القطران اللذين يعدّان بصفة خاصة من منتجات بابل. على أن احتمال معرفة العبريين لحكاية الطوفان الكبير قبل أن يؤخذوا في الأسر بزمن طويل، وقرب حكايتهم في شكلها من الحكاية البابلية، هذا الاحتمال تؤيده كل التأييد الحكاية اليهوهية في سفر التكوين التي يمكن أن ترجع

إلى القرن التاسع قبل الميلاد والتي لا يمكن أن تتأخر بحال من الأحوال عن القرن الثامن.

فإذا افترضنا أن العبريين في فلسطين كانوا يعرفون أسطورة الطوفان البابلية منذ زمن مبكر. فأنه ما زال علينا أن نتساءل، كيف ومتىٰ عرف العبريون هذه الأسطورة؟ لقد سبق للباحثين أن قدموا اجابتين على هذا السؤال: الإجابة الأولىٰ هي أن العبريين ربما نقلوا هذه الحكاية معهم عندما هاجروا من بابل إلى فلسطين قبل ميلاد المسيح بما يقرب من ألفي عام. وأما الإجابة الثانية فهي أن العبريين فيما رأى البعض، ربما أخذوا هذه الحكاية بعد أن استقروا في فلسطين، عن الكنعانيين، سكان البلاد الأصليين الذين ربما عرفوها بدورهم عن طريق الأدب البابلي في حوالي الألف الثاني قبل الميلاد، على إننا لا نستطيع أن نقرر في الوقت الراهن أي الرأيين هو الصواب، هذا إذا افترضنا أن أحدهما يحتمل الصحة.

وقد لعب الخيال اليهودي في العصور المتأخرة بحكاية الطوفان فأضاف إليها تفاصيل جديدة تميل في الغالب إلىٰ المغالاة، وذلك فيما يبدو، بقصد إشباع شغف العبريين في عصر انحطاطهم، أو مداعبة مزاجهم في هذا العصر، ذلك المزاج الذي لم يكن يقتنع ببساطة حكايات سفر التكوين النبيلة[1].

(1) جيمس فريزر، الفولكلور في العهد القديم، الجزء الأول، ترجمة د. نبيلة إبراهيم، مراجعة د. حسن ظاظا، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1972، ص 106 ـ 166.

الطوفان بين النص التوراتي
والنصوص السومرية والبابلية

سنأتي الآن إلى إجراء المقارنة بين النص التوراتي والنصوص السومرية والبابلية، وذلك بتتبع العناصر الرئيسية في رواية الطوفان.

«1» إلّه الطوفان

في سفر التكوين، يقوم إلّه اليهود يهوه بإرسال الطوفان. ولكن مجمع الآلهة السومري والأكادي من قِبَلِهِ هو الذي يقرر الطوفان. وهذا القرار ليس إجماعياً بدليل أن آلهة الولادة «ننتو» في النص السومري تنوح على أولادها البشر. وانكي الحكيم يقرر بينه وبين نفسه مدّ يد المعونة للناس وانقاذ الحياة عن طريق زيوسودرا التقي الأثير لديه. كذلك الأمر بالنسبة للنص البابلي فعشتار ندمت على انصياعها لقرار البعض في مجمع الآلهة. وآيا قام بكشف سر القرار الإلّهي لاوتنا بشتيم. ثم إننا بطريقة غير مباشرة نعرف في آخر النص، إن انليل هو المسؤول الرئيسي عن الطوفان، شأنه في ذلك شأن يهوه، ويبدو أنه هو الذي اقترحه وحمل الآلهة للموافقة عليه. ومن ثم قام بإدارته حتىٰ النهاية وتبدو مسؤولية الطوفان واقعة بكليتها على انليل من كلام آيا: «كيف دونما تفكر جلبت هذا الطوفان» ومن كلام عشتار: «تقدموا جميعاً واقتربوا من الذبيحة. إلا انليل وحده لن يقترب لأنه سَبَّبَ الطوفان دونما ترو. وأسْلَم شعبي للدمار».

وعلى العكس من هذين النصيين فأن ملحمة اتراحيس تطرح سبباً غريباً للطوفان يذكرنا بالسبب الأساسي للصراع بين الالهة في أسطورة التكوين. فانليل يشعر بأنزعاج من صخب البشر وضوضائهم فيقرر أفناءهم بعد أن أعيته الحيل في التقليل من عددهم. ولكنه بعمله هذا يناقض العلة الرئيسية لخلق البشر، ألا وهي حمل عبء الكدح عن آلآلهة. فهل كان يخطط لخلق جديد يعقب الطوفان. كما فعل زيوس في الأسطورة اليونانية؟ هذا ما لا تستطيع الأسطورة بنصها الذي وصلنا الإجابة عليه.

2 ـ أسباب الطوفان

تؤكد التوراة صراحة على الأسباب الأخلاقية وراء دمار الإنسان. فالأرض قد فسدت وامتلأت بالعنف والشر. أما النص البابلي فيعطي تلميحاً بالأسباب الأخلاقية، حيث نجد «آيا» في آخر النص يخاطب انليل قائلاً: «حمل المذنب ذنبه والأثم أثمه أمهله كي لا يفني ولا تمهله كيلا يفسد». وهذا يدل بوضوح على أن غرض انليل الأساسي من الطوفان كان القضاء على الشرور والأثام فدّمر الجميع دون تمييز بين الصالح والطالح.

3 ـ بطل الطوفان

«زيو سودرا» كان بطل الطوفان السومري. والكلمة تعني «الذي وضع يده على العمر المديد»، وذلك اعتماداً على ما أعطته له الآلهة من حياة سرمدية عقب الطوفان. أما اسم «اوتنابشتيم» بطل القصة البابلية فيعني «الذي رأى الحياة» والاسم مشتق هنا أيضاً من طبيعة المكافأة التي نالها لإنقاذه الحياة على الأرض. وفي ملحمة اتراحيس فأن الاسم يعني «الواسع الحكمة».

أما سفر التكوين فلم يعن بإيجاد علاقة ما بين اسم «نوح» وبين

التجربة التي مرّ بها البطل. فقد فسّرت كلمة نوح أحياناً بأنها تعني الراحة. إلا أن الحياة المديدة التي عاشها نوح تضعه إلى جانب زيو سودرا الذي وضع يده على العمر المديد. وأوتنابشتيم الذي رأى الحياة، فلقد عاش نوح أكثر من تسعمائة سنة.

عاش اوتنابشتيم في «شورّوباك» وهي من أقدم المدن في جنوبي الرافدين (العراق) على نهر الفرات وقد ورد ذكرها بين المدن الخمس التي ظهرت للوجود عقب خلق الكون السومري. أما زيو سودرا فأن نقص النص يمنع من معرفة المدينة التي عاش فيها.

كانت نجاة زيو سودرا راجعة لكونه رجلاً صالحاً. وكذلك الأمر فيما يتعلق باكسوتروس ونوح. ومن سياق النص البابلي نفهم أيضاً أن اوتنابشتيم كان كذلك.

4 ـ الإعلام عن الطوفان

تتفق جميع النصوص على أن الإعلام عن الطوفان قد جاء من جهة إلَهية. وتختلف في كيفية إيصال الخبر. فزيوسودرا رأى حلماً لم ير شبيهاً له قط. فأخذ يتضرع للآلهة عسىٰ أن تظهر له معناه، ثم إنه سمع صوتاً يأمره أن يقف خلف الحائط ليتلقى من خلاله رسالة الإلَه الذي أنبأه القرار. كذلك اوتنابشتيم الذي رأى حلماً يخاطبه فيه «آيا» من وراء جدار كوخه القصب، ويكشف له فيه سر الآلهة. ويؤكد نص بيريسوس كذلك على الحلم كواسطة للاتصال.

أما التوراة فنجد الإله يتصل بنوح مباشرة دونما ستار أو حجاب ودون الحاجة لوساطة الحلم. وفي شخص يهوه تتحد شخصيتا «آيا» و«انليل» فيهوه الذي أمر بالطوفان وهو الذي أبلغ نوح وأختاره للنجاة. بينما يقوم بهذه المهمة في بقية الأساطير إلَهان منفصلان أحدهما يرسل الطوفان والثاني يتولى إعلام من يختارهم للنجاة دون علم الأول.

5 ـ السفينة

كما تباينت أسماء بطل الطوفان تباينت كذلك تسميات السفينة التي بناها. والقصة السومرية أشارت للسفينة بأنها «ماجور» أي السفينة العملاقة ونص نيبور استعمل كلمة مشابهة. أما نص كلكامش فسماها «ايليبو» التي تعني مجرد سفينة أو مركب، ولكنه يصفها في أماكن متفرقة على إنها «الهيكل العظيم». بينما لا يستعمل سفر التكوين سوى كلمة واحدة «يتبا» التي تعني بالعبرية الصندوق أو التابوت.

تحتوي سفينة اوتنابشتيم على سبعة طوابق وتنقسم عمودياً إلى تسعة أقسام. وأثناء بنائها لا نعرف ما إذا قد جعل لها نوافذ وفتحات وأبواب. ولكننا نقرأ بعد إنتهاء الطوفان أن اوتنابشتيم قد فتح نافذة فسقط النور منها على وجهه. أما سفينة نوح فتحتوي على ثلاثة طوابق وتتألف من عدد غير محدد من الأقسام. ولها باب في جانبها وفتحة للنور وبينما ينفرد اوتنابشتيم باستعمال الزيت عندما قام بنقع مصدات المياه بوزنة واحدة وخزن الوزنتين الباقيتين فأنه يتفق مع نوح على استعمال القار الذي طلا به السفينة ولكنهما يعودان للاختلاف بشأن الشكل الخارجي والإبعاد.

وعلى كل فأن أبطال الطوفان يؤمرون كل بدوره ببناء سفينة عظيمة تحمل بذور الحياة وتتدخل الشخصية الإلّهية كثيراً أو قليلاً بتحديد شروط بنائها. . ويبدو أن اوتنابشتيم كان أكثرهم حرية في ذلك.

6 ـ ركاب السفينة

بعد أن فرغ من عمله، قام اوتنابشتيم بنقل كل ما يملكه من ذهب وفضة إلى السفينة. كما نقل إليها أهله وأقاربه وجميع أهل الحرف؛ ودفع إليها طرائد البرية ووحوشها، وأقام عليها ملاّحاً أسلمه قيادتها. ويأتي عمل اوتنابشتيم في حمل أصحاب الحرف مشابهاً في مغزاه لعمل

اكسوتروس في طمر الألواح الحاوية على سجلات البداية كل شيء وتطوره. فالبطلان يحاولان حفظ حضارة الإنسان وثقافته من الضياع ونقلها للأجيال التالية التي تعقب الطوفان، حتى لا تجد نفسها مضطرة للبدء من جديد، ويبدو من سياق النص أن اوتنابشتيم قد حمل معه طيوراً لأنه قام بإطلاق بعضها على سبيل الاستطلاع، كما قام بحمل المؤن والذخائر.

ونستدل من المقاطع الباقية من النص السومري أن زيوسودرا قد حمل معه بعض الحيوانات، بدليل إنه قام بتقديم ذبائح الشكر للآلهة من الثيران والخرفان. وكذلك فعل اتراحيس الذي حمل إلى السفينة طرائد البرية ووحوشها وما إستطاع من آكلي الأعشاب، ونقل إليها أهله وأقاربه وأصحاب الحرف وجرى اكسوتروس على نفس المنوال فنقل زوجه وأولاده وأصدقاءه المقربين وخزن فيها الطعام والشراب وحمل فيها مخلوقات مجنحة وذوات أربع.

تتفق التوراة مع قصص أرض الرافدين (العراق) من حيث نقل الأشخاص والطعام والحيوان. إلا أن العدد الهائل للأفراد يتقلص إلى ثمانية فقط، هم: نوح وزوجته وأولاده الثلاثة وزوجات أولاده. أما الحيوانات المحمولة والأطعمة حسب أوامر الرب فكانت: «من كل حي من كل ذي جسد اثنين اثنين كل تدخل الصندوق لتحيا معك ذكراً وأنثى تكون. من الطير بأصنافها ومن البهائم بأصنافها ومن جميع دبابات الأرض بأصنافها يدخل إليك اثنين من كل لتحيا. وأنت فخذ لك من كل طعام يؤكل فيكون لك ولهم مأكلاً». ويتبع ذلك تفصيل بالحيوانات الطاهرة وغير الطاهرة.

أما كيف سيعمل بطل الطوفان على جمع كل هذه الحيوانات فيبدو أن الشخصية الآلهية هي التي تكلفت بدفعها إليه ليحملها إلى السفينة. كما يبدو من ملحمة اتراحيس ومن سفر التكوين. ففي ملحمة اتراحيس

نرى آيا يقول لعبده «طرائد البرية ووحوشها وما استطعت من آكلي الأعشاب سأدفع بها إليك» كذلك في سفر التكوين نجد أن الحيوانات تأتي إلى نوح دونما جهد منه لجمعها وحصرها «وتدخل الصندوق لتحيا معك» يدخل إليك اثنين من كل لتحيا.

7 ـ يوم ابتداء الطوفان:

«في السنة الستمائة من عمر نوح، من الشهر الثاني في اليوم السابع عشر منه، في ذلك اليوم تفجرت عيون الغمر وتفتحت كوىٰ السماء». ومن المعروف أن السنة العبرية الزراعية تبدأ في الخريف في أواخر تشرين الأول، فيكون الشهر الثاني والحالة هذه هو كانون الأول بداية موسم الأمطار في المنطقة.

أما قصة بيريسوس فتجعل الطوفان يبدأ في اليوم الخامس من شهر مايس. بينما تصمت بقية النصوص عن ذكر أي موعد معين لبدء الطوفان.

8 ـ علل الطوفان

تسبب الطوفان في النص البابلي عن العاصفة والأمطار والمياه السفلية «فحدد» أو أدد إلّه الرعود والبروق والصواعق والأمطار قد انطلق يسبقه مساعداه، ونرجال فتح فوهات العالم الأسفل فانطلقت مياه الأعماق الحبيسة. وننورتا إلّه السدود والري فتح سدوده وقنواته ففاضت دونما ضابط. وفي التوراة كذلك، تسبب الطوفان عن الأمطار الغزيرة وانبثاق المياه السفلية. أما النص السومري فيؤكد على الأمطار كعنصر أساسي.

9 ـ مدة الطوفان

أعطت التوراة فواصل زمنية محددة بين الحوادث المؤلفة للقصة، فلقد استمر الطوفان أربعين يوماً. ثم ابتدأت المياه بالتناقص بعد مائة

وخمسين يوماً. . . وبجمع الأزمنة بعضها إلى بعض نستنتج أن المدة الفاصلة بين بدء الطوفان وخروج نوح من السفينة قد امتدت قرابة السنة الكاملة.

أما النص البابلي فلم يضع تفصيل للفواصل الزمنية، بل اكتفى بالقول أن الطوفان استمر سبعة أيام وسبع ليالٍ. وكذلك الأمر في الأسطورة السومرية، حيث استمر الطوفان ستة أيام وسبع ليالٍ. لذلك لا نستطيع استنتاج مدة معينة لدوام الطوفان البابلي. ولكنه قط دام مدة أقصر بكثير من طوفان نوح.

10 ـ أين استقرت السفينة؟

استقرت سفينة اوتنابشتيم على جبل «نصير» أي جبل الخلاص، وقد ورد اسم هذا الجبل في حوليات الملك أشور بانيبال التي حددت موقعه في جنوب نهر الزاب الأسفل وهو أحد روافد دجلة.

أما سفينة نوح فقد استقرت على جبل أراراط. واراراط في الواقع ليس اسماً لجبل بل هو اسم يطلق على بلاد أرمينيا. ويبدو أن السفينة قد رست على أعلى قمة في بلاد اراراط. ومن هنا جاءت التسمية. وقد وردت كلمة آراراط في مواضع أخرى من التوراة للدلالة على قطر وبلاد لا على جبل. من ذلك مثلاً ما ورد في سفر أشعيا 37: 38 «وفيما هو ساجد في بيت نصرواك إلهه، قتله (ادرملك) و(شرآصر) ابناه بالسيف وهربا إلى أرض آراراط. وملك أسرحدون ابنه مكانه». وما ورد في سفر ارميا (51: 37) «انصبوا الراية في الأرض وانفخوا في البوق في الأمم قدسوا عليها الأمم ونادوا عليها ممالك آراراط ومنى واشنكار».

11 ـ إطلاق الطيور

في اليوم السابع لبدء الطوفان أطلق اوتنابشتيم حمامة لاستطلاع المحيط. وما لبثت أن عادت إليه لأنها لم تجد مستقراً لقدميها. وبعد فاصل زمني غير محدد أطلق سنونو فطار ثم عاد إليه أيضاً. فانتظر فترة

أخرى ثم أطلق غراباً فطار ولم يعد. فاستدل من ذلك أن الأرض قد أصبحت صالحة للهبوط فحرر سكان السفينة وأطلقهم للجهات الأربع.

أما نوح فقد بدأ بالغراب. وقد أظهر بهذا التصرف حكمة أكثر من اوتنابشتيم. ذلك أن الغراب يهوى المرتفعات دون السفوح والسهول، لذلك فأن غيابه لا يدل على إنحسار الماء عن جميع الأرض. ثم إنه أرسل الحمامة ذلك الطائر الذي لا يطير إلا في السهول والمنخفضات فجاءت الحمامة ثم عادت، فانتظر سبعة أيام أطلق بعدها الحمامة الثانية فطارت وعادت في المساء وفي منقارها غصن زيتون طري ويبدو إنها وجدت مكاناً تهبط فيه وطعاماً إلا أن الوضع بشكل عام لم يكن مشجعاً على قضاء الليل خارج السفينة فانتظرْ سبعة أيام أخر، وأطلق الحمامة الثالثة فطارت ولم تعد، مما دل نهائياً على أن السهول قد غدت جافة كما المرتفعات.

وهكذا تتفق الروايتان في إرسال الطيور ولكنها تختلف في نوعيتها وعددها. فبينما يرسل اوتنابشتيم حمامة وسنونو وغراباً يقوم نوح بإرسال غراب وثلاث حمامات. ونستطيع أن نلمح تشابهاً من حيث المغزى بين عودة حمامة نوح وفي منقارها غصن زيتون، وعودة طيور اكسوتروس وعلى مخالبها آثار من طين...

12 ـ مغادرة السفينة

انتظر نوح فترة أطول قبل الخروج من السفينة وكانت هذه الفترة كافية لنمو النباتات من جديد لإعالة جيل ما بعد الطوفان من الناس والحيوان، أما خروج باقي أبطال الطوفان فقد كان سريعاً لأن دوام الطوفان لم يكن بالطول الكافي لدمار الطبيعة دماراً تاماً كما هو الأمر في الطوفان التوراتي وقد جاء خروج نوح بناء على أمر من الإله كما كان الحال لدى دخوله. أما اوتنابشتيم والآخرون فقد خرجوا بناء على تقديرهم الخاص.

13 ـ تقديم الذبيحة والعهد الإلّهي:

يرفع كل أبطال الطوفان الشكر للآلهة على نجاتهم، ويقدمون الأضاحي والقرابين. فزيوسودرا خرّ ساجداً أمام أوتو ونحر ثوراً وقدم ذبيحة من غنم. واكسوتروس سجد على الأرض وبنئ مذبحاً وقدّم قرباناً للآلهة. واوتنابشتيم أطلق الركاب للجهات الأربع وقدم أضحية. ونوح بنئ مذبحاً للرب، وأخذ من جميع البهائم الطاهرة، ومن جميع الطير الطاهرة، فأصعد محرقات على المذبح. وهنا يتطابق النص البابلي مع التوراة، فبعد حرق الأضاحي نقرأ في نص اوتنابشتيم «تنشق الآلهة الرائحة الذكية» ونقرأ في التوراة «فتنسم الرب رائحة الرضئ».

يتقبل الرب تَقْدِمَة نوح ويندم على فعلته، ويقطع على نفسه عهداً أبدياً بألا يدمر الأرض ثانية بطوفان مماثل: «وقال الرب لا أعيد لعن الأرض... ولا أعود أهلك كل حي كما صنعت... وأقيم عهد بيني وبين الأرض».

وفي نص اوتنابشتيم ينسئ الآلهة غضبهم على البشر عندما يشمون رائحة الأضحية، ويتجمعون على صاحبها وقد سرّوا بنجاة الحياة على الأرض. ولا توجد هنا إشارة مباشرة لعهد ما مع الإنسان. إلا أن كلام عشتار يوحي لنا بشيء قريب جداً من العهد الآلهي ومن إشارته التي كانت عند يهوه قوس قزح، كلما رآه تذكر عهده مع البشر. فعندما وصلت عشتار رفعت عقدها الكريم الذي صنعه آنو وفق رغبتها وقالت: «أيها الآلهة الحاضرون كما إنني لا أنسئ عقد اللازورد الذي يزين عنقي، فأنني لن أنسئ هذه الأيام قط وسأذكرها دوماً».

أن رفع عشتار لعقدها يقترب كثيراً في مضمونه من قوس قزح الذي يعطيه يهوه إشارة وعهد.

أما عن الندم فتعبر عنه عشتار تقول: «تقدموا جميعاً وقربوا من الذبيحة إلا انليل وحده لن يقترب لأنه سبب الطوفان دونما تردد أسلم شعبي للطوفان».

وبالنهاية فأن انليل نفسه يعبّر عن ندمه عندما يهدأ غضبه. فيصعد اوتنابشتيم وزوجه ويمنحهما بركاته الآلهية وخلوداً لنفسيهما، ويسكنهما في القاصي البعيد عند فم الأنهار. وينال أبطال الطوفان الآخرون جزءاً مماثلاً. فيمنح زيوسودرا حياة أبدية في أرض دلمون واكسوتروس ينال نفس النعمة. أما نوح فينال أيضاً بركات إلَهية من يهوه ولكن هذه البركات لا تصل حد أسباغ نعمة الخلود: «وبارك الرب نوحاً وبنيه وقال لهم أنمو وأكثروا وأملأوا الأرض».

إلا أن نوحاً يتكشف فيما بعد في التوراة عن إنسان سكير. فبعد أن غرس كرماً، حصد وشرب من خمره فسكر وأخذ يرقص ويتعرىٰ من ثيابه: «وشرب من الخمر فسكر وتعرىٰ داخل خبائه فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجاً. فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما. فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به الجنة الصغير. فقال ملعون كنعان. عبد العبيد يكون لأخوته. وقال مبارك الرب إله سام. وليكن كنعان عبداً لهم» (تكوين 9: 31 ـ 35).

ويلاحظ هنا أن العبرانيين قد أدخلوا هذا الفاصل في القصة لتبرير امتلاكهم لأرض الكنعانيين وطردهم أهلها الذين لعنهم يهوه بسبب رؤية أبيهم كنعان لعورة أبيه.

النتيجة

والسؤال الأخير الذي يطرح نفسه:

هل اعتمد النص التوراتي على النص البابلي أو أي من النصوص الأخرى (السومري أو الأكدي؟).

والجواب الذي أراه بالدراسة الموضوعية للنصوص هو:

نعم. مع بقاء الاحتمال قائماً في رجوع النصوص جميعاً إلى نص

أقدم، أو إلى رواية بقيت في أذهان شعوب المنطقة من ديانة توحيدية سابقة. والواقع أن الهيكل العام للرواية التوراتية ينطبق بكل خطوطه العريضة، وبكثير من تفاصيله على النص البابلي حتىٰ أن بعض التعابير تكاد تنطبق بحرفية مطلقة. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن يهوه إنما يقوم في الرواية التوراتية بجميع الأدوار المتناقضة للآلهة، لزالت إلى حد كبير شقة الخلاف بين الروايتين. فيهوه يقرر منفرداً إرسال الطوفان، ثم إنه هو الذي يتسبب في علله من طغيان مياه السيول والأمطار وانبثاق المياه السفلية، وهو الذي ينقذ بعض الأثيرين لديه، وهو الذي يندم ويعد بألاّ يفعل ذلك ثانية.

أما من ناحية الصياغة الأدبية، فأن النص البابلي يتفوق بشكل واضح على نص التوراة، ويكفي أن نستعيد وصف أهوال الطوفان، لنرى التصوير الفني البديع والصنعة الأدبية الرفيعة. ويبلغ النص قِمة روعته في النهاية عندما يقترب إنليل من اوتنابشتيم وزوجته في مشهد درامي رائع فيصعدهما إلى السفينة ويجعلهما يركعان أمامه فيلمس جبهتاهما مباركاً: ما كنت قبل اليوم إلا بشراً فانياً ولكنك منذ الآن ستغدو وزوجتك مثلنا نحن الآلهة. وفي القاصي البعيد ستعيشان عند فم الأنهار.

ملحمة كلكامش
وسفر التكوين

تقديم

أن القصص المروية التي كتبها اليهود، ليست بتاريخ، ولكن فيها نفحة تاريخية. وطيلة عشرين قرناً الماضية، تمكن اليهود من تكريس الكثير من المفاهيم المخطوءة القائمة على التحريف والانتساب والتزوير للحوادث والشخصيات التاريخية من أجل أن يجعلوا لهم امتداداً تاريخياً مرتبطاً بحضارات العالم القديم، وعلى الأخص الحضارتين العراقية والمصرية العريقتين.

وتحس بكل تأكيد، أن أحبار اليهود، قد اقتبسوا من تواريخ الأقطار المجاورة لهم، فهوّدوا كل المعلومات التي كان الغرض منها التلفيق والتزوير حيث أن تاريخ اليهود القديم الذي تضمنته التوراة قد وضعه كُتّاب عاشوا في بابل بعد وقوع حوادثه بمئات السنين واستندوا في رواياتهم على قصص مروية تناقلتها أجيال من أسلاف اليهود الذين كانوا قد تزاوجوا مع سكان بابل الأصليين وفقد الكثير من أصوله العرقية. وبالتالي خضعت مرويات هذا الجيل إلى التأثيرات التي أملتها مصالح الفئات المتناحرة إلى ما كان يكنّه اليهود أساساً من نوايا غير نزيهة تجاه الشعوب الأخرى.

وقد توصل العديد من العلماء إلى ما تضمنته أسفار العهد القديم من قصص وشرائع، إنما يرجع أصله إلى مثيلات له في المدونات السومرية والبابلية والأشورية والمصرية والكنعانية وغيرها. وإن اليهود اقتبسوا منها ما هو جدير بما احتواه تاريخهم وحذفوا بلا هوادة كل ما لم يلق استحسانهم.

فهناك تشابه بين قصة الخليقة (اينومااليليش) البابلية وبين قصة خلقه العالم كما وردت في سفر التكوين وتلتقي في أكثر من حدث ونفس التشابه نلاحظه في قصة خلق الإنسان السومرية (آدابا) وتطابقها مع الأحداث التي ترويها التوراة من أصل الخليقة. وكان لفكرة البعث والنشوء في ملحمة كلكامش تأثيراتها الواضحة في التوراة بالرغم من أن التوراة دوّنت بعدها بحوالي ألفي سنة.

ولقد وردت (قصة الطوفان) في أكثر من موقع في المدونات السومرية والبابلية بحيث غطىٰ (الطوفان) المعمورة ولم ينج من أهلها إلا زعيم ديني وأفراد أسرته والحيوانات التي حملها معه في الفلك التي أوحىٰ إليه ببنائها من قبل. ولقد أورد سفر التكوين هذه القصة بعد ألفين ونيف من السنوات مما أوردته الحوليات البابلية. ولكن كتبة اليهود كعادتهم نسبوا هذه القصة إلى مدوناتهم الدينية ولم يذكروا مصدر هذا الإقتباس.

من هو كلكامش

كلكامش دون أدنىٰ شك شخصية تاريخية، فقد ورد اسمه واسم والده وأخيه في إثبات الملوك السومري. وكان الملك الخامس من سلالة الوركاء الأولى. والوركاء هي اوروك وتقع أطلالها الآن قرب خضر الدراجي في محافظة المثنىٰ. ويخبرنا إثبات الملوك السومري هذا عن كون كلكامش قد حكم 126 سنة (وهو رقم مبالغ فيه) وقد مال بعضهم إلى إعتباره شخصية أسطورية ـ رغم ورود اسمه في الإثبات ـ ولكن ما

جاء عنه في الملحمة، وما ورد عنه في كتابات التميل (جزء من معبد الايكور الخاص بالإِلّه انليل) في مدينة نفرّ قرب عفك الآن) ويؤكد شخصيته التاريخية وقد ذكر نص عن حملة قام بها كلكامش على عيلام وعندما أصلح الملك آنام أحد حكام اوروك في الألف الثاني قبل الميلاد سور المدينة ذكر بأنه بناء قديم من عمل كلكامش المقدس.

هوية الملحمة

تعتبر ملحمة كلكامش من المآثر الأدبية الكبرىٰ التي وصلتنا من العراق القديم حقاً. وهي دون شك أقدم ملحمة شعرية نعرفها حتىٰ الآن من بين ملاحم العالم والتي حصلت على شعبية بالغة. وفي الغالب كانت الملحمة مهيئة للإنشاد والقراءة في الاحتفالات. وجاءت الملحمة منظومة بالطريقة التي عرفها العراقيون القدماء في نظم الشعر بتقسيم القصيدة إلى مقاطع لكل منها بيتان مماثلة لما نطلق عليه الشعر المرسل (الموزون غير المقفىٰ). وقد اكتشف الأستاذ جورج سمث الألواح منها في نينوى (تل قوينجق) وقدّم عنها لأول مرة محاضرة بإجتماع لجمعية آثار الكتاب المقدس سنة 1872 ثم أخرج (1884 ـ 1895) بول هويت نصوصها المسمارية لأول مرة وأخذت ترجماتها بعد ذلك تترىٰ ولدينا منها الآن عدداً واقراً، ومن الذين ترجموها من النص الأكدي إلى الانكليزية والألمانية والفرنسية والروسية والدنمركية والجيكية والفنلندية والجورجية والإيطالية والعبرية، وظهرت لها عدة ترجمات في العربية.

وللملحمة أهمية عظمىٰ فإلىٰ جانب تأثيرها علىٰ الآداب القديمة فأنها تعكس لنا مشاعر العراقي القديم وعقليته ونفسيته وحياته واتصالاته وحتىٰ معرفته بما يحيط بها من الأقطار.

والملحمة في اثني عشر لوح، نقرأ في

اللوح الأول:

ظهور كلكامش وبنائه سور اوروك ومعبد عشتار وظلمه للشعب. فضجّ الناس وشكُوا إلى آنو رب الأرباب فسمع شكواهم وأمر الربة آرورو أن تخلق نظيراً لكلكامش فصنعت انكيدو. وتصف الملحمة بداوة هذا الأخير المخلوق العجيب المخيف.

اللوح الثاني:

كلكامش يرسل عاهرة إلى انكيدو، وهذه تقوده إلىٰ اوروك حيث يلتقي مع كلكامش ويبدأ الصراع بينهما.

اللوح الثالث:

الإثنان يصيران صديقان حميمان وسارا ضد خمبابا الذي يقيم في غابة الأرز (ربما هي لبنان).

اللوح الرابع:

نقرأ فيه عن قطع كلكامش وصديقه انكيدو لعشرات الفراسخ ووصولهم إلى بوابة الأرز التي يحرسها حارس يتلق أوامره من خمبابا. وخوف كلكامش وتشجيع انكيدو له.

اللوح الخامس:

كلكامش وانكيدو يتأملان الغابة وارتفاع أشجار الأرز ومدخل الغابة وشاهدا جبل الأرز، ثم القبض على خمبابا وقطع رأسه.

اللوح السادس:

لقاء عشتار بكلكامش فتعرض عليه الزواج، إلا إنه يرفض طلبها ويسمعها الكلام اللاذع ويعيّرها ويعدد لها أحبابها السابقين الذين غدرت

بهم، فترسل إليه الثور السماوي الذي يقتله كلكامش وانكيدو، ثم يرجعان إلى اوروك يستعرضان وسط الناس.

اللوح السابع:

موت انكيدو الذي قرر الأرباب موته في مجلسهم.

اللوح الثامن:

نواح كلكامش على صديقه انكيدو وارتدائه جلد الأسد وتجواله في البراري.

اللوح التاسع:

ذهاب كلكامش إلى جبل ماشو حيث الرجل العقرب.

اللوح العاشر:

وصول كلكامش إلى الحانة وصاحبتها تنصحه أن لا يواصل السفر بحثاً عن الخلود. وهنا يقابل الملاح اورشنابي. وهذا يخبره أن يقطع بفأسه من الغابة 120 عموداً طول كل منها 60 ذراعاً. ويقطع كلكامش الأعمدة ويأتي بها إلى الملاح، وهذا يأخذه معه ويعبران بها مياه الموت. ويصل كلكامش إلى اوتانابشتيم (نوح).

اللوح الحادي عشر:

وفيه قصة الطوفان التي يرويها اوتونابشتيم لضيفه كلكامش وهذا هو محور كلامنا.

اللوح الثاني عشر:

رجوع كلكامش إلى عاصمته اوروك فاشلاً، فيلقي نفسه في التراب....

الطوفان حسب اللوح الحادي عشر

خالجت نفس العراقي القديم التغلب على الموت وقهره، فصوّرها بطريقة أسطورية وتَحمَّل كلكامش المتاعب الكثيرة، ووصل إلى أقصىٰ الأرض (منطقة فم الأنهار: پي ناري). (التي أعتقد إنها بيروت والتي معناها الآبار أو مجمع الينابيع).

أرادت الأرباب القضاء على الجنس البشري فأتت بالطوفان ولكن الإِلّه آيا يأتي إلى اوتنابشتيم في الحلم وينبئه بخبر الطوفان وينصحه ببناء الفلك ويعطيه الأوامر والتعليمات الضرورية.

وهذا ما جاء في اللوح الحادي عشر باختصار:

قال كلكامش لاوتونابشتيم.

أخبرني كيف تقف في مجمع الأرباب وكيف تملكت الحياة قال له اوتونابشتيم سأفصح لك عن كلمة خفية وأخبرك بإرادة الإِلّهة.

عندما قرر الأرباب في قلوبهم إرسال الطوفان.

قال لي الإِلّه آيا... يا رجل شوروباك ابن اوباراتوتو

هدّم دارك وابنِ سفينة، أترك ممتلكاتك وفتش عن الحياة.

صعّد إلى السفينة بذر جميع المخلوقات الحية.

إن السفينة التي سوف تبنيها أنت، يجب أن تكون مقاديرها مقيسة.

ليكون الطول مساوياً للعرض، غطاؤها مثل أبسو (ماء الأعماق)

عندما فهمت أنا هذا قلت إلى الإلّه سيدي، ساجلّك أنا وأعمل ولكن كيف أنا أجيب على استفسارات الناس.

فتح الإلّه آيا فمه وقال: قل لهم كالآتي:

أنا عرفت بأن الإلّه انليل يكرهني ويجب أن لا أعيش في مدينتكم وسأولي وجهي إلى بلاد غيرها وأسكن مع سيدي الإلّه آيا......

وفي اليوم الخامس أكملت تصميمها.

مساحة أرضها أبكر واحد، وارتفاع جدرانها 120 ذراعاً، وجانب ظهر السفينة قياسه 120 ذراعاً. وضعت شكل خارجها، وجهزته بستة طوابق، وقطعتها إلى سبعة طوابق، وقطعت داخلها إلى تسعة، وغرزت في وسطها اوتاد الماء، رأيت من المردي ووضعت المؤونة وسكبت ثلاث سارات من الأسفلت في الكورة....

واليوم السابع إكتملت السفينة....

وملأتها بكل شيء أملكه من الفضة، ومن الذهب، ومن المخلوقات الحية، وجعلت كل عائلتي وأقاربي يصعدوا السفينة مع حيوانات البرية ووحوش الغاب والضباع كلهم وجعل الرب شماش لي وقتاً محدداً، أدخل السفينة وأغلق الباب في الوقت الموعود...

كان اليوم مخيفاً لمن ينظر إليه، فأحاطت غيمة سوداء كأفق السماء، رعد في وسطها الإلّه أدد ويسير في الإمام الأرباب... وأتى الرب نينورتا وفتق السدود وتحوّل كل شيء منير إلى ظلام وتحطمت الأرض كالوعاء، وهبت الريح الجنوبية بسرعة وأتت على الناس مثل معركة فلم يعد الأخ يرى أخاه، ولا الناس يمكن تمييزهم من السماء، حتى الأرباب خافوا من الطوفان فهربوا وعرجوا إلى سماء الرب آنوا وجلسوا القرفصاء، مثل الكلاب داخل سياج الإصطبل.

ستة أيام وسبع ليال، اكتسحت ريح الجنوب وعاصفة الطوفان

الأرضي، وبحلول اليوم السابع انسحبت عاصفة الطوفان هذا البحر وخفّت الريح وتوقف الطوفان.

نظرت إلى الجو فكان السكون قد حلّ.

وتحول جميع البشر إلى طين.

وكانت وديان الأنهار مستوية مثل السقف.

فتحت الشباك ووقع النور على وجهي، فركعت وصليت أبكي وسقطت دموعي على خدي، نظرت إلى كل الجهات لأرىٰ حدود البحر.... ووقفت السفينة على جبل نصير وأمسك بها ولم يسمح لها بالحركة....

وعند حلول اليوم السابع، أرسلت الحمامة، ذهبت ورجعت إليّ إذ لم تجد مكان وقوف. أرسلت السنونو، ذهب ورجع إليّ إذ لم ير مكان... أرسلت الغراب، ذهب ورأىٰ جفاف الماء، أكل ودار وتجوّل ولم يرجع... قدمت أضاحي دموية علىٰ قمة الجبل، شم الأرباب رائحتها العطرة، فتجمعوا مثل الذباب.

والآن قد أتيت يا كلكامش، وتعبت وأجهدت نفسك ماذا سأعطيك، سأكشف لك برّ الأرباب، هناك نبتة مثل الشوك، خذ جذرها،.... فأذا حصلت عليها تحصل على الحياة، على الخلود....

دهن كلكامش بالدهن جسمه، وربط برجليه أحجاراً ثقيلة، وهبط إلى ماء الأعماق ورأىٰ النبتة، فألتقطها، وفي اليوم الثاني رماه البحر إلى شاطئه... فرأى بئراً ذات ماء بارد، فنزل واستحم بمائها، وشمّ الثعبان رائحة النبتة فخرج من الماء وأخذ النبتة، وفي رجوعه نزع عنه قشرته فجلس كلكامش يبكي ونزلت دموعه على خديه... ورجع إلى عاصمته اوروك فاشلاً.

بين سفر التكوين والملحمة

(1) نوح: العاشر بين الآباء وبطل الطوفان التوراتي، يعادل زيوسودرا السومري، اوتنابشتيم البابلي، وآباء وملوك ما قبل الطوفان حسب النصوص التوراتية والسومرية والبابلية قد عاش عدداً خيالياً من السنين رغم كون السنة القديمة ستة أشهر. وقد عاش نوح 950 سنة ومات (تك 9: 29).

ومن قصة الطوفان في التوراة نرىٰ أن شكلها النهائي قد جاء من مصدرين يهوهي وكهنوتي والإثنان يعتمدان إلى حدّ بعيد على الأصل البابلي وخاصة النص الكهنوتي.

وفي النص السومري يقرر انليل تدمير البشرية عن طريق الطوفان بينما يذكر النص البابلي الإلّهة والنص اليهوهي يذكر يهوه والكهنوتي الايلوهيم كمسبب للطوفان.

زيو سودرا رجل صالح بينما في النص اليهوهي نوح يجد نعمة لدىٰ يهوه والنص الكهنوتي يصف نوحاً بأنه كان صالحاً.

انكي يحذّر زيوسودرا وآيا يحذّر اوتنابشتيم وايلوهيم يحذّر نوح.

فُلك زيوسودرا ضخم أما فلك اوتنابشتيم فمكعب بقياس (120 X 120 X 120) وفلك نوح بالنص الكهنوتي (300 X 50 X 30) ذراعاً.

اوتنابشتيم يُدخل كل أنواع الحيوان وفي النص اليهوهي يدخل نوح سبعة سبعة من الحيوان الطاهر واثنين اثنين من غير الطاهر. وفي النص الكهنوتي يدخل اثنين ذكر وأنثىٰ من كل نوع من الحيوان.

في النص البابلي طوفان من المطر والعاصفة. وفي النص اليهوهي من المطر وفي النص الكهنوتي ينابيع الغمر وطاقات السماء.

الطوفان السومري يدوم سبعة أيام والبابلي ستة أيام واليهوهي أربعين يوماً ويتراجع في ثلاث مراحل كل مرحلة منها سبعة أيام. وفي النص

الكهنوتي يدوم 150 يوماً ويتراجع في 150 يوماً.

يقف الفلك البابلي علىٰ جبل نصير والكهنوتي على جبل ارارات.

يرسل اوتنابشتيم حمامة وسنونو وغراباً لم يعد، ويرسل نوح بالنص اليهوهي غراباً لم يعد ثم حمامة ثلاث مرات.

بعد الطوفان يقدم زيوسودرا ذبيحة لإلّه الشمس في الفُلك. بينما اوتنابشتيم يقدم ذبيحة على جبل نصير، ونوح اليهوهي على المذبح فتتجمع الإلّهة كالذباب على ذبيحة اوتنابشتيم ويهوه تنسم رائحة الرضىٰ من ذبيحة نوح.

مُنح زيوسودرا الحياة الأبدية كذلك اوتنابشتيم وزوجته منح الألوهية. وفي النص اليهوهي يقرر يهوه أن لا يلعن الأرض مرة أخرى من أجل الإنسان. وفي النص الكهنوتي يصنع عهداً مرة أخرى من أجل الإنسان. وفي النص الكهنوتي يصنع عهداً مع نوح أن لا يرسل طوفاناً آخر يدّمر الأرض.

وعقد عشتار من اللازورد تذكير كي لا يُعاد الطوفان، بينما الله يعطي قوس قزح علامة في النص الكهنوتي للتذكير.

الطوفان على ضوء الآثار والعلم

أن الأدلة الآثارية لم تقدم لنا أي دليل عن طوفان طغىٰ على جنوب العراق في فترة العراق. وقصة الطوفان أما أن تكون أسطورية صرفة ابتدعها الأقوام البدائية بالماضي، أو قد تكون ذكريات عن طوفان حدث في العهود ما قبل التاريخية والتي قد تكون ما نتج عن ذوبان الثلوج في العصور الجليدية بعد حلول المواسم الدافئة فجأة وظلت ذكريات نكباته عن الإنسان تتناقلها الأجيال. فالمعروف أن جنوب العراق قد طغت عليه مياه طوفان عرم عصور الدفء بين الأزمان الجيولوجية المعروفة حيث ارتفعت مياه البحر إلى ما يقارب الخمسين متراً فوق مستواه الحالي.

وآخر طوفان لا بد وأن حدث بين عصر رس وفرم الثلجيين.

ففي عصر فرم كان الإنسان السائد هو النياندرتال، فتاريخ آخر طوفان بجنوب العراق حدث حوالي 14 سنة ألف ق. م. ولنا أن نعرف بأن الطوفان من الأحداث التي تركت أثراً واضحاً في العقلية البابلية وهو أن كان يشير إلى حدث في العصور التاريخية (وهذا يستحيل إثباته اليوم) فلا بد وأن كان فيضاناً محلياً مدمّراً غير إعتيادي ظلت ذكراه باقية بين طيات النصوص التاريخية والأدبية والتي وردتنا ونحن نعرف بأن هناك ثلاث أحداث فيضان عاتية طغت على كيش (القريبة من بابل) في عصورها الأولى. (اثنين حوالي 2900 سنة ق. م) وأخرها بعدها بحوالي 30 سنة وبلغ ارتفاع الأخير حوالي 40 سم. وطوفان شوروباك (فاره) يتخلف بزمنه عن فيضان كيش وكان سمك طبقته حوالي 60 سم. أما طوفان جمدة نصر (ولو إنها ليست بعيدة عن كيش فأنه يأتي بفترة تقارب النصف قرن بعد طوفاني كيش الأوليين. أما طوفان أور فقد سبق طوفاني كيش بحوالي ستمائة سنة (نهاية عصر العبيد) وكان ارتفاعه كبير بين 3,72 م إلى 72 سم.

فهناك أذن عدة أحداث طوفان متباعدة الأزمان ومتفاوتة الطغيان علماً بأن آثار الطوفان باور يمكن ملاحظتها في سبع طبقات مختلفة الأزمان في آثارها.

وقد قام الجيولوجي النمساوي E. SUESS في نهاية القرن التاسع عشر بمحاولة إيجاد تفسير علمي لرواية الطوفان فقال: إن الطوفان ربما تسبب أساساً على عاملين:

أولهما: موجات عملاقة من البحر سببها اضطراب زلزالي في إقليم الخليج العربي أو إلى الجنوب منه.

وثانيهما: إعصار عنيف نشأ في خليج البنغال ثم عبر الهند متجهاً شمالاً نحو الخليج العربي. وقد صادف ذلك كله في موسم الفيضان

السنوي في حوض دجلة والفرات. وتشققت الأرض بتأثير الزلزال واندفعت منها المياه.

وهكذا فأن هذا الطوفان قد نشأ بتأثير مياه البحر الطاغية بصورة رئيسية. أما المياه السفلية ومياه الفيضان فلم تكن إلا عناصر مساعدة.

ولا نريد هنا أن نناقش هذه النظرية أو غيرها.

وأخيراً وقبل أن أغادر (سفينة نوح) أسطورة الطوفان، أريد أن أقف وقفة عابرة مع تفسير اسمح للبعض أن لا يأخذه مأخذ الجدّ. ولكن علم الفضاء الحديث ورحلات الفضاء التي قام بها الإنسان في العشرين سنة الأخيرة، قد أثبتت الإمكانية العملية للسفر بين العوالم، يضاف إلى ذلك أن دراسات تجري في أنحاء شتىٰ من العالم تفتح نتائجها الباب واسعاً أمام تساؤلات مشروعة عن وصول كائنات عاقلة من عوالم أخرىٰ إلىٰ الأرض حاملة معها أصولاً حضارية من عوالمها. ألا يحتمل أن أسطورة الطوفان الذي قضىٰ على كل شيء إلا نخبة مختارة حملت معها أصول الحضارة هي واقعة حدثت في كوكب آخر خارج مجرتنا؟ ألا يحتمل أن سفينة نوح هي سفينة فضاء أبحرت بعد ذلك الكوكب حاملة معها مجموعة مختارة فحطت رحالها على الأرض حيث تابع ركابها حياتهم فيها؟

قد يبدو هذا التفسير ضرباً من الخيال العلمي، ولكن مسألة وصول سكان الكواكب الأخرى إلى الأرض في فترة مبكرة من تاريخ الحضارة الإنسانية قد خرجت من حيز الخيال العلمي إلى حيز الدراسة العلمية الجادة.

مقابلة النصين التوراتي والبابلي

1) أهدم بيتك وابني قارباً — تك 6: 14

2) اجعل عرضها كطولها وسقفها كقبة الأبو — تك 6: 15

3) ثم أحمل إلى السفينة بذرة كل حي	تك 6: 19 و20
4) مئة وعشرين ذراعاً كان طول كل جانب	تك 6: 15
5) بنيت فيها ست طبقات سفلية	تك 6: 16
6) صببت على الموقد ستسارات مكاييل من الغار	تك 6: 14
7) ذبحت للشغيلة ثيراناً	تك 6: 21
8) اصعدت لداخل الفلك كل عائلتي وأقاربي	تك 7: 7 و8
9) مواشي المزراع حيوان البر وكل الصناع	تك 7: 13 ـ 16
10) صعتد من الأفق سحب سوداء	تك 7: 11
11) وأسفاه، فقد استحال الزمن الأول إلى طين.	تك 7: 23
12) هذا البحر، سكن الإعصار وتوقف الطوفان.	تك 8: 1 ـ 2
13) فتحت كوة فسقط النور على وجهي.	تك 8: 6
14) على جبل نصير استقرت السفينة.	تك 8: 4
15) ومع اليوم السابع أخرجت حمامة وأقلتها.	تك 8: 8 ـ 9
16) ثم أخرجت غراباً وأطلقته	تك 8: 7.
17) وسكبت قرابين على قمة الجبل	تك 8: 20
18) تنشقت الآلهة الرائحة الذكية	تك 8: 21
19) كل البشر مخادعون	تك 8: 21

الخلاصة

خلاصة القول، ومهما يكن من تشابه واقتباسات وتأثيرات ومؤثرات، يبقى الكتاب المقدس، كتاباً ملهماً وعمل الروح القدس فيه واضح وبيّن حيث أن الكاتب الملهم استطاع وبجدارة أن يستخدم ويوظف الملحمة أو أسطورة كلكامش للبلوغ إلى الهدف والغاية المقدسة وهي أن الله هو المبدع والخالق والضابط الكل وهو الإلّه الواحد ليس

من غيره إلّه، منه وإليه ترجع كل الأمور وهو بداية كل الغايات وإليه تنتهي.

كما أن أمراً آخر نريد أن نوضحه أن الوحي الإلّهي كان لكل الشعوب والأمم وكل منها عبّر عنه بحسب البيئة والعقلية والزمان، فهناك تنويهات وأشارات كثيرة لدى الشعوب المجاورة عمل حكماؤها ودوّنوا بحسب الوحي الإلّهي الذي عبّروا عنه ـ وأن بصورة مشوّهة ـ مثلاً عن مجيء المخلص وهذا هو كونفوشيوس في الصين يشير إلى ذلك، كما أشار زرادشت عنه أيضاً وما قدوم المجوس من المشرق إلى بيت لحم للسجود للمسيح إلا تأكيداً ان الشعوب الأخرى كان لها علاقة مع الوحي الإلّهى . . . كما أن شريعة الملك حمورابي وتطابقها مع الشريعة التي تلتها بقرنين من الزمان (شريعة موسى) ألا يمكننا أن نقول إنها دوّنت بإلهام ووحي لما فيها من العدالة والحق والإنصاف؟؟

إلا أن اليهود كأنهم احتكروا هذا الوحي لهم وهو خاص بهم دون غيرهم وهذا ما أصّروا عليه حتىٰ بات أمراً لا نقاش فيه ولا جدال. وهذا هو دينهم إلى اليوم العنصرية المقيتة حتىٰ في الإلّه والمقدسات. . . رغم ما في أسفار العهد القديم دون استثناء من اقتباسات وتطابقات للفكر الإنساني السابق لهم وهذه ما تؤكده يوماً بعد يوم الدراسات العلمية الرصينة والأثار والألواح والكتابات وكاأني بهم يريدون حجب نور الشمس بالغربال، وهل يخفىٰ القمر. . . لأن الإلّه الواحد الأحد خلق كل البشر وهم أبناءه دون تمييز وأعطىٰ لهم حق الفكر والتعبير كما أعطىٰ لليهود الذين ادّعوا إنهم شعب الله المختار دون سائر الشعوب. . . . .

بين سرجون وموسى

تشابه في قصة المولد

كان سرجون الأكدي (2370 ـ 2361 ق. م) بحق واحداً من ألمع شخصيات التاريخ القديم. فعهده كان بداية لحكم أقوام الجزيرة الفراتية في العراق بعد أن كانت الهيمنة السياسية بيد السومريين وإليه يعود الفضل في توحيد دويلات المدن وفي ترسيخ قواعد الدولة التي كتب لها أن تصبح بفضل فتوحاته العسكرية واحدة من أشهر الأمبراطوريات في المنطقة.

لقد وصلتنا من سرجون بضعة نصوص كتابية تسجل بالدرجة الأولى منجزاته العسكرية في توطيد نفوذه في الداخل وفتوحاته الواسعة في الخارج[1].

أما النص الذي نحن بصدده الآن، وهو الذي يتعلق بقصة مولد هذا الرجل، فأنه وصلنا من فترة تاريخية متأخرة، حيث تعود نسختان منه النهاية مهشمة في النسختين (إلى العصر الأشوري الحديث) في حدود 750 ق. م. بالإضافة إلى كسرة رقيم تحتوي على جزء من النص تعود

(1) L. oppenheim, Text from the Begining of the First Dynasty of Babylon, In Ancient Near Eastern Texts, P. 265 - 266.
(عن فاضل عبد الواحد، نفس المصدر، ص 22 حاشية 13).

إلى العصر البابلي الحديث (في حدود 600 ق. م)[2]. وعلى الرغم من بُعْدِ الزمن بين عصر سرجون والعصر الذي كتبت فيه هذه الألواح فأننا لا نشك إطلاقاً في إنها مستنسخة من ألواح أقدم كانت تتضمن النص الكامل لقصة مولد هذه الشخصية الفريدة.

إن ما تبقى من قصة مولد سرجون على الرقم الثلاثة المهشمة لا يزيد على واحد وثلاثين سطراً لكنها تعتبر رغم ذلك على قدر كبير من الأهمية للباحثين في أصول التراث العراقي القديم:

يقول سرجون في هذا النص عن نفسه ما يلي:

أنا سرجون الملك العظيم، ملك بلاد اكد

كانت أمي كاهنة عظمىٰ (enetu في الأكدية)[3] وأنا

لا أعرف أبي.

كان شقيق أبي يحب الجبال

ومدينتي كانت آزوبيرانو Azupiranu[4]

التي تقع على ضفاف الفرات

لقد حملتني أمي وولدتني سراً

ووضعتني في سلة من البردي ختمت غطاءها بالقير

ومن ثم رمتني في النهر الذي لم يغمرني،

---

(2) Speiser The Lengent of Sargon, in Ancient Near Eastern Texts, P. 119.

عن فاضل عبد الواحد نفس المصدر، ص 22 حاشية 14.

(3) أصبح أكيداً الآن أن الكلمة enetu ليست سوى صيغة ثابتة للكلمة المعروفة entu «الكاهنة العظمىٰ» التي كان يقابلها في المعبد السومري البابلي، للكاهن الأعظم enu، انظر:

Chicage Assyrian Dictionary Vol. 4. 172.

(4) تعني الكلمة «الزعفران» (على غرار الزعفرانية) غير أن موقعها غير معروف.

فحملني النهر وأخذني إلى الغراف آكي (AKKI)
فاتخذني الغراف آكي ابناً له
وجعلني الغراف آكي بستانياً عنده
وعندما كنت بستانياً منحتني عشتار حبها[5]
فاضطلعت بمهمة الملوكية أربعاً و(. . . .)[6] سنة
لقد سست وحكمت ذوي الرؤوس السود[7]
وقهرت الجبال الشاهقة بفؤوس برونزية قاطعة
تسلقت القمم العليا
وعبرت القمم السفلىٰ
وطوفت حول بلدان البحر ثلاث مرات
واستولت (يداي) على دلمون[8]
. . . وغيرت. . .
فأي كان الملك من بعدي
فعسىٰ أن يسوس ويحكم ذوي الرؤوس السود
ويقهر الجبال الشاهقة بفؤوس برونزية قاطعة
ويتسلق القِمم العليا
ويعبر القمم السفلىٰ

---

(5) كثير من ملوك وأمراء وادي الرافدين ادّعو بمحبة عشتار آلهة الحب والخصب لهم والإشارة تعني ضمنياً اختيارها سرجون للملوكية حيث أن الحكم في وادي الرافدين كان يقوم على مبدأ التفويض أي أن الآلهة تختار واحداً من البشر ليحتلها في حكم البلاد.

(6) الكلمة المخرومة لا بد كانت الرقم (50) حيث حكم سرجون في حدود (2970 ـ 2316 ق. م).

(7) إصطلاح شائع الاستعمال في وادي الرافدين والمقصود به «الناس الشعب» بصورة عامة.

(8) البحرين حالياً.

ويطوف حول بلاد البحر ثلاث مرات

(وتستولي يداه على دلمون)

ويقصد مدينة الدير[9] العظيمة

. . . من مدينتي آكد. . .

يتضح من هذا النص أن أم سرجون كانت كاهنة عظمىٰ (في السومرية Nin - Dingir والأكدية entu) وإنها كانت مضطرة لأن تتخلص من وليدها غير الشرعي فرمته في النهر. فأم سرجون باعتبارها كاهنة عظمىٰ كانت من الوجهة الدينية زوجة للآله، حتى اسمها Nin - Dingir يعني «السيدة الإلّهية». ولهذا لم يكن لها حق الزواج وبالتالي الإنجاب كما أن القوانين أوجبت عليها التعفف ومنعتها من التردد إلى الأماكن المشبوهة، وبعكسه فهي تعرض نفسها إلى عقوبة الحرق. ومن جهة أخرىٰ فقد فرض المشرّع عقوبة الجلد وحلاقة نصف الرأس على كل من يأتي بتهمة باطلة ضد هذه الكاهنة. ولهذا اضطرت أم سرجون إلى أن تتخلص من وليدها غير الشرعي بالطريقة التي وصفها لنا النص، وإلا عرضت نفسها إلى مشاكل إجتماعية وقضائية كثيرة.

ومما تجدر الإشارة إليه بخصوص الكاهنة العظمىٰ في وادي الرافدين أن معظمهن قد جرى اختيارهن من الأميرات (بنات الملك). ولدينا قائمة تحتوي على اسم اثنتي عشرة كاهنة ممن كَرسْن للخدمة في معهد إلّه القمر ننا (سن) في اور. ومن محظ الصدف أن تكون أولى تلك الكاهنات الأميرة أنحيدوانا Enheduanna إبنة الملك سرجون الأكدي نفسه الذي أراد لها علىٰ ما يبدو، أن تحترف الكهانة على غرار جدتها (أمه).

---

(9) هناك مدينة الدير الواقعة على بعد 16 ميلاً جنوب غربي العاصمة بغداد كما أن هناك مدينة أخرى بهذا الاسم تقع بالقرب من بدرة على الحدود الشرقية لوادي الرافدين مع إيران.

إن قصة مولد سرجون هذه تشبه إلى حدٍ ما القصة المعروفة عن مولد موسى[10]، إذ تذكر التوراة إن الفرعون أمر جميع شعبه قائلاً: كل ابن يولد يُطرَح في النهر، لكن كل بنت تستحيونها. وذهب رجل من بيت لاوي وأخذ بنت لاوي فحبلت المرأة وولدت ابناً. ولما رأته إنه حسن خبأته ثلاثة أشهر. ولما لم يمكنها أن تخبئه بعد أخذت له سفطاً من البردي وطلته بالحمر والزفت ووضعت الولد فيه ووضعته بين الحلفاء على حافة النهر.

ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يفعل به. فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل وكانت جواريها ماشيات على جانب النهر، فرأت السفط بين الحلفاء فأرسلت أمَتَها وأخذته. ولما فتحته رأت الولد وإذا هو صبي يبكي. فرقَّت له وقالت هذا من أولاد العبرانيين، فقالت أخته لابنة فرعون هل أذهب وادعي لك امرأة ترضعه من العبرانيات ودعت أم الولد وقالت لها ابنة فرعون أذهبي بهذا الولد وأرضعيه لي وأنا أعطي أجرتك. فأخذت المرأة الولد فصار لها ابناً. ودعت اسمه موسىٰ وقالت إني انتشلته من الماء (الخروج 1: 22، 2: 1 ـ 20).

إن قصة سرجون وموسى تلتقيان في نقاط عديدة نذكر أبرزها:

1) إن ولادة الطفلين في كلتا القصتين تحاط بالكتمان. فأم سرجون كانت مرغمة على كتمان ولادته لأنها حملت به وهي كاهنة عظمى. وكذلك موسى فولادته أحيطت بالكتمان أيضاً لأن فرعون كان قد أمر

---

(10) الراجح أن مولد موسىٰ وخروجه فيما بعد من مصر مع العبرانيين كان قد حدث في زمن الفرعون رعمسيس الثاني (190 ـ 1234 ق. م) والراجح أيضاً أن اسم موسىٰ مصري يعني «الوليد» «الطفل» على غرار Tutmose الوليد (الإلّه) توت. ومعنىٰ هذا أن موسى كان يعرف بالأصل باسم كامل بقي منه في الاستعمال جزء واحد هو موسى، انظر:

J. Wilson The culture of Egypt Phoemix Books (1954) PP. 254 - 256;
Finegam, Light from the Anceint East (1954) P. 105 - 109, 116.

بقتل أبناء العبرانيين.

2) تتطابق القصّتان في روايتهما عن وضع الوليد في سلّةٍ وإلقائه في النهر.

3) في كلتا القصّتين، هناك من ينتشل الوليد ويرعاه: الغراف آكي في قصة سرجون وإبنة فرعون في قصة موسى.

صبر أيوب
بين النصوص المسمارية والتوراة

طَرَقَ السومريون والبابليون ضُروباً من الأدب مختلفة وكان من بينها ذلك الضرب الذي يدور حول «الإنسان المعذب» الذي تتكالب عليه صُروف الدهر فيجد نفسه وعلى حين غرة غارقاً في بحر من الشقاء. حرمان وعذاب، مرض وسقم، ظلام يلفه من كل جانب ولا أمل في الخلاص. هذه الشرور وغيرها يصاب بها هذا الإنسان على الرغم من إنه كان دائماً تقياً ورعاً، يخاف الإلَهة ويقدم لها الأضاحي والقرابين.

لقد كان «الإنسان المعذب» أن صح هذا المصطلح، موضوعاً خصباً للكُتَّاب السومريين والبابليين، أبدعوا وبرعوا فيه كما برعوا في سائر الفنون الأخرى. ولا يخفى أن قضية الإنسان المعذّب ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمعتقدات الدينية، للعصر، وإنها ترتبط على وجه الخصوص بمسألة حساسة وفي غاية الأهمية إلا وهي مسألة العدالة الإلَهية. ولهذا وجب علينا قبل الدخول في تفاصيل موضوعنا الحالي وهو صبر أيوب في التوراة وجذوره القديمة عند السومريين والبابليين، إن نوضح الخلفية الدينية التي كان ينطلق منها الفرد قديماً في تفسير وفهم ما يحيط به من أحداث وتغيرات في حياته.

لقدَ كان الاعتقاد السائد عند الفرد في وادي الرافدين إن الآلَهة خلقت البشر ليقوم بخدمتها: يخصها بالعبادة، ويقدم لها القرابين ويبني

لها المعابد ولا شك في أن الفرد كان يطمح بالدرجة الأولى إلى أن تمنحه الآلهة مقابل تقواه وسلوكه الحسن، العون والحماية والسعادة في الحياة.

ولهذا كانت إطاعة الأوامر الإلّهية والقيام بالطقوس والشعائر والعبادات وتقديم القرابين إلى المعابد من الأمور التي تمسَّك بها العراقيون القدماء وأعاروها أهمية بالغة. ونظرة واحدة إلى الأبنية الدينية المتناثرة في المدن العراقية القديمة، وإلى ما تركوه من تراث ديني مدون (أناشيد وترانيم وصلوات، أساطير دينية وقوائم بأسماء الآلهة) تعطينا صورة عن مدى الحيز الكبير الذي احتله الجانب الديني في حياتهم وحضارتهم القديمة. ومن الجدير بالملاحظة أن العلاقة بين الفرد السومري البابلي وإلّهه لم تكن دائماً ذات طابع شكلي وإنما كانت تنطوي أحياناً على عواطف ومشاعر حميمه صادقة كما يتضح ذلك من التراتيل والصلوات.

هذا هو الإطار العام الذي كانت تقوم عليه العقيدة الدينية عند السومريين والبابليين فيما يخص العلاقة بين الفرد وإلّهه وما يتمخض عنها بالضرورة من ثواب وعقاب.

غير إن قاعدة (طاعة الإلّهة) تساوي (حياة سعيدة) لم تكن مضمونة بهذه الدرجة من السهولة. فقد كان للفرد السومري والبابلي مثل غيره من القدماء والمعاصرين، نصيبه من هموم الدهر وأحزانه: الفقر، المرض، وكوارث الطبيعة المختلفة.

هنا آثار بعض الناس من السومريين والبابليين سؤالاً كان لا بد منه: إن الآلهة هي التي خلقت هذا الكون، فكيف أمكن إذاً أن تحدث مثل هذه الأمور ويسود الشر على الخير في حياة بعض الأتقياء من الناس؟

وكان جواب الكهنوت على هذا السؤال وأمثاله أن الآلهة نفسها لم تخل من صفات شريرة عندما اتبعت طريق العنف والبطش والخداع في

خلال المراحل الأولى للخليقة. ولذلك فقد تصوروا أن هذا الكون تسيّره منذ البدء نواميس الهيئة سموها بالسومرية ME وهي لا تتمثل بعناصر الخير (كالصدق والعدل والسلام) ولكن بعناصر الشر أيضاً (كالزور والكذب والنفاق). وبتعبير آخر فأن عنصر الشر موجود في الآلهة وبالضرورة في البشر أيضاً إلى حد يقول عنه المثل السومري: لم تلد امرأة قط ابناً بريئاً!

ولكن إذا ما قبل الفرد في وادي الرافدين بمثل هذا التعليل فأنه بقي يسأل وبإلحاح سؤاله التقليدي التالي: لماذا لا يكون الشر إذاً من نصيب الأشرار والخير من نصيب الأخيار؟ وبتعبير آخر كيف يمكن أن يصيب البؤس والفقر والمرض شخصاً تقياً ورعاً في حين يرفل غيره من الأثمين والمعتدين بثياب السعادة وينعمون بالغنى والعيش الرغيد؟

ومهما تعددت صور الإجابة على مثل هذا السؤال من قبل رجال الدين السومريين والبابليين فأنها في الغالب ستتناول ثلاثة جوانب أساسية:

1) إن للآلهة تفكير بعيد ليس بمستطاع الإنسان أدراكه وسبر غوره، ولهذا فليس بمقدوره أدراك حكمتها في تعذيب تقي أو إسعاد أثيم.

2) أن المعتدين والآثمين وأن أفلحوا إلى حين، فأنهم لا بد وأن ينتهوا إلى نهاية مروعة.

3) أن التقوى هي الطريق إلى النجاح والسعادة وأن على الإنسان أن يتثبت بالإلهة دائماً وتحت مختلف الظروف التي تمر به، لأنها لا بد وأن تمد له يد العون آجلاً أم عاجلاً[1].

---

(1) حول هذه النقطة بالذات انظر:

Lambrt, Babylonian Wisdom Literature, (1960) P. 64.

Jacobsen, The Good life In before Philosophy (A Pelican Book 1956) PP. 218 - 223. =

وبتعبير آخر كان الاعتقاد السائد بين السومريين والبابليين يؤكد على أن الخير لا بد وأن ينصر على الشر في نهاية المطاف وأن على الرجل الصالح المبتلى في الحياة الدنيا أن يصبر ويصابر وإلاّ ييأس من عطف الآلهة ورحمتها.

أن هذا المفهوم العقائدي في وادي الرافدين له ما يوازيه وبشكل واضح في سفر أيوب[2]. والحقيقة أن لدينا أمثلة كافية، سومرية وبابلية، على هذا النوع من التآليف الدينية ـ الأدبية مما يسلط الأضواء على الجذور القديمة التي ربما استقى منها سفر أيوب مضمونه.

ومن جهة أخرى فأننا لا نشك إطلاقاً في أن هذا النوع من التآليف التي تدور حول «الإنسان المعذب» إنما يرجع إلى أصول سومرية قديمة. وخير دليل على ذلك القصيدة السومرية التي نشرها الأستاذ كريمر عام 1963[3]. وبصورة عامة يمكننا القول عن هذه القصيدة إنها تقع في أربعة أقسام رئيسية:

1) مقدمة عامة تتضمن نصائح دينية تؤكد على ضرورة عبادة الآلهة والتمسك بالفضيلة وربما احتوت أيضاً على اسم الشخص الذي تدور حوله القصيدة (النص مخروم في هذا الجزء).

2) تصف القصيدة على لسان الرجل المعذب كيف أن آلهته قد هجرته، وكيف أن أصحابه وأعزّ أصدقائه قد تنكروا له وإنه لم يعد يرىٰ

= وانظر كذلك الفصل الخاص بمفهوم ونظرة العراقيين القدماء إلى الحياة الصالحة:

(2) Kramer The Sumerians, (1963) P.P. 128 - 129. Sumerian literature and the Bible Analecta Biblica (1956) P. 197.

(3) حول سفر أيوب وعذاب الإنسان الصالح في الحياة الدنيا:
Stanly ey cook? An introduction to the Bible (A Pelican Book) 1956, PP. 135 ff 338 - 340.

في هذه الدنيا سوى ظلمة قاتمة.

3) ابتلاؤه بمختلف الأمراض وصبره المتواصل على ذلك.

4) انفراج الشدة والخلاص في نهاية المطاف بعد عودة الألّهة إلى جانبه.

أما عند البابليين فأحياناً تتخذ القصيدة التي تتناول مثل هذا الموضوع شكل حوار مطول (على غرار ما نجده في سفر أيوب) بين رجل معذب وصديق له حكيم، يحاول أن يواسيه ويُهَوّن عليه عذابه وآلامه وأن يخرجه من حالة اليأس والقنوط التي هو فيها إلى الإيمان برحمة الألّهة وقدرتها على تخليصه من عذابه.

إننا نشير هنا ضمناً إلى القصيدة البابلية المعروفة بين المختصين بالمسماريات بقصيدة «العدالة الإلّهية» التي تتألف من سبعة وعشرين دوراً، يحتوي كل دور منها على أحد عشر بيتاً. ومن المحتمل أن زمن تدوين هذه القصيدة يعود إلى نهاية العصر الكاشي، ربما إلى حدود 1000 ق. م[4].

يبدأ المعذب حواره مع صديقه الحكيم بالحديث عن همومه وآلامه وعما أصاب جسده من وهن وقواه من إنهيار، وكيف أن الدنيا أسودت في عينيه وإنه لا يرى أملاً في الخلاص. إنه ولد في هذه الدنيا ولم

---

(4) ومن الجدير بالذكر أن هذه القصيدة من النوع المعروف بالمصطلح الأدبي، أي القصيدة التي لو جمعنا أوائل حروف أبياتها لكونت أسماً أو جملة. وبالفعل فنحن لو جمعنا أوائل المقاطع الصوتية لأدوار Stanza القصيدة البالغة سبعة وعشرين دوراً لحصلنا على الجملة التالية: اناساكيل ـ كينم ـ ابيب، كاهن التعزيم، عابد الإلّه والملك.

I, Saggil - Kinam - ubbib, he incantaion priest an adorant of the god and the king.

والراجح أن هذا الكاهن كان مؤلف القصيدة التي نحن بصددها الآن.

يلبث أن مات أبواه فتركاه دون راعٍ أو معين. ومن سوء طالعه أن يكون هو آخر مولود في تلك العائلة فقاسىٰ من آلام الحرمان بسبب تفضيل أخيه البكر على غيره من الأبناء في الرعاية والامتيازات. ورغم ذلك فأنه منذ صباه كان يتعبد إلى الألّهة ويقدم لها القرابين، لكنها أدارت عنه ظهرها وجعلت أعزّ أصدقائه يتنكر له وسَلَّطت عليه أدنىٰ القوم مكانة ومنزلة. هنا يتساءل المعذب فيقول: لماذا أن الألّهة لا تحمي أولئك الذين لا يستطيعون حماية أنفسهم؟

ويجيبه صديقه الحكيم بالزجر على قنوطه مبيناً له أن موت أبويه لم يكن سوى مشاركة في المصير المحتوم للبشرية جمعاء ومؤكداً على أن العيش الرغيد هو دائماً حصيلة التقوىٰ «فالذي يخدم الألّهة يكون له ملاك يحرسه، والمتواضع الذي يخشى ربته تتجمع عنده ثروة طائلة» على حدّ تعبيره.

ويستمر الحوار سجالاً على هذا المنوال بين المعذّب وصديقه الحكيم. فالأول يطرح في كل مرة جانباً من المعاناة التي كان يعيشها على شكل صور ومشاهد ينتزعها مرة من المجتمع البشري حيث الظلم والنفاق الإجتماعي ومرة من عالم الحيوان حيث تسود شريعة الغاب. ويشعر القارىء من خلال التفاصيل التي يطرحها المعذب إنه كان دائماً يضرب على وتر واحد إلا وهو حقيقة وجدوىٰ العدالة الإلّهية.

ومن جهة أخرى تتجلىٰ فطنة وبراعة صديقه الرجل الحكيم، في الإتيان بالحجة ـ وأن بدت غير مقنعة للمعذب أحياناً ـ وفي «فلسفة» المظاهر السلبية التي طرحها صديقه قياساً علىٰ القيم الإجتماعية الفاضلة والتعاليم الدينية المتعارف عليها.

لقد كان بودنا أن نتتبع تفاصيل هذا الحوار دوراً بدور ولكن ضيق المجال يحول دون ذلك. ونكتفي بالقول أن كِلا المتحاورين خلصا إلى نتيجة متعادلة: اعتراف الرجل الحكيم بأن الكذب والنفاق والرياء صفات

جبل عليها الإنسان وانصياع المعذب إلى مقدرات الآلهة واعترافه بأن خلاصه مرهون بأرادتها ليس غير. ولمزيد من التوضيح نقتبس في أدناه الدورين الأخيرين (26 ـ 27) من قصيدة «العدالة الآلهية» عند البابليين.

الحكيم:

أن نارو (Narru)، ملك الآلهة الذي خلق بني البشر
وصاحب العظمة زولومار الذي استخرج طينهم.
والسيدة مامي Mami الملكة التي صورتهم،
جعلوا قول الباطل من نصيب البشر
لقد منحوهم وإلى الأبد الكذب دون الصدق
فهم يتحدثون بالأجلال لصالح الثرىٰ
فيقولون عنه: «أنه ملك وأن الثراء يسير معه (إلى كل مكان)
غير إنهم يؤذون الفقير وكأنه سارق
ويفترون عليه ويتآمرون على قتله
ويجعلونه يقاسي صنوف العذاب كما لو كان مجرماً
ويأتون به ليلاقي حتفه المرعب ثم يخمدون (أنفاسه)
كما تخمد النار

المعذب:

إنك لرجل رحيم يا صديقي
ساعدني: تفحص علتي وأعرفها
فأنني رغم كوني متواضعاً، عاقلاً ومتضرعاً.
لم أر مساعدة ولا عوناً لحظة واحدة
فأذا ما سرت في ساحة مدينتي كنت متواضعاً
صوتي واطىء، وكلماتي خافتة.
لا أرفع رأسي بل انظر إلى الأرض،

ولم يتسن لي التعبد بين أصحابي حتىٰ مثل العبد
فاليمدني الإلّه الذي خذلني بالعون
ولترني الألّهة التي هجرتني الرحمة(5).

غير أن أشهر القصائد البابلية وأكثرها أهمية بالنسبة لبحثنا الحاضر القصيدة المعروفة بـ «سوف أمدح رب الحكمة» (Ludlul bel Nemegi) نسبة إلى مطلعها.

إن هذه القصيدة التي ربما دونت بالأصل على أربعة رُقُم بحالة جيدة من الحفظ ونظم ما يقرب من 450 بيتاً ضاعت منها أجزاء قليلة بسبب تهشم النص. وقد دونت القصيدة، مثل سابقها «العدالة الإلّهية» في العصر الكاشي، وهي تدور حول رجل اسمه شبشي ـ مشري ـ شكان.

ويظهر واضحاً أن هذا الرجل، كان تقياً يخشىٰ الإلّهة ويؤدي الطقوس ويحسن إلى الناس، وإنه احتل مناصب عالية في الدولة كما كانت له ثروة طائلة تتمثل بالحقول الزراعية والمشاية والعبيد.

ولكن وعلى حين غرّة نجده وقد ساءت به الأحوال وتَنَكّر له الدهر وأصابه اليأس والقنوط. لقد تركته الألّهة وحيداً لا معين له واشتد عليه غضب وحنق سيده الملك، وراح الطامعون من رجال الحاشية يحيكون له شتىٰ أنواع المؤامرات للإطاحة به واحتلال مكانه. وأخيراً وليس آخر نجده وقد أقصي من كل المناصب وتنكّر له الأصدقاء وكرهه الأصحاب وصار أهله يعاملونه وكأنه غريب بينهم، وبلغت به الحال درجة المذلة على يد عبيده.

---

(5) Lambert, op. cit., P. 89 (lines 226 - 297).

لقد اعتمدنا النص الأكدي في آخر أشكاله المتكاملة الذي نشره الأستاذ لامبرت آخذين بنظر الاعتبار ترجمة الأستاذ لامبرت.

Pfeiffer A Dialogue About Human Miseryle Ancient Near Eatstrn Texts 3rd. ed. PP. 4433 - 440.

لقد تخلّىٰ عني إلّهي واختفىٰ
وخذلتني آلهتي وابتعدت عني
وافترق عني الملاك الصالح الذي (كان يسير) إلى جانبي
والروح حارستي لاذت بالفرار قاصدة غيري
ذهبت قوتي ووهنت رجولتي
راحت هيبتي وولّت منعمتي
فَأَلٌ مخيف يُحدِق بي من كل جانب[6] . . .

والملك جَسدُ الآلهة وشمسُ شعبه
اغتاظ قلبه عليّ ولم يسكن
ورجال الحاشية تآمروا ضدي
لقد اجتمعوا فيما بينهم وقالوا بهتاناً
فهذا أولهم يقول: «سأجعله يلفظ أنفاسه»
ويقول ثانيهم: «سأجعله يهجر مكانه».
وعلى هذا المنوال يقول ثالثهم: «سأستحوذ على منصبه»
ويقول رابعهم: «سأستولي على ممتلكاته. . . .»[7]
أنا الذي كنت أسير كالنبلاء، تعلمت كيف أنسل خفية
أنا ذو المقام الرفيع أصبحت عبداً.
أنا بين أقاربي الكثيرين صرت وحيداً.

(6ـ 7 ـ 8) Lambart, op. cit. pp 33 (L. 4[3] - 4a) 33 (L. 57 - 62.), 34 (L. 77 - 92) respectively.

حول قصيدة (سامدح رب الحكمة) انظر أيضاً ترجمة
Pfieffer, I Will praise the lord of wisdom IN Ancient Near Eastenn Texts (3rd. ed.) PP. 596 - 600.

فأذا ما سرت في الطريق توقر الأذان
وإذا ما دخلت القصر تطرف الأبصار
مدينتي تعبس فيّ كما لو كنت عدواً
أجل، أن بلادي قاسية ومعادية
لقد صار صديقي عدواً
وصار صاحبي حقيراً ماكراً
رفيقي يتهمني بشدة
وأصحابي يصقلون أسلحتهم على الدوام
صديقي الحميم جعل حياتي في خطر
وعبدي يشتمني علناً في المجلس
وعامة الناس تُشوّه سمعتي
وعائلتي تعاملني معاملة الغرباء[8]...

إن هذه الصورة عن شبشي ـ مشري ـ شكان لشبيهة حقاً بالصورة التي حفظتها لنا التوراة عن أيوب الذي كان هو الآخر «كاملاً ومستقيماً يتقي الله ويحيد عن الشر» والذي كان، مثل نظيره البابلي، ميسور الحال، إذ «كانت مواشيه سبعة آلاف من الغنم ومئة ألف جمل وخمس مئة فدان بقر وخمس مئة إتان»[9].

غير أن أيوب، هو الآخر، سرعان ما أصابه الشر على يد الشيطان، إذ فقد وبصورة مفاجئة كل ما بحوزته من مملتكات: أغنامه وجماله وأبقاره وحتىٰ أهله. «إن رسولاً جاء إلى أيوب وقال: البقر كانت تحرث والأتن ترعىٰ بجانبها فسقط عليها السبئيون وأخذوها وضربوا الغلمان بحد السيف ونجوت أنا وحدي لأخبرك. وبينما هو يتكلم إذ جاء آخر وقال بنوك وبناتك كانوا يأكلون ويشربون خمراً في بيت أخيهم الأكبر، وإذا

(9) أيوب 1: 1 ـ 4.

ريح شديدة جاءت من عبر القفر وصدمت زوايا البيت الأربع فسقط على الغلمان فماتوا ونجوت أنا وحدي. فقام أيوب ومزق جبته وجزّ شعر رأسه وخرّ على الأرض وسجد، وقال عرياناً خرجت من بطن أمي وعرياناً أعود إلى هناك. الرب أعطىٰ والرب أخذ فليكن اسم الرب مباركاً. في كل هذا لم يخطىء أيوب ولم ينسب لله جهالة»[10].

والمثل أيضاً فقد تنكر الأهل والأقارب والأصدقاء وحتىٰ العبيد لأيوب على غرار ما رأينا في حالة شبشي ـ مشري ـ شكان. نقتبس هنا بعضاً مما جاء على لسان أيوب في الإصحاح التاسع عشر:

قد أُبعِدَ عني أخوتي ومعارفي زاغو مني. أقاربي قد خذلوني والذين عرفوني نسوني نزلاء بيتي وأمائي يحسبونني أجنبياً. صرت في أعينهم غريباً. عبدي دعوت فلم يجب. بفمي تضرعت إليه[11]. . . .

ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد لا بالنسبة لشيشي ـ مشري ـ شكان ولا بالنسبة لأيوب.

ففي الرقيم الثاني (الأسطر 49 ـ 107) من القصيدة البابلية موضوعة البحث، يتحدث المعذّب البابلي، ضمن أشياء كثيرة، عن تعرضه إلى مزيد من العذاب والشقاء بسبب ابتلائه بشتىٰ أنواع الأمراض التي تجسدت بأرواح وأشباح شريرة جاءت تهاجمه من مواطنها في عالم الأموات وفي مياه العمق «أبسو»:

أما أنا الرجل المنهوك، فقد عصفت بي ريح عاتيه
فها هو «مرض الهزال» يَنْقَضّ عليّ
وها هي «الريح الشريرة» تلوح في الأفق
و«وجع الراس» يثب من سطح العالم السفلي
و«السعال الشرير» يترك (موطنه) في «مياه العمق»

---

(10) أيوب 1: 14 ـ 21.
(11) أيوب 19: 12 ـ 16.

و«الشبح العنيد» يترك (موطنه) في «ايكور»[12]

ثم يذكر بعد ذلك ما سببته له تلك الأشباح والأرواح من أمراض بدنية وعذاب ليس بمقدر أي إنسان أن يتصور قوته، فيقول:

لقد جعلت الحمىٰ تدب في أطرافي وجعلت بدني يرتجف

وحطمت قوامي الطويل مثلما يتحطم الجدار

وحنت جسدي مثلما تحني حزمة القصب

أُلقِيتُ أرضاً على وجهي مثلما تلقى القصبة وكأني عشب من مستنقع

وتَلَّبس الشيطان آلو بجسدي كأنه رداء

والنوم يُخيّم عليّ كأنه شبكة

عيناني تنظران ولا تبصران

أذناي مفتوحتان ولا تسمعان

لقد استحوذ الوهن على جسمي

ونزلت الرجفة في لحمي

وأمسك التسلل يدي

وحلّ العجز في ركبتي

حتىٰ نسيت قدماي الحركة[13].

ثم يقول

شرك يوضع علىٰ فمي

مزلاج يغلق شفتي

سُد «بابي» وقُطع «موردي»

طال جوعي وإنكتم صوتي

خبزي نتن الرائحة

Lmanbert op. cit., PP. 41 (L. 49 - 54). 43 (6 - 9) 45 (84 - 110), (13 _ 12) repectively.

وجِعَتي، حياة الإنسان، كريهة المذاق
أجل: لقد طالت بلواي
وتغيّر وجهي لقلة الطعام
وترهل لحمي وانحسر دمي
تفككت عظامي وهي لا يكسوها سوى الجلد
التهبت أنسجتي وأصابها المرض
إنني ألازم سرير العبودية، فالخروج عذاب:
لقد صار بيتي سجني:
شلل يدي يغلّ بدني
عرج قدمي يقيدني
أحزاني مؤلمة وجرحي بليغ
سوط يطرحني أرضاً، والضربة شديدة
رمح يطعنني، مهماز صارم
ومعذبي يريني صنوف العذاب طول النهار
فهل لا يتركني لحظة استريح
تفكك عصبي من كثرة الإلتواء
أمتدت أطرافي وتبعثرت
أَبيتُ في مِربَضي مثلما يبيت الثعلب
وأتَمَرّغ في برازي مثلما تتمرّغ الشاة
آلامي عرت كاهن التعزيم
وفألي أذهل العرّاف
فلا طارد الأرواح قادر على تشخيص مرضي
ولا العراف يحدد وقتاً لانتهاء سقمي
لا إلهي يقدم العون فيأخذ بيدي
ولا آلهتي ترحمني بالسير إلى جانبي

قبري بالانتظار ولوازم الدفن جاهزة
لقد انتهت المناحة عليّ حتىٰ قبل أن أموت[14].

هذه مقاطع قليلة من كثير جَسَّدَ فيها الرجل البابلي شبشي ـ مشري ـ سكان صوراً لعذابه الروحي والجسدي. وهي من دون شك صور منتزعة من واقع رجل مبتلىٰ، أضناه الدهر بصروفه وفعل به المرض ما فعل، ولكن وعلى الرغم من تلك المعاناة فأنه بقي مؤمناً بعدالة القدر وبأن اليوم المنشود سيأتي فتنزل عليه رحمة الإلّه شمش على حد قوله.

أما العذاب الذي لاقاه أيوب بعد أن فقد كل ما لديه من متاع الدنيا، فقد حفظت لنا عنه التوراة صورة هي الأخرىٰ مؤلمة:

«وخرج الشيطان من حضرة الرب وضرب أيوب بقرح رديء من باطن قدميه إلى هامته فأخذ لنفسه شقفة ليحتك بها وهو جالس في وسط الرماد. فقالت له امرأته أنت متمسك بكمالك. بارك الله ومت. فقال لها تتكلمين كلاماً كإحدى الجاهلات. الخير نقبل من عند الله والشر لا نقبل. في كل هذا لم يخطىء أيوب بشفتيه. فلما سمع أصحاب أيوب الثلاثة بكل الشر الذي أتىٰ عليه جاءوا كل واحد من مكانه. اليفاز التيماني وبلد الشوحي وصوفر النعماني وتواعدوا أن يأتوا لَيَرْثُوا له ويُعزّوه ورفعوا أعينهم من بعيد ولم يعرفوه فرفعوا أصواتهم وبكوا ومزق كل واحد جبته وذروّا تراباً فوق رؤوسهم نحو السماء وقعدوا معه على الأرض سبعة أيام وسبع ليالي ولم يكلمه أحد بكلمة لأنهم رأوا أن كآبته عظيمة جداً»[15].

أن سفر أيوب المكوّن من 42 إصحاحاً مليء في كل مكان منه بالأسىٰ والمرارة والشكوى على لسان أيوب المعذّب بسبب هذا المرض الذي ابتلي به. ومهما اختلفت تعابيره أو تشابهت مع تعذير نظيره البابلي

Lmanbert op. cit., PP. 41 (L. 49 - 54). 43 (6 - 9) 45 (84 - 110), (15 _ 14) repectively.

فأنها في جوهرها عبارة عن شكوى رجل مبتلىٰ بداء عضال لا يعرف سببه ولا يعرف لم ابتلاه به الرب.

علىٰ هذا النحو سارت الأمور من سيىء إلى أسوأ بالنسبة للرجلين المعذبين. ومع ذلك كله فقد كان الصبر في مرحلة العذاب الطويلة والإيمان المطلق بالعدالة الإلّهية صفتان بارزتان في كل من القصيدة البابلية «سوف أمدح رب الحكمة» وفي سفر أيوب.

وكالعادة فأن اشتداد الأزمة كان نذيراً بالفرج. إذ بدأ في الأفق المدلهم بصيص خافت من نور كان إيذاناً ببداية النهاية. إذ يحدثنا المعذّب البابلي إنه بدأ يرى سلسلة من الأحلام. وكان أولها إنه رأى رجلاً عملاقاً يرتدي ملابس جديدة ولا نعرف ما نقله هذا الرجل إلى المعذب لأن الرقيم مخروم في هذا الموضع. وظهر له في الحلم الثاني شاب قام بدور كاهن التعزيم فأجرى بعض الطقوس على الرجل المعذب. ورأى في الحلم الثالث إلّهة شابة وهي تواسيه بمصيبته كما رأى رجلاً ملتحياً يحمل بيده رقيماً كتبت عليه تعويذة. وقد قال هذا الرجل إلى المعذب بأنه رسول من الإلّه مردوخ وأنه يحمل البشرى إليه بالخلاص. وفي أدناه نقتبس بعض القاطع مما قال الرجل المعذب عن تحريره على يد مردوخ من قيود العذاب.

وبعدما صفا ذهن سيدي
وسكن قلب مردوخ الرحيم...
وبعد أن قال: «الخلاص لك يا من أنت في الكرب العظيم»
فأنه جعل الريح تحمل أذاي...
فطرد «الروح الشريرة إلى الأفق»
وأخذ «وجع الرأس» إلى سطح العالم السفلي
وطرد «السعال الشرير» إلى مياه العمق «أبسو»...
وعيناي المعتمتان اللتان غطاهما كفن الموت

أبعد عنهما الكفن ألف فرسخ وأنار بصري
أذناي المغلقتان المسدودتان مثل رجل أطرش
أخرج منهما الشمع وأفتح مسمعي...
أنفي الذي اختنق تَنفسّه بفعل الحمىٰ
سكن ألمه فعدت أتنفس براحة...
وشفتاي اللتان تهذيان...
طرد عنهما الرعب وفك قيودها
فمي الذي أنسد حتىٰ صعب عليّ النطق
صقل مثل النحاس (وأزاح) وسخه
أسناني التي تماسكت وشدت بعضها إلى بعض
فك ارتباطها وشبت جذورها
لساني المعقود الذي لا يقوىٰ على النطق
حل (عقدته) فسهل عليّ الكلام
حنجرتي التي كانت ضيقة ومختنقة
أرجعها إلىٰ وضعها وجعلها تغني كالمزمار...
وأمعائي الغليظة التي كانت فارغة من الطعام
والتي التوت مثلما يلوى قصب السلال
جعلها تتقبل الطعام وتأخذ الشراب[16]

ويستمر شبشي - مشري - شيكان في ذكر تفاصيل خلاصه من العذاب واستعادة أعضاء جسمه للحياة مجدداً. وتنتهي قصديته، بذهابه إلى مدينة بابل قاصداً معبد أباك إيلا المخصص لإله المدينة العظيم مردوخ متنقلاً بين بواباته العديدة. هنا يقدم شبشي - مشري - شكان الصلوات إلى الإله البابلي كما قدم له وبكرم وسخاء الذبائح: ثيراناً

(16) Lambert, op. cit. p 51 - 52 (L. 50 - tif).

وخرافاً مسمنّة، والهدايا: عسلاً وخمراً وجعة: . . .

دخَلتُ معبد اباك آيلا راكعاً وداعياً

أنا من نزل إلى القبر قد عاد إلى «بوابة شروق الشمس»

هنا في «بوابة الرخاء» أنعم عليّ بالرخاء

في «بوابة السلام» وجدت السلام

في «بوابة الحياة» أعطيت الحياة

في «بوابة شروق الشمس» حسبت ضمن الأحياء

في «بوابة غفران الذنوب» حررت من قيدي

في «بوابة العبادة» راح فمي يسأل (الرحمة)

في «بوابة تصريف الحسرات» صرفت حسراتي

في «بوابة الماء المقدس» نثر عليّ الماء المقدس

في «بوابة السلام» رأيت نفسي مع الإلَه مردوخ

في «بوابة الخصب» قبلت قدمي صربانيتم

لقد ثابرت على الدعاء والصلاة أمامهما

وضعت البخور المعطر أمامهما

قدمت القرابين والهدايا والعطايا

نحرت ثيراناً وشياه مسمنة

وسكبت باستمرار جعة حلوة كالشهد وخمراً نقياً. . . .

وقد انتهى صبر أيوب هو الآخر بالفرج عندما كلمه «الرب من العاصفة» مبيّنا له حكمته التي لا تدركها العقول والأبصار في كل ما خلق ودبر وقدّر. فالإنسان مهما أوتي من عقل وإدراك فأنه لا يستطيع معرفة أسرار الكون وخفايا الحياة والطبيعة ولا معرفة ما يخفيه له الخالق من مقدرات. ولقد انتهت قصة عذاب وصبر أيوب بأن ردّ إليه الرب كل ما كان له ضِعفاً وأعاد إليه أخوته وأهله ومعارفه، وتذكر التوراة إنه عاش بعد ذلك مئة وأربعين سنة ورأى بنيه وبني بنيه إلى أربعة أجيال.

من كل ما تقدم نخلص إلى جملة من الاستنتاجات نوجزها كالآتي:

1) كانت «العدالة الإلّهية» مسألة أعارها السومريون والبابليون أهمية واضحة في حياتهم اليومية وناقشوها وأبدوا فيها وجهات نظر وتفسيرات تبدو مختلفة بعض الشيء أحياناً، كما ظهر ذلك جلياً من حوار الرجل المعذب مع صديقة الرجل الحكيم. ولكن يبدو أن هناك اتجاهاً واضحاً في حضارة وادي الرافدين نحو الإقرار بالعدالة الإلّهية وإن على الإنسان أن يصبر ويصابر إذا ما أصابه الشر لأن الإلّهة ستنقذه في نهاية الأمر لا محالة.

2) هناك نقاط تشابه عديدة وأساسية بين قصة الرجل المعذب البابلي شبشي ـ شري ـ شكان وقصة أيوب نلخصها كالآتي:

أ ـ تمثل كل من القصتين في بدايتهما رجلاً تقياً ورعاً له ثروة كبيرة ومكانة مرموقة، ولكن وعلى حين غرة تتوالى عليه الكوارث وتنتابه المحن فتتحطم كل آماله وتضيع كل ثرواته.

ب ـ أن كلا من الرجلين يبتلىٰ بداء عضال مباشرة بعد النكسة الأولى التي ضاعت بسببها الممتلكات والمكانة الإجتماعية المرموقة. وبتعبير آخر أن الأمور كانت قد سارت من سيء إلى أسوأ بالنسبة للرجلين المعذبين على حد سواء.

حـ ـ لقد كان الصبر في خلال مرحلة العذاب الطويلة والإيمان المطلق بالعدالة الإلّهية صفتان بارزتان في سلوك الرجل البابلي وأيوب.

ء ـ يتضح جلياً من قصيدة «سأمدح رب الحكمة» أن عذاب البابلي شبشي ـ مشري ـ شكان لم يكن سببه بالأصل الملك أو الحاشية أو عامة الناس وإنما كان يكمن وراء ذلك كبير الإلّهة البابلية مردوخ عندما أدار ظهره مع الآلّهة الأخرى عن هذا الرجل وسلط عليه الأرواح والأمراض الشريرة وأسلمه إلى الأشرار من الناس. والشيء نفسه حدث بالنسبة إلى أيوب عندما أسلمه الرب إلى الشيطان ليتأكد الأخير بنفسه من عمق إيمان هذا الرجل الذي لا يتزعزع.

نظرة مقارنة
بين أساطير الخلق العراقية
وأسطورة الخلق التوراتية

يسود الاعتقاد عامة أن التأمل الفلسفي بدأ على كل حال عند اليونان. وأن شعوب العصور القديمة لم تجهد فكرها بالسؤال: كيف ولماذا خلقت الأشياء وتكونت؟ ولكن لماذا يجب أن تكون عندهم تأملات فلسفية؟ قد يصعب إدراك ذلك ولا سيما بالنسبة إلىٰ المرحلة الرفيعة التي بلغتها الحضارة في كل من بلاد الرافدين ومصر علىٰ حد سواء. ولكن لم يعتقد البابليون بأن الفلسفة شيء تافه لا فائدة فيه لإنهم دونوا في كتاباتهم كل ما كان لديهم من نظريات وأفكار[1].

يختلف المحدثون من دارسي الأساطير اختلافاً جذرياً في نظراتهم لطبيعة الأساطير القديمة وميدانها ومدلولها. فهناك الذين ينظرون إليها كأنها روايات خرافية وهمية ذات منزلة فكرية وروحية ضئيلة ـ أي إنها نتاج صبياني لخيال مهوش ووهم نزف.

ويناقضهم علىٰ طول الخط أولئك العلماء الذين يؤمنون بأن أساطير العالم القديم إنما تمثل واحدة من أعمق منجزات الروح الإنسانية وهو

(1) كييرا، ادوارد: كتبوا علىٰ الطين، ترجمة محمود حسين الأمين، ط 2، مؤسسة فرانكلين بغداد، (1964)، ص 151.

الخلق الملهم لعقول شاعرية خيالية موهوبة، سليمة لم يفسدها تيار الفحص العلمي ولا العقلية التحليلية، ولذلك كانت مفتوحة وعرضة لتأملات كونية عميقة، احتجبت عن الإنسان المفكر الحديث بحكم حدوده المقيدة ومنطقه الجامد الذي لا روح فيه[2].

أما السيد (جوم) فيقول عن الأسطورة بإنها (علوم عصر ما قبل العلوم)[3]. علىٰ أن هناك مدارس بأسرها من المشتغلين بالأساطير ممن يجادلون بأن الأسطورة القديمة إنما ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمناسك والسفائر وهناك من مؤرخي الديانات من يزعم أن الأساطير القديمة إنما كانت أسٓساً عليه من حيث الطابع ـ أي روايات خرافية تطورت من أجل تفسير طبيعة الكون ومصير الإنسان، وأصول العادات والعقائد والأعمال الجارية في أيامهم وكذلك أسماء الأماكن المقدسة والأفراد البارزين.

وهناك من علماء النفس من يرىٰ في الأساطير القديمة ذخائر من دوافع ذات طابع أولي بدائي، تكشف وتثير العقل الباطن الجماعي للإنسان. ومن ناحية أخرىٰ فهناك من النحاة وفقهاء اللغة من اقتنع بأن الأسطورة (مرض في اللغة) وإنها نتاج لمحاولات الإنسان العقيمة السخيفة الضالة للتعبير عما لا يمكن التعبير عنه، ووضع ما لا يمكن التعبير عنه في ألفاظ[3].

علىٰ أن تايلور قد أنكر وجود ما يسمىٰ بالعقلية البدائية، برغم اعترافه بوجود حضارة بدائية. واعتقد تايلور أن لا وجود لاختلاف أساسي بين عقلية البدائي وعقلية المتحضر[4].

جاءنا عن موضوع الخليقة وأصل الوجود والأشياء وخلق الإنسان

---

(2) كريمر (صموئيل نوح): أساطير العالم القديم، ترجمة د. أحمد عبد الحميد يوسف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر (1974)، ص 7.

(3) سليمان مظهر: أساطير من الشرق، ط 1، مطبعة الشعب، (1958)، ص 3.

(4) صموئيل نوح كريمر: المصدر السابق، ص 7، 8.

نصوص أدبية متنوعة بعضها باللغة السومرية وبعضها باللغة الأكدية ومن أدوار مختلفة في حضارة وادي الرافدين، ولا سيما في مطلع الألف الثاني ق. م، من العهد الذي أطلق عليه اسم العصر البابلي القديم والذي يتميز بما ظهر فيه من نشاط أدبي واسع في حقل التدوين والتأليف والترجمة من السومرية إلىٰ البابلية وكان موضوع الخليقة وأصل الأشياء علىٰ رأس القضايا التي شغلت تفكير القوم فعالجوها بالأسلوب الأسطوري الشعري، ونشأ عن ذلك آراء وعقائد متعددة ومختلفة فقد أجمع الباحثون علىٰ وجود أوجه شبه أساسية واقتباسات كثيرة منها في عقائد الأمم الأخرىٰ ولا سيما العبرانيين كما جاء في التوراة، وهناك مواطن شبه لا يشك فيها في أساطير اليونان المختلفة بأصل الأشياء[5].

مقدمة في التفكير الأسطوري عند العراقين القدامىٰ

لقد عاش الإنسان أول أمره حياة بدائية محاطة بمئات الأخطار والأسرار وحملته مدهشات الكون وأعاجيبه التي لم يستطع إدراكها إدراكاً علمياً، علىٰ أن يتوهم لها تفسيراً، ويتخيل أصولاً ووقائع يرتاح إليها وتزيل حيرة نفسه. وكان أول ما ملأ رأسه من تلك الخوارق التي تحيط به، إيمانه بوجود قوىٰ مسيطرة عاقلة ذات قدرة اسمىٰ من قدرة كل العناصر والكائنات وبدأ الإنسان يتأمل تلك القوىٰ، ويجسم كل شيء خارق فيها يحسه ولا يستطيع الوصول إليه فيجعله إلّهاً، يعمل علىٰ استرضائه بتقديم الضحايا والقرابين. . . فالنار والرياح والشمس والقمر والنجوم والمياه والبرق والرعد، كلها إلّهة طفق الإنسان ينسج حولها القصص، ويتناقلها خلفاً عن سلف، جيلاً بعد جيل.

ولكن الإنسان أخذ يعجب بعد ذلك لكل تلك القوىٰ. . . كيف

(5) ارنست كاسيرر: الدولة والأسطورة، ترجمة أحمد حمدي محمود، مطابع الهيئة المصرية، القاهرة (1975)، 18.

جاءت هي الأخرىٰ لا بد أن هناك شيئاً خالقاً، شيئاً أقوىٰ من كل شيء استطاع أن يصنع وحده كل تلك الأشياء. ومن هنا كانت أقدم الأساطير التي وضعها الإنسان هي أساطير الخلق نسجها حافلة بما تصوره لهذا الخالق، وكيف أقام السماء والأرض وكيف جاءت الكائنات علىٰ اختلاف صورها وأشكالها لتعمر الكون[6].

هكذا نستطيع أن نقول كما قال الدكتور لانج (لقد كان الناس في العصور القديمة يقولون قصصهم تبعاً لنظرتهم الخاصة للأشياء وأسلوبهم في تفسير الأمور وهذا وضع طبيعي لأنهم لم يكونوا يفكرون علىٰ أساس المبادىء التي يضعها الباحثون في العصر الحديث أمامهم عند تفسيرهم لهذه الأمور).

ويقول الدكتور مويللر (أن الإنسان البدائي لم يكن يفكر كما نفكر نحن بل ولم يكن يفكر بالطريقة التي نتصور نحن الآن إنه كان يفكر بها أيضاً)[7] فحسب معتقد البابليين لم يكن الكون في البدء سوىٰ الماء المكون من عنصرين الهيين أولهما مذكر ويتمثل بالمياه العذبة (أبسو) وثانيهما مؤنث ويتمثل في المياه المالحة (تيامة) وإنه نتيجة لامتزاج هذه المياه مع بعضهما ولد الإلٓهات (لخمو) و(لخامو) ومن بعدهما (آنشار) و(كيشار) اللذان ولدا الإلٓه (آنو) الذي صار إلٓهاً للسماء فيما بعد.

وسرعان ما تكاثر عدد الأحفاد وأصبح صخبهم يَقُضُّ مضجع جدهم الأعلىٰ (ابسو) مما دفعه إلىٰ التفكير في وضع خطة للقضاء عليهم علىٰ الرغم من تحذير زوجته (تيامة) له من مغبّة عمله لكن الإلٓهة الفتية اكتشفت المؤامرة المدبرة ضدها، وانتقمت لنفسها بقتل (ابسو) ولما سمعت (تيامة) بذلك ثارت ثائرتها وعقدت العزم علىٰ الانتقام من الإلٓهة

---

(6) باقر، طه: مقدمة في أدب العراق القديم، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1976، ص 71، 73.

(7) مظهر، سليمان، المصدر السابق، ص 3 ـ 4.

الفتية، وقد وقف عدد من الإلّهة الموالين (لأبسو) إلىٰ جانب زوجته وكونوا بذلك جماعة منشقة عن بقية الإلّهة وراحوا يَعدّون العدة لشن حرب ضد الإلّهة الفتية، هنا تنتقل الأسطورة إلىٰ بداية المجابهة ثم الصراع بين قوىٰ الشر المتمثلة بالآلّهة القديمة وعلىٰ رأسها (تيامة) وبين قوىٰ الخير التي تمثلها الآلّهة الفتية بزعامة (مردوخ)[8]. ولكن كبار الآلّهة تراجعوا عندما رأوا الأسلحة المرعبة التي أعدتها (تيامة) لهم. وأخيراً بعد الأخذ والرد وقع الاختيار علىٰ مردوخ (ابن إله الحكمة آيا) ليكون القائد والبطل المنقذ للآلّهة الفتية ثم يلتقي الجيشان ولم يلبث الإثنان أن اشتبكا في نزال فردي أول الأمر بعد ذلك أطلق مردوخ في وجه تيامة كل الرياح الشريرة فاستقرت في جوفها وشلت حركتها، عندئذ باغتها مردوخ بسهم قاتل ثم شطر جسمها إلىٰ شطرين اثنين خلق منهما السماء والأرض[9].

وخلاصة القول أن البابلين اعتبروا المياه أصل الوجود وأن السماء والأرض تكونتا نتيجة لعملية إنشطار جسم تيامة إلىٰ شطرين علىٰ يد الإلّه مردوخ[10].

إن هذه الأسطورة تصور لنا أيضاً بالأسلوب الأسطوري الأحوال السياسية والإجتماعية في العراق القديم في أولىٰ مراحل تكوينه الحضاري، إذ تصور الأسطورة الكون علىٰ هيئة دولة يحكمها الإلّهة حكماً شورياً كانت القرارات فيه تتخذ في مجالس شورىٰ بطريق الاقتراع وثمة أمر أخر مهم نستنتجه من الأسطورة، ذلك هو العنف والصراع اللذان رافقا عملية الخلق والتكوين، وما هذا إلا صورة عن العنف الذي تتميز به البيئة الطبيعية التي ظهرت فيها حضارة وادي الرافدين[11].

---

(8) مظهر، سليمان: أساطير من الغرب، مطبعة الشعب، (1959)، ص 6.

(9) علي، فاضل عبد الواحد: مقدمة في معتقدات سكان وادي الرافدين، مجلة آفاق عربية العدد 2 السنة الثانية، 1985، بغداد، ص 23.

(10) مقالة: عشتار ومأساة تموز، دار الحرية، بغداد، 1973، ص 133.

(11) تمثل أسطورة (ايلومايليش) أبرز التآليف الدينية والأدبية والتي دونت علىٰ =

كان البابليون يرون أن آلهتهم ليست معصومة من الخطأ وكانوا يعتقدون إنها عظيمة تتصف بالقوة والحكمة، ولكنها كانت تخطىء. وقد انفقوا جانباً كبيراً من الوقت لمعرفة مكانة الإنسان من الكون وعرفوا أن الفارق الوحيد الذي يتميز به الإنسان عن الحيوان هو الذكاء وإن آلهتهم كانت ذكية أيضاً، ولكنها كانت تملك شيئاً آخر لا يملكه الإنسان إنها تملك الحياة الخالدة، وقد اعتقد البابليون بأن شيئاً ما من الإلٓهة قد استعمل في خلق أول إنسان من مزيج مكون من دم إلٓهي وطين أدمي وقد كانت هذه النظرية أحد التفسيرات لخلق الإنسان[12].

أما الأساطير السومرية فأن إتصالها ضعيف بالشعائر والطقوس، إن جميع الأساطير الموجودة تقريباً أساطير أدبية ذات طابع استفساري ونجوم بصورة رئيسة حول خلق الكون وتنظيمه وحول ولادة الإلٓهة وعشقها وكرهها وأحقادها ومؤامراتها وبركاتها ولعناتها، وأعمالها في الخلق والتدمير، ولا يوجد فيها إلا القليل من الصراع بين الإلٓهة من أجل السلطة[13].

أن أهم العناصر والأجزاء التي كانت تؤلف الكون، في رأي المعلمين والحكماء السومريين، هي (السماء) و(الأرض) بحيث صار المصطلح الذي أطلقوه على الكون هو (أن ـ كي) أي السماء والأرض. ورأوا الأرض وهي على هيئة قرص منبسط وأن السماء فراغ مغطى من الأعلى ومن الأسفل بسطح صلب على هيئة عقد، ولكن لا يعرف بوجه التأكيد مادة ذلك الجسم السماوي الصلد. وميزوا عنصراً بين السماء والأرض دعوه (ليل) وهي كلمة أقرب معانيها (الهواء) أعتقدوا في

= سبعة رقم طينية وكانت تمثل في اليوم الرابع من احتفالات رأس السنة.

(12) فاضل عبد الواحد: مقدمة في معتقدات سكان وادي الرافدين، المصدر السابق، ص 133.

(13) باقر، طه: المصدر السابق، ص 83.

الشمس والقمر والكواكب والنجوم إنها مكونة من نفس مادة (الجو) ولكنها تتميز علاوة علىٰ ذلك بصفة الأشواق والإضاءة.

من هذه الآراء والافتراضات الأساسية المتعلقة بتركيب الكون وتأليفه والتي كانت تبدو للمفكرين السومريين حقائق واضحة لا نزاع ولا شك فيها، كونوا آراء مطابقة في أصل الوجود والأشياء، فأولا استنتجوا وجود ما يمكن تسميته (بالبحر الأول) وفي هذا البحر الأول تَوَلّد الكون بوجه ما أي (السماء والأرض) المكوّن من قبة السماء الموضوعة فوق الأرض المنبسطة والمتصلة بها.

فمن خلق هذا الكون وجعله يجري علىٰ مر الأيام والسنين وعلىٰ مر العصور والدهور؟ والجواب علىٰ ذلك أن أهل اللاهوت السومريين افترضوا افتراضاً مسلماً بحقيقة وهو وجود مجموعة من الإلّهة قوامها كائنات حية شبيهة في هيأتها بالإنسان ولكنها فوق الإنسان وخالده. وهي وإن كانت لا يمكن رؤيتها بحيث الإنسان الفاني، بسير الوجود وسيطر عليه بموجب خطط مضبوطة ونواميس معينة مقررة. فكان أحد تلك الكائنات مسؤولاً عن كل جزء هام من هذا الكون مثل السماء والأرض والبحر والهواء... إلخ ولما كانوا لم يروا أياً من هذه الكائنات الشبيهة بالإنسان بأعينهم، فأنهم اشتقوا صورتهم الأولىٰ التي تصوروا بها تلك الكائنات من المجتمع البشري كما عرفوه، فاستدلوا من المعلوم علىٰ المجهول.

أما عن أساليب الخلق التي اتبعتها تلك الإلّهة الخالقة فقد وضع الفلاسفة السومريون مبدأ صار عقيدة سائدة في جميع الشرق الأدنىٰ وهو مبدأ القوة الخالقة للكلمة الإلّهية. فبموجب هذا المبدأ كان كل ما ينبَغي للإلّه الخالق أن يفعله هو أن يصمم الخطط ويقول (الكلمة) وينطق بالاسم (اسم الشيء المراد خلقه)[14].

---

(14) كيرا، ادوارد: المصدر السابق، ص 154.

ليس من الإمكان القول بأن فلسفة الكون عندهم هي ضرب من الآراء البدائية. مهما بلغ قدمها، ذلك لإنها تمثل مدارك الفكر السومري ونضوج آرائه وتأملاته قوى الطبيعة وفي خصائص وجوده في هذا الكون.

عند تحليل هذه الآراء وإزالة المسحة اللاهوتية عنها يتضح لنا أن تصورات الخليقة لديهم تدل على ذهنية تمتاز بدقة الملاحظة والقابلية على الاستقراء والاستنتاج من المقدمات الملاحظة المحسوسة[15].

وإنهم كانوا ينظرون إلى علل الأشياء والحوادث من وجهة نظر من (يحدثها) وليس (كيف تحدث) أو (لماذا تحدث)؟ فمثلاً إذا ارتفعت مياه دجلة كان السبب في ذلك أن النهر أبى أن يرتفع لغضبه أو لغضب الإلّهة التي تحكمه على البشر[16].

إن ملخص ما نستنتجه عن المعتقدات والتصورات التي كونها السومريون لأنفسهم عن الخلق وأصل الأشياء ما يلي:

1 ـ في البدء كان (البحر الأول) وكانت أزلية في تصورهم.

2 ـ من مياه البحر هذه (ولد) جبل كوني يمثل السماء والأرض متحدين.

3 ـ نتيجة لاتحاد السماء والأرض ولد إلّه الهواء انليل.

4 ـ أن الإلّه انليل فصل السماء عن الأرض.

5 ـ بعد ذلك خلقت الكواكب والنجوم وظهرت معالم الحياة على الأرض[17].

---

(15) كريمر، صموئيل نوح: السومريون تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم، ترجمة فيصل الوائلي دار غريب للطباعة، الكويت، 1973، ص 192.

(16) كريمر، صموئيل نوح: من ألواح سومر، ترجمة طه باقر، مؤسسة الخانجي، القاهرة بلا تاريخ، ص 152، 153، 154، 155.

(17) صموئيل كريمر: أساطير سومرية، ترجمة يوسف داود عبد القادر، مطبعة المعارف، بغداد، 1971، ص 118، 119.

أما الغالب علىٰ تصور العراقين القدماء لأرواح الموتىٰ إنها علىٰ هيئة الطيور كما يظهر ذلك في أسطورة (زو طير الصاعقة) ويشاركهم هذا التصور بعض الأقوام القديمة مثل المصريين القدماء الذين صوروا أرواح الموتىٰ علىٰ هيئة فراشة[18].

إن الأمر الذي يثير التساؤل في أساطير خلق الإنسان في العراق القديم هو القصد من جعل دماء الإلَٰهة المذبوحة تدخل في عملية ذلك الخلق، وبخصوص هذا يرجح أن يكون القصد من جعل دماء الإلَٰهة تدخل في خلق البشر هو إضفاء مسحة من القدسية علىٰ الإنسان ليكون أهلاً لخدمة الإلَٰهة دون أن تيسر له تلك القدسية وهي نيل الخلود مثل الإلَٰهة.

والغرض الثاني من دخول دم الإلَٰهة في الإنسان ذلك هو الحياة نفسها ممثلة بالدم وأن هذه الحياة تحت سيطرة الإلَٰهة تتحكم فيها إذ ليست إلا نعمة وقتية للبشر[19].

أوجه التشابه والاختلاف في أساطير الخلق العراقية القديمة

إن أقدم الأساطير التي وضعها الإنسان هي أساطير تكوين العالم والطوفان وتخيل فيها كيف برأت السماوات والأرضين وما فيها من مخلوقات علىٰ اختلاف صورها وأشكالها وأحوالها فأتت أساطيره متفقة في مبدأها وأن اختلفت في تفاصيلها وما فيها من أسماء وصفات[20].

نرىٰ في إحدىٰ القصص المستعملة للتلاوة والمتصلة بإحدىٰ شعائر

---

(18) باقر، طه، المصدر السابق، ص 42.

(19) علي، فاضل عبد الواحد: مقدمة في معتقدات سكان وادي الرافدين، المصدر السابق، ص 26.

(20) باقر، طه: ملحمة كلكامش، القسم الأول، دار الحرية، بغداد، 1975، ص 104.

ترميم المعبد أن الإلّه آنو (إلّه السماء السومري آن) هو الذي خلق السموات علىٰ أن آيا (انكي السومري) خلق الأرض من اليابسة وكل شيء فوقها. إذ (قبض الصلصال) من متاهة البحري الأبسو وخلق إلّه اللين كولا. وخلق مستنقعات القصب والغابات والجبال والبحار مع الإلّهة الموكلة بالصناعات، مثل التجارة وسباكة المعادن والحفر والنحت.

وهناك أسطورة خَلْق مهشمة كانت تستعمل كرقية تتلىٰ عند الولادة وعن هذه الرواية إن الإلّهة تتحول إلىٰ ما هي المعروفة باسم ارورو الإلٰهة الأم المعروفة كذلك بأسمائها السومرية ننتو ونينهور ساج وننماج طالبين خلق الإنسان (ليحمل نير) الإلّهة وتسأل مامي انكي المشهورة فينصح بأن تخلق مامي الإنسان مخلوقاً بخلط الصلصال بالدم واللحم من إلّه تقتله الإلّهة[21].

وهناك تشابه كبير بين الأسطورة السومرية التي تصف ولادة إلّه القمر (ننا) و(سن) وبين أسطورة (عشتار وتموز) البابلية إذ تضمنت الأولىٰ الإشارة إلىٰ أن (انليل) أعظم الإلّهة في مجموعة الإلّهة السومرية والذي كان معبده في نفر كان قد افتتن بالإلّهة (ننليل) فاختطفها حينما كانت تبحر في جدول (نونبيدو)[22] وبسبب هذا العمل الذي ينطوي علىٰ الجور والقسوة أُقصِي (انليل) إلىٰ العالم الأسفل بيد أن (ننليل) التي كانت حبلىٰ حينذاك، رفضت البقاء بعيدة عنه وأصرت أن تتبع انليل إلىٰ العالم الأسفل وحيث أن ذلك قد أدىٰ إلىٰ أن تلد طفلاً هو (نانا) إلّه القمر الذي ولد في ظلام العالم الأسفل[23].

---

(21) حنون، نائل: عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة، ط 1، مطبعة دار السلام، بغداد، 1978، ص 5 ـ 51.

(22) البستاني، كرم: أساطير شرقية، ط 1، دار مارون عبود، بيروت، 1980، ص 6 ـ 7.

(23) كريمر، صموئيل نوح: أساطير العالم القديم، المصدر السابق، ص 100. =

ومن الواضح أن هذه الأسطورة العجيبة تقدم لنا الدليل علىٰ انتقال أسطورة (تموز، عشتار) التي تذكر بأن الإلّه تموز كان يموت ويختفي من الأرض الضاحكة إلىٰ أعماق الأرض المظلمة وفي كل مرة فأن زوجته كانت ترحل في البحث عنه في كل عام إلىٰ الأرض التي لا عودة منها. إلىٰ بيت الظلام حيث يتراكم التراب علىٰ الأبواب، وكان هناك رسول يدعىٰ آيا وظيفته الانطلاق والبحث عن الملكة لإنقاذها من الأخطار(24).

ونقرأ في النسخة السومرية من قصة نزول إتيانا (عشتار) إلىٰ العالم السفلي إن إلّه الحكمة (انكي) أخذ شيئاً من الوسخ الذي تحت ظفره وخلق منه ماردَين اثنين ليذهبا إلىٰ العالم السفلي من أجل إنقاذ الإلّهة السمينة هناك(25).

كما أن عملية خلق الإنسان تمت وفق خطة معينة وضعها الإلّهة، إذ تذكر الأساطير المعنية بالموضوع إن إلّه الحكمة أخذ شيئاً من الطين المقدس بعد أن أتم طقوس الاغتسال والغطس وجاء به إلىٰ آلهة الخلق (ننتو) بعد ذلك بدأت هذه الإلّهة بقراءة تعويذة خاصة ولما انتهت مدت يدها إلىٰ الطين الممزوج بدم أحد الإلّهة واقتطعت منه أربع عشرة قطعة وضعت سبعاً منها علىٰ اليمين وسبعاً علىٰ الشمال فكان منها سبعة ذكور وسبع إناث(26).

ولما خلق مردوخ السماء والأرض ووضعهما في مكانيهما، شرع

= كذلك انظر، علي، فاضل عبد الواحد: الطوفان، مطبعة أوفسيت، بغداد، 1972، ص 7.

(24) هول، صموئيل هنري: أساطير بلاد ما بين النهرين، ترجمة يوسف داود، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد 1968، ص 120.

(25) النوري، قيس: الأساطير وعلم الأجناس، دار الكتب للطباعة، جامعة الموصل، 1981، ص 127.

(26) ساكر، هاري: عظمة بابل، ترجمة د. عامر سليمان، جامعة الموصل، 1979، ص 475.

بعجن الأرض بدماء كنجو (الآله المتمرد) ويضع الناس بخدمة الإلّهة وتختلف القصص البابلية في وصف الطريقة الدقيقة التي تم بها صنع الإنسان ولكنها تتفق كلها بوجه عام في القول بأن الإلّه صنع الإنسان من قطعة من الطين[27] لقد ورد في ملحمة كلكامش أن إلّهة قد خلقت انكيدو من الطين فتقول الفقرة.

اورورو أنت خلقت كلكامش

فاخلقي الآن شبهاً له

لينافس قلبه الثائر

وليتباريا فترتاح اوروك

(ارورو) وهي تستمع إلىٰ هذه الأقوال

خلقته في قلبها مثل (آنو)

غسلت (ارورو) يديها

فأخذت طينة ورمتها علىٰ الأرض

لاكت (انكيدو) فخلقت البطل

المولود في منتصف الليل، جندي (ننورتا)

يكسو الشعر كل جسمه[28].

وهناك ثلاث روايات تضمنت أسطورة ذبح التنين التي كانت شائعة في سومر في الألف الثالث قبل الميلاد، تدور أحداث أولىٰ هذه الروايات حول إلّه الماء (انكي) الذي يعتبر نظيراً لـ (بوريدون) الإلّه الإغريقي وبطل الرواية الثانية هو (ننورتا) الذي يقابله (مردوخ) عند البابليين والذي يقوم بدور (بطل الإلّهة) في ملحمة الخليقة البابلية. وفي

(27) باقر، طه: مقدمة في أدب العراق القديم، المصدر السابق، ص 176.

(28) ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، ط 2، المجلد الأول، ط 3، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1961، ص 217.

الرواية الثالثة تلعب (انانا) الدور الرئيسي وهي تقابل عشتار الإلّهة الساعية، وفي كل هذه الروايات الثلاث، نجد أن الوحش الذي يقتل هو (كور) فالرواية الثانية لأسطورة ذبح التنين فقد كانت المصدر الرئيسي الذي اعتمد عليه الساميون في وضع ملحمة الخليقة البابلية وهي من هنا تتسم باهية خاصة[29].

فالمأثر السومرية والبابلية تتفق علىٰ ثلاث نقاط جوهرية بخصوص خلق الإنسان.

1 ـ إن الإنسان خلق من طين (جاء في التوراة، سفر التكوين 2: 7 وجبل الإلّه آدم تراباً من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية).

2 ـ إن خلق الإنسان لم يكن غاية في حد ذاتها أو نتيجة مكملة لبقية مراحل خلق الكون.

3 ـ إنه خلق من أجل خدمة الإلّهة أي من أجل أن يكد ويكدح في سبيل إطعامها وبناء معابدها. (أما بالنسبة للعبرانيين فقد كان الهدف من خلق الإنسان، كما جاء في التوراة، أن يسود الإنسان في الأرض علىٰ كل ما خلق الخالق: وقال الله فعمل الإنسان علىٰ صورتنا كشبهنا، فيختلطون علىٰ سمك البحر وعلىٰ طير السماء وعلىٰ البهائم وعلىٰ الأرض وعلىٰ جميع الذّبّابات التي تدب علىٰ الأرض (التكوين 1: 6)[30].

(29) دياكوف، إ. م: جماليات ملحمة كلكامش، ترجمة عزيز حداد، ط 1، مطبعة دار الساعة، بغداد، 1973، ص 108. وأيضاً حسن عون، العراق وما توالىٰ عليه من حضارات، ط 2، مطبعة الرؤيا، الاسكندرية 1952، ص 42.

(30) كريمر، صموئيل نوح: الأساطير السومرية، المصدر السابق، ص 124 ـ 126.

طبيعة التفكير الأسطوري في سفر التكوين

أن سفر التكوين هو أهم نص في اليهودية يتعلق بمشكلة أصل العالم ومشكلة الزمن، بإجماع المعنيين، وذلك لقدمه، ولأنه تخصيص بشكل متعمد الحديث عن قصة الخليقة بشكل مفصل، وإنها لا تقدم لنا قصة واحدة للخليفة بل عدداً منها، والقصة التي وضعت حوادثها في الإصحاح الأول من سفر التكوين يبدو إنها كانت أقل القصص انتشاراً بين سواد الناس وقصة الخليقة هذه تتصدر وحدها الكتاب المقدس وتمثل أقصىٰ ما بلغه الفكر اللاهوتي العبراني من التطور والتقدم، فاراؤها جميلة رائعة ومعانيها سامية تكسبها مكانة مميزة خاصة بها بالرغم من اختلافها كلياً عن بقية قصص الخليقة الواردة في الكتب الأخرىٰ غير التوراة. وهي مع ذلك مجرد حقائق بأسلوب مطنب من نمط واحد عمل. والظاهر إنها ألفت في أوساط علمية وحكمت عليها الضرورة البقاء محصورة هناك وإلا لتعرفت عليها عامة الناس[31].

فحول بداية العالم، ومن أي شيء وجد، وموقع الزمان من الحل أياً يكن نجد المعنيين المحدثين هنا يذهبون مذهبين رئيسين، الأول أن أية 1 ـ 3 من سفر التكوين تعلم الثنائية، ثنائية الله والمادة فهي تتكلم عن خليط من ماء وظلمة قبل بداية الخلق وتسمية (Tehom) وهو مرادف للكلمة البابلية (Tiamat) وأن فكرة الخلق من العدم لا توجد أبداً في التوراة. ثانياً: إنه يعلم الخلق من عدم، وتقرر كيفية خلق الكون بشكل عام فأن الآية الأولىٰ مفصولة عن الآيات الثانية. فما بعد التي تتحدث عن الخلق بشكل مفصل وعن جزء منه هو الأرض[32]. في البدء خلق

(31) علي، فاضل عبد الواحد: الطوفان، المصدر السابق، ص 49 ـ 50.
كذلك انظر، بين ألواح سومر وسفر التكوين، مجلة كلية الآداب، العدد 23 سنة 1978، عدد خاص، تصدر عن جامعة بغداد، ص 21.

(32) كييرا، ادوارد: كتبوا علىٰ الطين، المصدر السابق، ص 236.

الله السموات والأرض وكانت الأرض خربة خالية وعلىٰ وجه الغمر ظلام وروح الله يرف علىٰ وجه المياه، وقال الله ليكن نور فكان نور) الآية 1 ـ 3 سفر التكوين[33].

أن الفكر القديم يدل إذا مثلنا النظرة التاريخية والمقارنة مع أفكار الخلق المعاصرة لليهودية وقبلها لا يعرف أبداً فكرة الخلق من عدم، فعبد السومريين والبابليين كان هناك الماء أو المحيط ومنه ظهرت الإلَٰهة الخالقة، ومنهُ صنعت الأرض والسماوات بأن قسمتها فجف قسم منها وكون الأرض، وصعدت أبخرة ودخان كون منه مردوخ السموات.

ويمكن القول أن الفكر القديم يضع المادة الأولىٰ أولاً ومنها توجد الإلَٰهة (مع البابليين) ثم بعد ذلك اعتبرت المادة والله معاً في الوجود وليس أحدهما قبل الأخر (في التوراة).

والمسألة الأخرىٰ في سفر التكوين فهي أن الله في أزلية، أو لنقل أزلي أبدي، ونجد استعمالاً صريحاً لكلمة الأزل والأبد والأزلية، والدهر. أما مفهوم الزمان في سفر التكوين فنرىٰ إيجاد العالم في ستة أيام أي اليوم الدنيوي المعروف لدينا لم يوجد إلا في اليوم الرابع مع صنع الشمس والكواكب والقمر (14 ـ 19 سفر التكوين).

لقد أشار الكسندر هايدل إلىٰ إنه في كلا القصتين البابلية والتوراتية نجد أن الضوء يخلق قبل السماء والأجسام السماوية، كذلك فمن الغريب أن يوجد الله النباتات والبحار في اليوم الثالث قبل خلق الشمس والكواكب بيوم، الذي هو الرابع، مع إنه لا توجد تلك بدون هذه.. (وقال الله لتكن نيران في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل وتكون

(33) الألوسي، حسام: الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم، ط 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980، ص 25.

لآيات وأوقات وأيام وسنين. وتكون نيران في جلد السماء لتضيء على الأرض فكان كذلك فصنع الله النيرين العظيمين النير الأكبر لحكم النهار والنير الأصغر لحكم الليل والكواكب وجعلها الله في جلد السماء لتضيء على الأرض ولتحكم على النهار والليل وتفصل بين النور والظلام ورأى الله ذلك إنه حسن وكان مساء وكان صباح يوم رابع) (14 ـ 19 سفر التكوين)[34].

كذلك نرى في الإصحاح السادس من سفر التكوين إنه كان لله أولاد من الذكور وأن هؤلاء قد فتنهم جمال بنات الآدميين اللاتي كان عددهن قد كثر في الأرض فاتخذوهن خليلات وولد لهم منهن نسل هم (الجبابرة) الذين سكنوا الأرض قبل الطوفان.

أما أغرب صورة للإلّه فنجدها في الإصحاح الثاني والثلاثين من سفر التكوين حيث أن يعقوب قد لقي الالّه ذات ليلة وأخذ يصارعه حتى بزوغ الفجر بدون إن يستطيع الله التغلب عليه ولما تعب الله في المصارعة طلب من يعقوب أن يطلقه لكن يعقوب أبى ذلك إلا إذا باركه، فقبل الله شرطه وباركه وسأله عن اسمه فقال يعقوب فقال الله لن تسمى بعد الآن يعقوباً بل تسمى (إسرائيل) لأنك كنت قويا على الله (إحدى معاني كلمة إسرائيل في العبرية تعني قوي).

ونرى إن هذا الاضطراب في فكرة الألوهية يعود إلى أن تدوين التوراة قد استمر حتى بعد وفاة موسى مما أدى إلى احتوائه على نظريات لا علمية وذلك لإدامة شيئين أولاً.. بقاء بني إسرائيل أمام تحديات الأقوام. الأخرى منعاً للذوبان وثانياً.. بقاء طبقة رجال الدين والكهنة على رأس الهرم الاجتماعي والاقتصادي الإسرائيلي لمدة طويلة.

---

(34) التوراة؛ سفر التكوين، 1: 1 ـ 3.

لقد حوت أسفار التوراة طائفة من الأخبار عن بلاد ما بين النهرين وتاريخها نتيجة التأثيرات الحضارية التي خلفتها حضارة وادي الرافدين في العبرانيين الذين اقتبسوا منها أشياء كثيرة في حقل الأساطير والقصص والمعارف فضمنوها في توراتهم منذ بدء الخليقة[35].

بالمقارنة البسيطة نجد قصة الخليقة في العقائد الإسرائيلية والتي أفاض فيها سفر التكوين تشابه إلىٰ حد كبير قصة الخليقة فيما تركه لنا البابليون من ميراث عن معتقداتهم[36].

وقد أفاض أكثر من باحث في تأثر التوراة والعهد القديم بحضارة وادي الرافدين[37] لعل اليهود قد أخذوا بعضها من الأدب البابلي في أثناء أسرهم، ولكن الأرجح من هذا إنهم أخذوها قبل ذلك العهد بزمن طويل من مصادر سامية وسومرية قديمة كانت منتشرة في جميع بلاد الشرق الأدنىٰ[38].

يوجد تشابه وتناظر واضحان ما بين الأسطورة وبين رواية التوراة عن الخلق والتكوين **(سفر التكوين، الإصحاح الأول: 1 ـ 2، والإصحاح الثالث)** فكلا المصدرين يشير إلىٰ أن الكون لم يكن فيه في البدء شيء سوىٰ العماء المؤلف من المياه الأولىٰ. وتتشابه الكلمتان المستعملتان لهذه

---

(35) الألوسي، حسام: المصدر السابق، ص 27، 29.

(36) باقر، طه: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ط، ط 1، مطبعة الحوادث، بغداد، 1973، ص 107.

(37) طعيمة، صابر: التاريخ اليهودي العام، ط 1، ج 2، مطابع المتنبي، بيروت، 1975، ص 104 وكذلك انظر، بارو، (اندريه): بلاد آشور، ترجمة عيسىٰ سليمان، دار الحرية، بغداد، 1980، ص 302.

(38) حبي، يوسف: أسطورة التنين وأثرها في الحضارات العالمية، مجلة سومر، ط 2، المجلد الحادي والأربعون، 1979، ص 169 (المؤسسة العامة للآثار، بغداد).

(المياه الأولىٰ) في كلا المصدرين في الأسطورة البابلية (تيامة) و(تيهوم) في التوراة.

وكانت المادة الأولىٰ (المياه الأولىٰ) في الأسطورة البابلية مؤلفة من عنصرين: 1) الماء العذب، (أبسو) وهو العنصر المذكر. 2) والماء المالح (تيامة) العنصر المؤنث. وقد جسم العراقيون القدماء هذين العنصرين وجعلوهما إلّهاً (أبسو) وإلّهة (تيامة). وكما أن الإله مردوخ خلق من جسم (تيامة) السماء من نصفه الأعلىٰ والأرض من النصف الأسفل، كذلك خلق الله في رواية التوراة السماء بفضل المياه الأولىٰ، وبحسب الأسطورة البابلية تكون المادة الأولىٰ عند العراقين القدماء ذات طبيعة ثنائية، إذ كانت مادة وإلّهاً في الوقت نفسه، أي أن المادة أزلية وجدت منذ البدء ولم تخلق. وهنا نجد اختلافاً جوهرياً ما بين العقيدة البابلية وبين عقائد الأديان السماوية ولا سيما ما جاء في التوراة والقرآن، حيث وجود الخالق أزلي سبق وجوده المادة وهو الذي أوجد المادة[39].

هناك تشابه في خلق حواء من ضلع آدم كما جاء في التوراة وبين ما ورد في الأساطير السومرية أو البابلية. والقصة السومرية عن كيفية هذا الخلق تتلخص في أن الإله (انكي) ـ آيا ـ مرض يوماً في ضلعه والضلع بالسومرية هي ـ تي ـ فدعيت له الإلّهة لتشفي مرضه، فسميت هذه الإلّهة نن ـ تي) أي (سيدة الضلع) وهذا ما يوحي بأن القصة الواردة في التوراة التي تروي عملية خلق حواء من ضلع آدم، لها صلة بهذه الأسطورة السومرية[40]. وثمة أسطورة أخرىٰ تحدثنا بقصة معقدة فيها بعض الغموض وتتضمن الحديث عن أرض الفردوس ولعلها تحدد بالهند القديمة.

كانت دلمون أرضاً (نقية) لا تعرف المرض ولا الموت. ولم يكن

---

(39) ول ديورانت، المصدر نفسه، ص 368.

(40) باقر، طه: مقدمة في تاريخ الأدب العراقي القديم، ص 81، 82.

ينقصها سوىٰ الماء العذب وهو الضروري لحياة الحيوان والنبات. ولذلك يأمر إلّه الماء السومري الأكبر انكي، أوتو إلّه الشمس بأن يملأها ماءاً عذباً يستنبط من الأرض وبذلك تتحول دلمون إلىٰ حديقة إلّهية خضراء بالحقول والمروج المحملة بالفاكهة.

علىٰ إنه بالرغم من أن أسطورتنا تعالج فردوساً إلهياً لا إنسانياً فأن فيها أشباهاً عديدة بقصة الكتاب المقدس عن الفردوس.

فهناك أولاً بعض أسباب الاعتقاد في أن الفكرة ذاتها عن فردوس وحديقة للإلّهة إنها من أصل سومري، ثم إن الفردوس السومري واقع ومن قصيدتنا في دلمون وكانت دلمون هذه نفسها فيما بعد هي المكان الذي جعل فيه البابليون، وهم القوم الساميون الذين غلبوا السومريين، أرض الأحياء وهناك دليل طيب علىٰ أن فردوس الكتاب المقدس كذلك ـ وهو الذي وصف بأنه حديقة مزروعة إلىٰ الشرق في عدن التي من مياهها تجري أنهار العالم الأربعة بما فيها دجلة والفرات قد يكون أصلاً منطبقاً علىٰ دلمون أرض الفردوس السومري.

وكذلك هناك فقرة في القصيدة السومرية تصف ري دلمون علىٰ يد إلّه الشمس بالمياه العذبة المستنبطة من الأرض بما في الكتاب المقدس ثم كان ضباب (؟) يطلع من الأرض ويسقىٰ كل وجه الأرض (تكوين 2: 6).

وفي القصيدة السومرية يقتطف رسول انكي نبتة من النباتات الثمانية الموجودة في الفردوس ويعطيها لسيده الذي يتقدم لأكلها كل بدوره علىٰ حين تنطق نينهور ساج الغاضبة (الإلّهة الأم العظمىٰ للسومريين) عليه بلعنة الموت. وهذه اللعنة تذكرنا بأكل آدم وحواء من ثمرة شجرة المعرفة، واللعنة التي صدرت ضد كل منهما لذلك العمل الإثيم. ومن أهم الفقرات المقارنة في القصيدة هو التفسير الذي يكفي واحداً من أفضل العناصر في قصيدة الفردوس في الكتاب المقدس وهو الفقرة

المشهورة التي تصف خلق حواء من ضلع آدم[41]، لقد ورد في العهد القديم بأن الرب (قال لآدم سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لا تأكل منها ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك. وشوكاً وحسكاً تنبت لك وتأكل عشب الحقل. بعرق وجهك تأكل خبزاً حتىٰ تعود إلىٰ الأرض التي أخذت منها. لأنك تراب وإلىٰ تراب تعود (التكوين 3: 17)[42] وهناك ثمة تشابه بين أسطورة التنين في تراث وادي الرافدين وبين الحية في سفر التكوين التي تجسدها الشيطان وأغوت حواء علىٰ أكل الثمرة المحرمة إذ أن الفكرة السائدة بالنسبة لأسطورة التنين في تراث وادي الرافدين هو أن التنين رمز الشر[43].

هناك تشابه بالنسبة للدور الذي تقوم به الحية بالنسبة لأدم وحواء، عندما يطلعهما علىٰ أحد الأسرار الإلّهية والتي يستطيعان به أن يميزا بين الخير والشر أي إنهما منحا الذكاء، وبين الحية التي برزت من الماء في ملحمة كلكامش وخطفت النبات النفيس من كلكامش واختفت وذلك عندما ذهب ليأتي بنبتة الحياة أي إن الإنسان لا يستطيع أن يسرق الطعام الذي خصت به الإلّهة نفسها وحدها، فالحية علىٰ ما يظهر كانت من الإلّهة التي أمرت أن تنتزع من كلكامش ما ليس له به حق[44].

أما في قصة الطوفان في التوراة أن غضب الرب علىٰ الناس كان بسبب إرسال الطوفان عليهم علىٰ غرار قصة الطوفان البابلية، كما أن الطوفان في التوراة هو الأخر قد جاء يمحو كل مخلوق علىٰ وجه

---

(41) سلمان التكريتي، أساطير بابلية، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، 1972، ص 58.

(42) كريمر، صموئيل نوح: أساطير العالم القديم، ص 81، 82، 83.

(43) حنون، نائل: عقائد ما بعد الموت، ص 50.

(44) فاضل عبد الواحد: حضارة بلاد وادي الرافدين وأثرها في المعتقدات العبرانيين، مجلة بين النهرين، العدد 29 لسنة 1980، الموصل، ص 30 ـ 36.

الأرض[45]. وخاطب نوح قائلاً: أصنع لنفسك فلكاً من خشب وتطليه من داخل ومن خارج بالقار وهكذا تصنعه: ثلثمائة ذراع يكون طول الفلك وخمسين ذراعاً عرضه وثلاثين ذراعاً ارتفاعه. . . فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك، ومن كل حي، من كل ذي جسد اثنين تكون ذكراً وأنثىٰ هذا ما جاء في (سفر التكوين 6: 19 ـ 20) أما ما جاء في قصيدة الطوفان البابلية فهي. .

قَوِّض البيت وابنِ لك فُلكاً
تَخَلَّ عن مالك وأنشد النجاة
انبذ الملك وخلف حياتك
واحمل في السفينة بذرة كل ذي حي
والسفينة التي ستبني عليك أن تضبط مقاسها
ليكن عرضها مساوياً لطولها. . .[46]

وتزعم التوراة أن الله وضع قوس قزح في السماء بعد الطوفان كعلامة ميثاق بينه وبين الأرض ليذكر نفسه حتىٰ لا يعود فيغرق الأرض بطوفان آخر إلىٰ قيام الساعة[47].

أما أسطورة أيميش واينين فهي أقرب الأساطير السومرية شبهاً بقصة قابيل وهابيل التي وردت في التوراة رغم إنها تنتهي بالمصالحة بدلاً من القتل ويتضح من الأسطورة أن (انليل) إلٰه الهواء يصمم علىٰ خلق الأشجار والقمح ليحقق الوفرة والرخاء علىٰ وجه الأرض، ولهذا الغرض، يخلق كائنين هما الأخوان (ايميش) و(اينين) ويعين لكل منهما واجباً معيناً ومهما كانت طبيعة واجباتهما الأصلية فأن خصاماً شديداً

---

(45) كييرا، ادوارد، المصدر نفسه، ص 155 ـ 156.
(46) فاضل عبد الواحد: الطوفان، ص 71.
(47) باقر، طه: ملحمة كلكامش، المصدر السابق، ص 134، 162.

يحدث بين هذين الأخوين، ثم أن (ايميش) يتحدىٰ إدعاء (اينين) بكونه فلاح الإلّهة، الأمر الذي يدعوهما للذهاب إلىٰ (نفر) حيث يعرض كل منهما قضيته علىٰ (انليل) وفي النهاية يتصالحا.

أما أسطورة أنانا تفضل الفلاح فهي تمثل نموذجاً أخر لقصة قابيل وهابيل ويقوم بأدوارهما أربعة أشخاص وهم (انانا) وأخوها (أوتو) إلّه الشمس، وإلّه الراعي (دموزي) والإلّه الفلاح (انكيمدو) وتجري الأحداث علىٰ النحو التالي... تعتزم (انانا) الزواج من (انكميدو) في حين يقترح عليها أخوها (اوتو) أن تتزوج الإلّه الراعي (دموزي) ويسألها دموزي عن سبب تفضيلها لانكيمدو ويحاول انكيمدو ترضية (دموزي) المولع بالقتل ولكن دموزي يشترط الحصول علىٰ مختلف أنواع الهدايا كوسيلة لاسترضاءه.

ويبدأ الصراع بينهم وتنتهي القصيدة بانتصار دموزي علىٰ انكيمدو، كذلك تمثل أسطورة الماشية والغلة صورة أخرىٰ لقصة قابيل وهابيل ضمن أساطير الشرق الأدنىٰ.

تدور أحداث هذه الأسطورة حول إلّه الماشية (لاهار) وأخته (اشنان) إلّهة الغلة، تخبرنا الأسطورة بأن (لاهار) و(اشنان) قد خلقا في غرفة الخلق التابعة للإلّهة حيث انيطت بهما واجب إطعام وأكساء (الانوناكي) وهم أطفال واتباع إلّه السماء (ان).

غير أن (لاهار) و(اشنان) يختصان في المزارع والحقول ويحتدم الجدل بينهما، ويفخر كل منهما بإنجازاته ويذم أحدها الآخر وأخيراً يتدخل كل من (انليل) و(انكي) ويتخذا قراراً لفض النزاع[48].

---

(48) محمود، مصطفىٰ: التوراة، ط 1، دار العودة، بيروت، 1972، ص 52.

وراجع أيضاً: كريمر، صموئيل نوح، الأساطير السومرية، المصدر السابق، ص 126.



الخاتمة

ما الداعي لبذل كل هذا الجهد في البحث عن تاريخ تلك التلال المتراكمة منذ آلاف السنين؟ لماذا التنافس بين الباحثين من المؤرخين والآثاريين والتراثيين؟ ماذا يدفع الناس للاهتمام المتزايد في سبيل تدوين أخبار العراق القديم وأحوال مملكة بابل والأشوريين؟

أن جواباً واحداً يشير ولو بشكل غير كافٍ إلى السبب والهدف؛ إنه الكتاب المقدس ولا سيما بعهده القديم.

إن سحراً غامضاً يلفّ أسماء مثل «نينوى» و«بابل» و«اور» والحكايات حول «بلشاصر» وأمرافل (حمورابي) وسنحاريب ونبوخذنصر. وتقودنا هذه الرغبة دائماً إلى الكتاب المقدس وقبل كل شيء إلى العهد القديم وعجيب كيف أصبح في أيامنا هذه العهد القديم ـ هذه المكتبة الصغيرة والمحتوية على الكتب الأكثر تنوعاً ـ موضوعاً للدراسة العميقة التي يقوم بها عدد لا حصر له من العلماء المسيحيين في المانيا وانكلترا وفرنسا وامريكا، هذه البلدان المتعلقة بالكتاب المقدس تعلقاً خاصاً. والحق إنه حتىٰ الآن لم يعر العالم إلا اهتماماً قليلاً لهذا العمل الذهني والخفي، ولكن من المؤكد إنه عندما تخرج جملة المعلومات الجديدة من مكاتب العلماء إلى الحياة ـ إلى الكنائس والمدارس ـ سوف تحرك الحياة ويزداد اليقين بأن نتائج الحفريات الجارية في منطقة بابل وأشور هي قبل كل شيء التي ستفتح مرحلة

جديدة في فهم العهد القديم وتقييمه وأن الكتاب المقدس وبابل سيظلان مرتبطان إلى الأبد.

ها هوذا داود وسليمان اللذان عاشا قبل 1000 ق. م. وهذا موسى الذي عاش حوالي 1400 ق. م وقبله بـ 800 عام إبراهيم، قد وصلت إلينا أخبار هؤلاء الرجال بتفصيلاتها بأيمان لم يعتره الشك، وحتى أكبر العلماء كانوا ولا يزالون تحت تأثير سفر التكوين والأسرار التي تلّف حوله. أما الآن بعد انفتاح أبواب الأهرام والبلاطات الأشورية يظهر الشعب الإسرائيلي مع مدوناته الأصغر عمراً بين جيرانه ـ كان العهد القديم إلى عهد قريب من القرن الحاضر يشكل عالماً خاصاً: إنه يروي عن أزمنة تتصل العصور القديمة الكلاسيكية بأواخر حدودها فقط، وعن شعوب لا يذكرها اليونانيون والرومان أو يذكرونها بشكل عابر. كان الكتاب المقدس المصدر الوحيد لمعرفتنا للشرق الأوسط منذ عام 500 ق. م. وما قبله، ولما كانت دائرته تمتد على مساحة كبيرة (أي بين البحر الأبيض المتوسط والبحر العربي وبين جبال ارارط وأثيوبيا) كانت تكثر الألغاز فيه والتي كان من الممكن أن يستحيل حلّها. أما الآن فتسقط فجأة الجدران التي كانت تحيط بمسرح الأحداث (أحداث العهد القديم) لا سيما نحو الوراء، وريح آتية من الشرق تنعش الكتاب القديم والمحترم وذلك لأن العصور العبرية القديمة ترتبط من أولها إلى آخرها ببابل وأشور.

كشفت الحفريات الأمريكية في «نيبور» عن وثائق تجارية لتاجر الجملة «موراشو وأبناءه» تعود إلى عصر «ارتاكسيركسيس» Artaxaerxes (حوالي 450 ق. م) وفيها نقرأ أسماء الكثيرين من اليهود المنفيين الذين كانوا يقيمون في بابل، مثل «نثنائيل» و«حجي» و«بنيامين» كما إننا نقرأ عن «قناة خابور» عند مدينة «نيبور» وهي قناة خابور المشهورة في بلاد الكلدانيين وقد جاء ذكرها في رؤى حزقيال (1 : 3) ومن المرجح أن هذه «القناة الكبيرة» ـ هذا ما يعني اسمها ـ لا تزال موجودة إلى يومنا هذا. ـ

وبفضل الخاتم الذي يوجد على معظم قطع آجر البناء البابلية مع ذكر اسم المدينة التي تم فيها البناء، فقد نجح «هنري رالنسون» عام 1849 في اكتشاف مدينة «اور» الكلدانية التي بحث عنها الكثيرون، وهي موطن إبراهيم كما أشير إلى ذلك في أكثر من موضع (سفر التكوين 11: 31، 15: 7) وقد تم اكتشافها في تل المقجّار على الضفة اليمنىٰ لمجرى الفرات الأسفل مع الأسوار والتل الذي وجد فيه البلاط في المدينة الملكية الحثية تركميش وهو الموقع الذي حقق فيه «نبوخذ نصّر» عام 605 ق. م نصراً كبيراً على الفرعون «نخو» (ارميا 46: 2).

وكما أُحيي عدد كبير من الأمكنة، كذلك أحييّ عدد كبير من الشخصيات المذكورة في الكتاب المقدس. يذكر سفر أشعيا (20: 1) ملكاً أشورياً اسمه (سرجون) الذي وجّه قائد جيشه إلى «أشدود» لمحاربته. وعندما بدا القنصل الفرنسي «اميل بوتا» في عام 1843 بالحفر في تل خورساباد بالقرب من الموصل ـ بناء على نصيحة عالم الماني ـ افتتاحاً للاكتشافات الأثرية على أرض ما بين النهرين عثر أول ما عثر على بلاط سرجون هذا فاتح السامرة وقد رأينا على أحد النقوش الرائعة على رخام أبيض التي زينت بها جدران حجرات البلاط صورة هذا البطل العسكري بالذات وهو يتحدث إلى قائد جيشه.

ويروي سفر الملوك الثاني (18: 14) أن الملك «حزقيا» من اورشليم أرسل إلى الملك «سنحاريب» المقيم في «لخيش» الجزية ـ يُري نقش من بلاط سنحاريب في نينوى هذا الملك الكبير الأشوري على العرش عليه: «جلس سنحاريب ملك الكون وملك أشور على عرشه وتفحص الغنيمة التي اتته من لخيش». وهناك عدو سنحاريب وهو «بردوخ بلدان» البابلي الذي أرسل حسب النص الوارد في العهد القديم (سفر الملوك الثاني 20: 12) رسلاً إلى حزقيا ليوطد علاقات الصداقة بينهما، ويرينا نقش على ديوريت رئيس مدينة بابل أمام الملك وهو يعلمه بما يقدمه له سيده الملك من الأراضي الواسعة هدية. وكذلك عثر على صورة «امرافل»

(سفر التكوين 10: 14) الذي هو الملك الكبير «حمورابي» وكان من معاصري إبراهيم. وهكذا يعود إلى الحياة كل هؤلاء الرجال الذين صنعوا التاريخ عبر ثلاثة آلاف من السنين، وقد وصلت إلينا أسطوانات اختامهم أيضاً وهنا أيضاً ختم الدولة الملك من الملوك البابليين الأكديين الأولين المعروفين وهو «شروكين أو سرجون أو سرجون الأول» من الألف الثالث ق. م. وتدور حول هذا الملك الأسطورة القائلة بأنه كان لا يعرف والده الذي توفي قبل ميلاده، ولما لم يهتم عمّه بأمه الأرملة، ولدته تحت ظروف صعبة جداً: «قد ولدتني سراً في ازوبيران» عند نهر الفرات، ثم وضعتني في صندوق مصنوع من القصب وبعد أن أغلقته بالقار سلمتني للنهر الذي حملني بتياره إلى أكّي الساقي، وأخذني اكّي الطيب القلب معه وربّاني ابناً له، ثم أصبحت بستانياً عنده، هناك وقعت عشتار ابنة رب السموات في حبي وجعلتني ملكاً على البشر».

وأكثر من ذلك، أن شعوباً برمتها تعود إلى الحياة. وعندما نعدّ استناداً إلى التماثيل الفنية الأشورية أنواع الشعوب المختلفة نجد هنا صورة رجل من رجال بني يهوذا من لخيش، وهناك صورة رجل إسرائيلي من عصر «ياهو» كذلك يمكننا أن ننظر إلى بقية الشعوب، مثل الشيخ لقبيلة عيلامية والفارس العربي والتاجر البابلي؛ وكلهم مصورون بالدقة نفسها. وأما الأشوريون بشكل خاص الذين كان يبدو إنهم اختفوا من تاريخهم وحضارتهم في ضباب العصور، فقد أصبحنا نعرف أخبارهم بالتفصيل بفضل الحفريات في نينوى، كما وجدنا صوراً بألوان رائعة للعديد من المواضع في كتب الأنبياء.

«فإذن هم بالعجلة يأتون سريعاً، ليس فيهم رازح ولا عاثر، لا ينعسون ولا ينامون ولا ينحل حزام أحقائهم ولا تنقطع سيور أحذيتهم، الذين سهامهم مسنونة وجميع قسيّهم ممدودة. حوافر خيلهم تحسب كالصواب وبكراتهم كالزوبعة. لهم زمجرة كاللبوة ويزمجرون كالشبل ويهرون ويمسكون الفريسة ويستخلصونها ولا منقذ» (اشعياء: 26 ـ 29).

بهذه الكلمات البليغة يصف النبي اشعيا الجيش الأشوري؛ والآن نرى هؤلاء الجنود منطلقين في الصباح الباكر من معسكرهم، وبأيديهم آلات لدك الأسوار ليهاجموا حصن العدو. بينما في النصف الأسفل من الصورة يساق أسرى أشقياء إلى أسر لا عودة منه.

وعلى صورة أخرى نرى النَّبالين ورماة الرماح يهاجمون حصن العدو واندفاع جنود آشوريين آخرين إلى تل يدافع عنه نَبّالون مُعادون، إنهم يصعدون التل بواسطة أغصان الأشجار أو يتسلقونه بمساعدة العصي. بينما يحمل آخرون في نشوة الظفر رؤوس الأعداء المقطوعة إلى الوادي.

ونأخذ فكرة عن الشؤون الحربية لهذه الدولة العسكرية الأولى في العالم إذا ما نظرنا إلى العدد الكبير من تلك النقوش التي تصوّر مشاهد الحرب على البوابات البرونزية العائدة إلى عصر «شلمنصر الثاني» وعلى الرخام الأبيض من بلاطي «سرجون» و«سنحاريب» بتفصيلاتها كالأسلحة والعدّة في تطورها التدريجي.

وهناك صورة لأحد ضباط جيش «سرجون» بلحيته التي تدل على مهارة فنية لم يبلغها بعد ضباط أيامنا.

وهناك صورة غلمان الحاشية (حاشية الملك) وغلامان يدخلان بأبهة عربة الملك. وآخران يحملان عرشه. ويزينا عدد كبير من النقوش الجميلة الملك «ناصربال» في الصيد لا سيما صيد الأسود الذي كان مولعابه. وكانت لديه حدائق حيوانات خاصة، فيها عدد وافر من الأسود الضخمة لهذا الغرض.

وهكذا لم ترنا النقوش الملك ناصربال وهو يصطاد الأسد من ظهر الخيل، ومن العربة، فحسب، بل ترى ملك آشور أيضاً في القتال المتلاحم مع ملك الصحراء.

وبأمكاننا أن نلقي نظرة على ما أحضر إلى مائدة الملك حيث نرى الخدم حاملين الأرانب والإحجال والجراد على أسياخ شواء وكمية كبيرة

من الحلوى والفواكه، وفي يدهم أغصان صغيرة لطرد الذباب. وعلاوة على ذلك بإمكاننا أن نرى على إحدى الصور المنقوشة التي كانت موجودة في الحريم، الملك والملكة في عرش كرم وهما يشربان النبيذ: يتمدد الملك على أريكة عالية وتقابله الملكة جالسة على كرسي عالٍ مرتدية ثياباً نفيسة، وإلى جانبها خصيان يروحون بالهواء، وربما يأتي من البعيد عزف ألحان عذبة.

أن الصورة الوحيدة لملكة هي التي حفظها للأجيال الآتية الملازم الأول الروسي بلّربك Billerbeck عام 1867 برسم منظرها الجانبي قبل تشوه النقش. ولا يستبعد أن زوجة ناصربال كانت آرية الأصل وشعرها أشقر اللون.

وهناك الكثير من الصور من العصور الآشورية التي تجدر باهتمامنا. يذكر النبي اشعيا (45: 20 و46: 1) موكباً دينياً، وها هي ذي صورته: في المقدمة الآلهات اللواتي يتبعهن إلّه البرق والرعد المسلح بمطرقة وحزمة البرق، وقد عيّن الجنود الآشوريون لحمل تماثيل الإلّهة.

وفي صورة أخرى نشاهد عملية نقل ثور ضخم فنأخذ فكرة عن مستوى مهارة الآشوريين التكنيكية.

أما قبل كل شيء، فيعجبنا دائماً الأسلوب الأصيل والبسيط في فنهم المعماري ومثال عليه بوابة بلاط (سرجون) التي اكتشفها «بوتا» في حفرياته، ومثلها صور الحيوانات الرائعة الواقعية جداً التي خلفها هؤلاء الفنانون في العصور القديمة وعلى سبيل المثال المشهد المريح للغزلان الهادئة التي ترعى العشب. أو صورة اللبؤة وهي تموت التي عثر عليها في نينوى وقد أصبحت مشهورة في تاريخ الفن.

والحق أن الحفريات في أراضي بابل تكشف لنا عن صورة مماثلة لفن بلاد آشور ومدنيتها وحضارتها من زمن يعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد أي إلى عصور ما كان يحلم أوسع خيال بالعودة إليها. ومن مدن

بابل نفذنا إلى عصر السومريين، هذا الشعب القديم قدم الدهر مؤسسي الحضارة البابلية العظيمة. إنهم أخذوا العدد ستون كوحدة عليا بعد العشرة وليس المئة. ولا نغالي إذا رأينا في الأمير والكاهن الذي يحتفظ برأسه الرائع متحف برلين ممثلاً أصيلاً للإنسان الذي كان يعيش عند فجر التاريخ.

ولكن على الرغم من فائدة كل ما ذكرناه وجداراته فأن الأمر لا يتعدىٰ بعض التفصيلات أو بالأحرىٰ بعض المظاهر التي تفوقها الحقائق التي سنوردها فيما يلي أهمية إلى حد بعيد.

لا أقصد هنا التوقف كثيراً عند حقائق جديرة بالذكر مثل التاريخ البابلي ـ الآشوري الذي يعتمد على أساس فلكي متين (أي مراقبة الكسوف. . . إلخ) ويسمح بترتيب الأحداث المروية في سفر الملوك في العهد القديم ترتيباً تاريخياً علمياً، وهو أمر يستوجب الشكر لا سيما بعد إثبات «روبرتون سميث» و«ولهوزن» أن تاريخ العهد القديم يتناسب مع نظام أعداد مقدسة:

840 عام منذ العودة من المنفىٰ إلى الوراء حتىٰ تاريخ بناء معبد سليمان، ثم أيضاً 840 عام (الملوك الأول 6: 1) إلى الوراء حتىٰ خروج بني إسرائيل من مصر، وكذلك الأمر فيما يتعلق بأهمية دراسة الخط المسماري البالغة ـ التي تزيدنا فهماً لنص العهد القديم أكثر فأكثر كما يوضح المثال المتواضع التالي: «يباركك الرب ويحرسك» (عدد 6: 24) وكم مرّة تكر هذه البركة المؤلفة من ثلاثة ألفاظ. ولكننا لم نفهم مدلولها العميق إلا بعد معرفتنا بواسطة اللغة البابلية أن التعبير «يرفع وجهه أو عينيه إلى فلان» كان يستعمل للإلّه إذا أراد أن يعبّر عن إعجابه بإنسان مختار (أو مكان) وعن حبه إياه. بهذا الدعاء الرائع يريد الإنسان الحصول على بركة الله وحمايته وعطفه ورحمته وأخيراً حبه. وقد انتهى التعبير إلى تحية الشرق الجميلة حقاً «السلام عليك».

كل هذه المساعدة الكبيرة التي جاءتنا من بابل بشكل غير متوقع في فهم الكتاب المقدس لغوياً ليس بالأهمية التي تكمن في التأملات التالية:

من أهم نتائج الأبحاث في منطقة الفرات ودجلة في ذلك السهل الذي يتصف بخصوبة طبيعية قبل أن يحوله الإنسان بجهده إلى بيت زجاجي مع نبت لا يتصوره الخيال، العثور على آثار دولة دستورية متطورة جداً ذات حضارة يمكن مقارنتها بحضارتنا.

بعد انتصار حمورابي على عدو بابل اللدود العيلاميين، وربط شمال البلاد بجنوبها في دولة واحدة مع بابل كمركز سياسي وديني، بدأ يركز اهتمامه على وضع شريعة وتطبيقها على جميع أقطار البلاد، وشرّع جملة كبيرة من القوانين التي أثبت فيها الحقوق المدنية بكل فروعها. فهناك تحديد العلاقة بين السيد والعبد أو الأجير، والتاجر وغلامه، وصاحب الأرض ومستأجرها. وعلى سبيل المثال هناك قانون ينص على إعطاء وصل للموظف الذي يسلّم لمعلمه المال الذي حصل عليه ببيع البضائع، وتخفيض أجرة الأرض في حالة حدوث مضار بسبب أعصار أو بسبب وحوش عاثت فيها فساداً، كما أن قانون الصيد محدد بدقة للقرىٰ الواقعة في ضفة قناة. . . . إلخ.

وكانت محكمة العدل العليا في بابل تصدر الحكم في القضايا الخلافية المعقدة. وكان كل رجل لائق للتجنيد مجبراً على الخدمة العسكرية مع أن حمورابي قد وضع قوانين عديدة وقاية من التشدد في تطبيق التجنيد فكان يراعي امتيازات طبقة الكهنة العريقة أو يحرر الرعاة من الخدمة العسكرية لصالح تربية الماشية.

ونقرأ أيضاً نصاً بخصوص صك العملة البابلية، ويدلّ الخط بحروفه المائلة على انتشار الكتابة انتشاراً واسعاً. وعندما نجد بين الرسائل العديدة المحفوظة من ذلك العصر البعيد رسالة امرأة إلى زوجها المسافر وهي تخبره عن سلامة الصغار أو تطلب نصيحته في أمر تافه، أو نجد

رسالة كتبها الابن إلى والده ليخبره بأن فلاناً قد أهانه إهانة لا تطاق وأنه يريد أن يضرب هذا الحقير ولكنه قبل أن يتصرف يفضل انتظار نصيحة والده في هذا الأمر، أو عندما نقرأ في رسالة أخرى أن الابن يطلب من والده إرسال المال الموعود مع الفضة إنه بعد صول المبلغ يمكنه إلى الدعاء لأجله، نفهم من كل ذلك أن البريد كان منظماً بدقة كما أن كل الدلائل تشير إلى أن الشوارع والجسور والقنوات حتىٰ ما وراء حدود بابل كانت في حالة جيدة وقد ازدهرت التجارة والصناعة وتربية الماشية والزراعة وكذلك العلوم مثل الهندسة والرياضيات وعلم الفلك الذي لا يزال علم الفلك الحديث ينظر إليه بإعجاب ـ قد وصلت إلى مرتبة عالية من التطور.

ويشهد الأنبياء في العهد القديم على روعة بابل المتفوقة في عصر «نبوخذ نصر» وعلى قوتها التي ليس لها نظير. يقول ارميا (50: 6) «بابل كأس ذهب بيد الرب تسكر كل الأرض» وحتىٰ في رؤيا يوحنا تستمر ذكرىٰ بابل مليئة بالكراهية، تلك المدينة البهيجة مركز التجارة والفن، تلك المدينة الفخورة بغناها، أمّ العشاق ومفاسد العالم كله. ولكن بابل كانت منذ أواخر الألف الثالث بؤرة الحضارة والعلوم والأدب، وكانت دماغ الشرق الأدنىٰ والقوة المسيطرة على الجميع.

عندما اقتحمت القبائل الإسرائيلية الإثنتا عشرة بلاد كنعان دخلت بلداً كان كلياً تحت نفوذ الحضارة البابلية. هناك حدث صغير ولكنه ذو دلالة أن «أخان» عند فتح مدينة «أريحا» ونهبها أغراه رداء بابلي (يشوع 7: 21) وليس في الصناعة فحسب وإنما في التجارة والحقوق والعلوم كان لبابل دور القيادة. ودفعة واحدة ندرك مصدر المسكوكات ونظام القياس والوزن الواردة في العهد القديم، ومن ذلك أيضاً صيغة القوانين مثل «أن فعل فلان كذا وكذا يجب عليه كذا وكذا. . . .» إذ أن كل هذه الأنظمة بابلية. افليس غريباً أن التقليد الإسرائيلي لا يستطيع بالتأكيد تعيين مصدر السبت (قارن بين خروج 20: 11 وتثنيه 5: 15) أما البابليون

فهم أيضاً كانوا يرتاحون في يوم السبت لمصالحة الآلهة بعدم القيام بأي عمل، وقد عثر لدىٰ الحفريات على تقويم خاص بالأعياد والأيام المختصة لتقديم القرابين وعليه إشارة إلى اليوم السابع والرابع عشر والواحد والعشرين والثامن والعشرين على إنها لا يأكل فيها «راعي الشعوب العظمى» لحماً مشوياً ولا يبدل ثوبه ولا يقدم قرباناً ولا يركب الملك عربته ولا تنطق الكاهنة أو الساحر بتنبؤ وحتىٰ الطبيب لا يضع يده علىٰ مريض.

بأختصار إنها الأيام التي لا يقوم فيها أحد بأي عمل، لذلك لا يمكن الشك في إننا ندين براحة يوم السبت أو يوم الأحد في النهاية لهذا الشعب المتحضر بين دجلة والفرات.

وهناك ما يزيد عن ذلك فأن متحف برلين يحتفظ بكنز فريد نفيس جداً، وهو لوح طيني عليه أسطورة بابلية تروي كيف فقد الإنسان الأول الحياة الخالدة. أن موضع اكتشاف هذا اللوح ـ وهو تل العمارنة ـ والنقاط المنتشرة عليه بحبر مصري أحمر تدل على الجهد الذي بذله العالم المصري لفهم النص المكتوب بلغة أجنبية وهو شاهد عيان على دراسة الأدب البابلي بحماس منذ تلك العصور القديمة حتىٰ في بلاد الفراعنة. وفيما العجب أن الشيء نفسه حدث في فلسطين سواء أكان في وقت مبكر أم متأخر، وإن سلسلة من روايات الكتاب المقدس تظهر فجأة في صيغتها الأولى من ظلمة تلال الكنوز البابلية؟.

قسّم البابليون تاريخهم إلى مرحلتين: مرحلة قبل الطوفان ومرحلة ما بعده. والحقيقة أن الأراضي البابلية شهدت الكثير من الطوفانات، وقد تعرضت مثل كل السهول الطمية التي تصب أنهارها الكبيرة في البحر ـ لأشكال رهيبة من الطوفانات: أعاصير أو زوابع مرافقة بهزات أرضية وهطول أمطار غزيرة. وإذا ما أخذنا بعين الإعتبار إنه حدث أعصار من هذا النوع في عام 1876 م ابتداء من خليج البنغال مع عاصفة رعدية

وبقوة ذهبت بصواري السفن على بعد 300 كم ثم اقترب من مصب نهر الكنج حيث اصطدمت بالجزر موجة الإعصار العالية والعريضة التي تحولت إلى موجة ضخمة غمرت مياهها في وقت قصير 141 ميلاً مربعاً مع ارتفاع 45 قدماً وأهلكت 215000 نسمة إلى أن ارتطم الفيضان بالمناطق المرتفعة، عندئذ يمكننا أن نتصور أبعاد الكارثة نتيجة إعصار من هذا النوع في السهول البابلية في تلك العصور القديمة.

وقد أثبت الجيولوجي المشهور «ادوارد سويس» من مدينة فيّنا خطوة خطوة حدوث مثل هذا الإعصار الذي أدى إلى الطوفان الموصوف في الرواية البابلية المكتوبة على اللوح الذي عثر عليه في مكتبة آشور بانيبال في مدينة نينوى ويعود تدوين هذا النص إلى الألف الثاني قبل الميلاد: كان للبحر الدور الأول ولذلك دفعت السفينة التي بناها نوح البابلي «زيوسودرا» نحو منحدرات الجبال الأرمينية ـ الميدية وما عدا ذلك تتطابق هذه الرواية وسفر الطوفان المعروف لجميعنا، إذ يأمر «إيا» إله أعماق المياه «زيوسودرا» ببناء سفينة بقياسات محددة وطليها بالقار ثم نقل أسرته إليها وبذر كل شيء، بعد دخولهم وإغلاق بابها تطفو السفينة على الأمواج العاتية حتىٰ تحط أخيراً على جبل اسمه «نصير» ثم يأتي النص المشهور: «وعندما حلّ اليوم السابع أتيت بحمامة وأطلقتها في السماء؛ طارت الحمامة بعيداً وما لبثت أن عادت إليّ. لم تجد مستقراً فآبت».

ونتابع النص القائل بإطلاق السنونو وعودته حتىٰ رأىٰ الغراب أخيراً أن الماء قد انحسر فلم يعد إلى السفينة؛ ثم يخرج «زيوسودرا» من المركب وعلى قمة الجبل يقدم القربان الذي يتشمم الآلهة رائحته الزكية... إلخ.

أن هذه الرواية بأكملها وبتمام هذا النص المكتوب هنا انتقلت إلى كنعان. ولكن هناك اختلافاً جوهرياً في طبيعة الأراضي وفات المؤلف أن

البحر كان العامل الرئيسي، وهكذا نجد في الكتاب المقدس روايتين عن الطوفان لا يمكن حدوثهما وفق العلوم الطبيعية فحسب بل تختلف الواحدة عن الثانية تماماً. فالرواية الأولى تحدد مدة الطوفان بـ 365 يوماً بينما تحددها الثانية بـ 40 + (7 X 3) = 61 يوماً.

علاوة على ملحمة كلكامش البابلية التي يشكل فيها اللوح الحادي عشر رواية الطوفان، نملك قطعة أدبية جميلة ثانية هي «ملحمة التكوين»: تبعاً لهذه الرواية كانت في البداية المياه الأولى المظلمة والفوضوية المسماة «تعامة» ولما باشر الآلهة في تنظيم الكون وقفت تعامة التي ظهرت أغلب الأحيان بشكل التنين أو بشكل الأفعىٰ ذي الرؤوس السبعة، معادية للألهة متسلحة بأشكال وألوان من الوحوش التي أظهرتها إلى الوجود، ولا سيما أفاع ملئت أجسادها بالسم. وبجيشها هذا تهيأت لبدء الصراع مع الآلهة. ارتجب الآلهة كلهم من الخوف لدى رؤيتهم العدو الرهيب، والإله «مردوخ» إله النور وإله شمس الصباح والربيع وحده كان مستعداً للصراع بشرط أن تكون له المكانة الأولى بين الآلهة، ثم يأتي مشهد رائع: صنع شبكة وثبتها عند الجهات الأربع حتىٰ لا تفلت منه تيامة. ثم اعتلىٰ بدرع مهيب وبهالة جليلة مركبته التي تجرها أربعة أحصنة متقدة النشاط وقد أحاط به الآلهة بنظرت الإعجاب. واندفع إلى اللقاء مع تعامة وجيشها ودعاها إلى معركة ثنائية. عند ذاك أطلقت صُراخها عالياً وهي هائجة مرتعدة من أعماقها. وعندما فتحت فمها دفع فيه الرياح الشيطانية ثم أطلق رمحه ومزق قلبها وطرح جثتها أرضاً واعتلىٰ عليها بينما رمىٰ أعوانها في الأصفاد. ثم شق جثة تعامة نصفين مثل سمكة، ورفع نصفها الأول وشكل منه السماء ومن نصفها الثاني شكل الأرض، فكانت قبة السماء فاصلاً بين المياه العليا والمياه السفلىٰ، وزيّن السماء بالقمر والشمس والنجوم وملأ الأرض بالنبت والحيوانات، وأخيراً خلق الزوجين الأوليين بمزيج من الطين والدم الإلّهي.

وبما أن مردوخاً كان إلّه بابل الرئيسي فلا عجب في أن انتشرت هذه

الرواية بالذات انتشاراً واسعاً في كنعان. وقد جعل شعراء العهد القديم وأنبياؤه «يهوىٰ» صاحب البطولة التي قام بها مردوخ ومجّده على إنه البطل الذي سحق رؤوس التنانين (المزمور 74: 13 و89: 11) والذي ينحني تحت أعوان رهب (أيوب 9: 13) ويبدو أن مواضع كثيرة في الكتاب المقدس كما في اشعيا (51: 9) «استيقظي استيقظي البسي قوة ذراع الرب. استيقظي كما في أيام القدم كما في الأدوار القديمة. أفلست أنت القاطعة رهب الطاعنة التنين». أو كما في أيوب (26: 12): «بقوته يزعج البحر وبفهمه سحق رهب» تفسرها الصورة الصغيرة التي عثرت عليها البعثة الألمانية وهي تمثل الإلّه مردوخ في جلالته وبذراعه القوية وعينه وأذنه الواسعتين اللتين ترمزان إلى ذكائه وتحت قدميه تنين المياه الأولى المغلوب عليه.

وقد حاول العالم الكهنوتي الذي ألّف سفر التكوين الإصحاح الأول أبعاد كل السمات الميثولوجية عن رواية التكوين هذه. لكن تتضح العلاقة الوثيقة بين رواية التكوين في العهد القديم ورواية التكوين البابلية من افتراضه بأنه المياه الفوضوية الداكنة المسماة تيامة بداية كل شيء ثم بروز السماء والأرض وتزيين قبة السماء الشمس والقمر والنجوم وأكساء الأرض بالنباتات ومثلها بالحيوانات وأخيراً خلق الزوجين الأولين على يد الله، وفي الوقت نفسه ندرك أسباب عدم نجاح كل المحاولات في التوفيق بين سفر تكوين العهد القديم ونتائج العلوم الطبيعية.

ولكن في إدراك هذه العلاقة ما هو أهم من ذلك:

إن في قلب كل إنسان ترسخت الوصايا التي تنص على ألا تَمُسَّ الآخر بسوء كما تريد ألا يمسك بسوء «فلا تقتل ولا تزن ولا تسرق» وهي الطلبات الأساسية التي تمليها علينا غريزة حب البقاء، وقد ألّفها البابليون على الشكل نفسه الذي ورد به الوصايا الخامسة والسادسة

والسابعة في العهد القديم. ولكن الإنسان أيضاً مخلوق يحتاج إلى الحياة الإجتماعية ولذلك تكون الواجبات مثل الاستعداد للمساعدة والرحمة والمحبة جزء من الطبيعة الإنسانية لا يتجزأ عنها. لذلك حينما يستدعىٰ الساحر البابلي إلى مريض ويبحث عن الذنب الذي ألقىٰ به علىٰ فراش المرض، لا يتوقف عند الذنوب الكبيرة مثل القتل أو السرقة، بل يسأل أيضاً: هل أمتنع عن إلباس عريان؟ هل منع أسيراً عن رؤية النور؟

وكان البابلي يهتم حتىٰ بمراتب الأخلاق الإنسانية العليا، فقول الحق والوفاء بالنسبة له واجب مقدس، كما أن التفوّه بالإيجاب مع النفي في القلب جريمة تستحق العقاب. ولا عجب أن البابليين، وشأنهم في ذلك شأن العبرانيين كانوا يعتبرون مخالفة تلك النواحي والوصايا خطيئة، لأن البابليين أيضاً كانوا يشعرون أن مصيرهم مرتبط بشكل مطلق بالآلهة.

أما الذي يجدر بالاهتمام بشكل خاص إنهم أيضاً اعتبروا معلناة الإنسان ولا سيما المرض والموت عقاباً لإرتكاب خطيئة. أن مفهوم الخطيئة يسيطر على بابل وعلى الكتاب المقدس على حدّ سواء. فنقرأ في العهد القديم الرواية الجميلة والعميقة عن إغراء الحية للمرأة. إذاً الحية مرة أخرى؟ وكأنها قصة بابلية: ترىٰ، هل هي الحية عدو الآلهة اللدود التي حاولت الانتقام من آلهة النور بإفساد أعلى مخلوقاتهم؟ أو هل هي الآله الذي قيل عنه إنه «هدم مسكن الحياة»؟

أن السؤال عن أصل رواية الخطيئة الأولىٰ المدوّنة في العهد القديم أهم سؤال فيما يخص تاريخ الدين ولا سيما في علم اللاهوت الخاص بالعهد الجديد، الذي كما هو معروف يضع مقابل آدم الأول المسؤول عن وجود الخطيئة والموت في الدنيا آدم الثاني. اتسمحون لي بأزاحة الستار؟ إذا، فأشير إلى ختم أسطواني بابلي قديم، في الوسط الشجرة بثمارها المتدكية وعلى الطرف اليمين الرجل المتميز بقرنين وهما رمز القوة، ثم على الطرف اليسار المرأة بيديها الممتدتين إلىٰ الثمرة ووراء

المرأة الحية. ألا يحتمل أن هناك رابطة بين الصورة البابلية القديمة ورواية العهد القديم عن الخطيئة الأولى؟

أن الإنسان يموت وبينما يوضع جسمه في القبر تنزل روحه المنفصلة عنه إلى «البلد الذي لا عودة منه» إلى «الشيول» أي الهاديس، وهو ذلك المكان المليء بالتراب، ذلك المكان المظلم الذي ترفرف فيه الأشباح مثل الطيور في وجود خامل وخال من السرور تغطي الغبرة الباب والمزلاج وكل ما ابتهج به قلب الإنسان سابقاً تحول إلى عفن وتراب.

تجاه مثل هذا المستقبل الكئب لا يستعصي عن الفهم أن العبرانيين والبابليين على حدّ سواء كانوا يعتبرون العمر الطويل خير ما يرجىٰ. ويشهد علىٰ ذلك الشارع الطويل الذي اكتشفته البعثة الألمانية في بابل والذي سارت عليه مواكب عباد الإلّه مردوخ، وهو شارع معبّد بألواح حجرية نقشت على كل منها صلاة من صلوات الملك نبوخذ نصّر، وكل صلاة تنتهي بالكلمات التالية: «يا ربي مردوخ أهدني عمراً طويلاً».

ولكن ما يدعو إلى العجب أن التصور البابلي عن العالم الأسفل الطف بعض الشيء من الذي نجده في العهد القديم. فعلىٰ اللوح الثاني عشر من ملحمة كلكامش نجد وصفاً دقيقاً جداً للعالم الأسفل البابلي. في هذا النص نقرأ عن مكان خاص بالناس الأكثر تقىً «حيث يضطجعون على الأرائك ويشربون الماء النقي».

وقد عثر على عدد كبير من التوابيت البابلية في الوركاء ونيبور وبابل، واقتنىٰ قسم الشرق الأدنىٰ التابع لمتاحف برلين مخروطاً طينياً صغيراً، كان قد وضع في أحد هذه التوابيت وعليه نقش كلمات مؤثرة تنص على رجاء من وجد هذا التابوت أن يتركه في مكانه ولا يمسه بضرر. ويختم هذا النص الصغير بدعاء البركة لمن يعمل هذا المعروف: «ليبقى اسمه مباركاً في الدنيا ولتشرب روحه الماء النقي في العالم الأسفل» أي أن يقيم في الشيئول في المكان الخاص بالناس الأكثر تقىٰ

حيث يضطجعون على الأرائك ويشربون الماء القراح.

أما بقية الشيول فيدخلها عموماً غير الأتقياء وهو مكان مليء بالتراب لا ماء فيه أو إذا وجد كان ماء معكراً على أكثر تقدير. على كل حال إنه مكان يعاني فيه من العطش، أليس كذلك؟

وفي سفر أيوب الذي يبدو إنه كان عليماً بالمعتقدات البابلية تجد في (24: 18) الفرق بين صحراء حارة وخالية من الماء للمخطئين وجنة تجري فيها المياه النقية للأتقياء.

وأخيراً نعرف أن التخيل عن رسل الإله أي الملائكة منشؤه بابل أيضاً، ولا يذكرهم المصريون القدامىٰ البتة. وكذلك صور الكروبيم والساروفيم والملائكة الحارسين الذين يرافقون الإنسان ترجع في أصلها إلى بابل.

كان الملك البابلي بحاجة إلى جيش من الرسل ليحملوا أوامره إلى كل أنحاء العالم، ولذلك كان لا بد من أن للآلهة أيضاً كتيبة من الرسل أو الملائكة منتظرين الأوامر. ويتميز هؤلاء الرسل بذكاء الإنسان ولذلك كان لهم شكل إنساني ولكنهم مجنحون لينقلوا أوامر الآلهة عبر الهواء إلى سكان الأرض. بالإضافة إلى ذلك اتصف هؤلاء الملائكة بباصرة النسر الثاقبة وسرعته كما اتصف الذين كانوا يحرسون بوابات مقر الإله بقوة الثور الفائقة أو هيبة الأسد، وهكذا يكون الملائكة البابليون والآشوريون كما في رؤى النبي حزقيال في هيئة مركبة مثل الكروبيم المجنحين وبجسم الثور والوجه الإنساني الرصين. ولكننا عثرنا في بلاط «آشور نصربال» أيضاً على صور تشبه صورنا الحالية للملائكة إلىٰ أبعد الحدود وسوف نحفظ لهذه المخلوقات النبيلة والرائعة التي حببها إلينا الفن مكاناً خاصاً في قلوبنا.

أما الجن والشياطين سواء اتصورناهم أعداء الإنسان أو أعداء الله اللدودين فيحسن بنا توديعهم إلى الأبد لا سيما ونحن رافضون الثقافة

الفارسية القديمة. ويقول اشعيا أعظم الأنبياء في العهد القديم بحق: «مصور النور وخالق الظلمة صانع السلام وخالق الشر. أنا الرب صانع لكل هذه» (اشعيا 45: 7) لذا فعلىٰ الجن مثل هذين الجنيين (صورة) لا تخلو الصورة من أهمية لتاريخ المبارزة ـ أو الوجه المخيف مثل الوجه المصور في (الصورة) أن يعودوا بلا رجعة إلىٰ ظلمة التل البابلي الذي أتيا منه.

ختاماً.

وجد فكتور بلاس أثناء الحفريات في خورساباد مشاغل بلاط الملك سرجون: منها مستودع أوان فخارية من كل شكل وكل حجم. ومستودع آخر وجدت فيه أدوات مصنوعة من الحديد. وكانت هناك مخزونات كبيرة ومرتبة ترتيباً حسناً من السلاسل والمسامير والسدادات والفؤوس البسيطة والمجنحة وقد أمتاز الحديد بصنع جيد جعله يطن مثل ناقوس عند دقه، وكانت بعض هذه الأدوات التي تعود بعمرها إلى 25 قرناً في حالة جيدة إلى درجة أن العمال العرب كانوا يستعملونها مباشرة ويبدو لنا وصول العصور الآشورية القديمة بهذه الصورة الواضحة إلى وقتنا الحاضر غريباً فعلاً وقد حدث الشيء نفسه على صعيد الحياة الفكرية.

عندما نميز بين بروج السماء الاثني عشر التي نسميها برج الحمل والثور والجوزاء وما شابه ذلك. وعندما نقسم الدائرة إلى 360 درجة والساعة إلى 60 دقيقة والدقيقة إلى 60 ثانية يمكننا أن نلاحظ في كل هذه الأمور تأثير الحضارة السومرية والبابلية إلى يومنا هذا.

وأرجو إنني أفلحت في عرض الأدلة التي تشير إلى أن تفكيرنا الديني بواسطة الكتاب المقدس ما يزال يلونه الكثير من العناصر البابلية. وبالتحرر من تصورات تلك الشعوب النابغة حقاً وبتحرر تفكيرنا من كل أحكام مسبقة ومترسخة، لن نمس في شيء الدين في جوهره كما علّمه الأنبياء وشعراء العهد القديم.

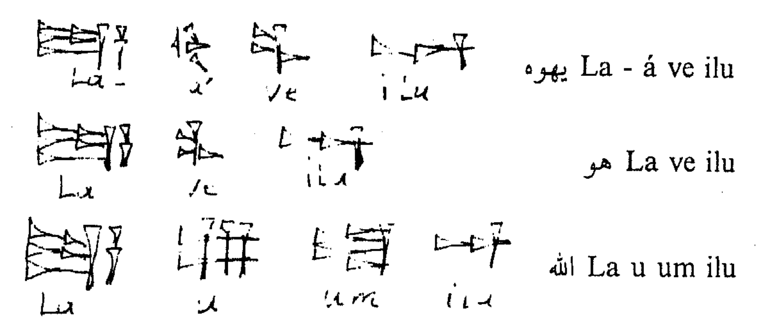
وأريد أن أقول كلمة أخيرة عن أهمية الكتاب المقدس بالنسبة إلى التاريخ العالمي وهي:

مذهب التوحيد. هنا أيضاً فتحت لنا بابل أبعاداً جديدة غير متوقعة. لِما تتصف به لفظة الجلالة السامية «الله» بوضوح، بالإضافة إلى سموها وعمقها إلى حد أن هذه الكلمة الوحيدة تذهب بخرافة «افتقار الساميين الغريب إلى النظرة الدينية، وكذلك بالرأي الحديث والمنتشر في أن دين «يهوه» وفيما بعد الدين المسيحي دين متطور عن نوع من الفتشية والإيمان بروحانية الطبيعة ووجود الأرواح كما هو الحال عند الشعوب البدائية على الجزر في المحيط الهادي أو الهنود الحمر المعتمدين على الصيد والالتقاط.

أن تلك الكلمة من اللغات السامية القديمة أو بالأحرى ذلك الحرف الدال على «الله» والذي نعرفه جميعنا هو «إِيل» ويعني الهدف أي الكائن الذي تتجه إليه عيناً الإنسان وهو ينظر إلى السماء كما ينظر إلى هدف معين. «كل إنسان يبصر به. الناس ينظرونه من بعيد» (أيوب 36: 25)، هذا الكائن الذي يمدّ الإنسان إليه يده ويشتاق إليه قلبه مدفوعاً بعدم استقرار هذه الحياة الدنيوية ونقصها ـ أن هذا الكائن كانت تسميه القبائل السامية «إيل» أو «الله» ولما كانت تنظر إلى هذا الكائن الإلّهي على إنه وحدة متكاملة نجد عند تلك القبائل السامية الشمالية التي استقرت في حوالي 2500 ق. م في مملكة بابل أسماء «عطا الله» و«الله معي» و «من ملكوت الله» و«الله أرفع وجهك إليّ» و«الله هو الله» و «لو لم يكن الله إلّهي».... إلخ. هناك ثلاثة ألواح طينية، في المتحف البريطاني نستطيع أن نرى على هذه الألواح المصنوعة من الطين الهش، خط منقوش غير واضح؟ ذات قيمة كبيرة أولاً للتأكد من التاريخ الذي تعود إليه وهو عصر «حمورابي» من فترة حكم أبيه «سن موباليت» وثانياً للأهمية الكبرى التي تستمدها من ثلاثة أسماء مكتوب عليها والتي لها أهمية كبرى بالنسبة إلى تاريخ الديني وهذه الأسماء هي: بمعنى «يهوه هو الله» ومعنى يهوه

(على حسب معلوماتنا الكائن والدائم أي الذي لا يتغير ولا يزول مثلما يزول البشر بل الذي يوجد فوق قبة السماء ونظام الكواكب الأزلي، والذي يؤثر في العالم من جيل إلى جيل.

أن اسم «يهوه» هذا ملكية فكرية لتلك القبائل البدوية التي انفصل عنها بنو إسرائيل بعد ألف سنة.



أما ديانات الساميين المهاجرين إلىٰ مملكة بابل فاختفت بسرعة في معتقد تعدد الإلٓهة المترسخ لدىٰ أقدم سكانها منذ قرون. ويبدو لنا مجمع الآلهة هذا ظريفاً إذ أن الألٓهة البابلية كائنات حية وعليمه وحاضرة في كل مكان وكل زمان وتستجيب لصلوات البشر وعلى الرغم من غضبها على ذنوب الناس فأنها على استعداد دائم للغفران والرحمة. ولا نجد في صور الآلهة البابلية الفنية مثل صورة إلٓه الشمس الجالس على العرش في مقدسه في «سبار».

وإذا كان النبي حزقيال في رؤياه قد رأى الله راكباً عربة شدت إليها أربعة مخلوقات لكل منها أربعة وجوه وجه إنسان وأسد وثور ونسر (حزقيال 1 : 10) وعلى الحيوانات شبه مقبب كمنظر البلور منتشراً على رؤوسها من فوق (حزقيال 1 : 22) وفوق المقبب الذي علىٰ رؤوسها شبه عرش كمنظر حجر العقيق الأزرق وعلىٰ شبه العرش شبه كمنظر إنسان عليه من فوق (حزقيال 1 : 26) هذا منظر شبه مجد الرب (حزقيال 1 : 28) وكل ذلك «مثل منظر نار ولها لمعان» (حزقيال 1 : 27) فأن أسطوانة

بابلية قديمة ترينا منظر إلّه شبيهاً بهذا الوصف شبهاً يدعو إلى الدهشة: على سفينة عجيبة ينتهي كل من مقدمتها ومؤخرتها إلى جسم إنسان حي يقف كاروبان ظهراً لظهر ولكن وجههما الإنسانيين موجهان إلى الإمام وتدل وقفتهما على وجود كاروبَين آخَرين على الطرف الآخر. وعلى ظهرهما مقبب وعليه عرش يجلس عليه الإلّه بلحية ومرتدياً رداء طويلاً وعلى رأسه القلنسوة. وفي يمينه صولجان وخاتم ووراء العرش يقف خادم الإلّه في انتظار إشارة من يده وهو يشبه الرجل «اللابس الكتان» (حزقيال 9: 3 و10: 2). الذي هو الآخر ينفذ أوامر يهوه. وعلى الرغم من تعليم كبار العلماء الصريح أن «نرجال ونبو إلّه القمر وإلّه الشمس وإلّه الرعد» وكل الآلهة فقد بقي الإيمان بتعدد الآلهة الدين البابلي الرسمي بشكل مطلق ـ أمثولة لخمول الناس والشعوب فيما يخص الأمور الدينية وللسلطة القوية في أيدي كهنة في نظام محكم.

وحتىٰ دين «يهوه» الذي وَحَدّ به موسىٰ قبائل إسرائيل الاثنتي عشرة، بقي موصوما ببعض العيوب الإنسانية: بتصوره الإلّه في صورة الإنسان وبالطقوس المرتبطة بالضحايا البشرية كما كانت سائدة في طفولة الجنس البشري وبشريعة سطحية لم تمنع الشعب قبل سياقه إلى المنفى على الارتداد المستمر عن الدين بعباده الإلّه «بعل» والإلّهة «عشتار» إلّهي الشعب الأصلي الكنعاني، وذلك لدرجة إنهم قدموا حتىٰ أبناءهم وبناتهم للإلّه بعل قرباناً، بالإضافة إلى فكرة «التميّز الإسرائيلي» حتىٰ جاء الأنبياء مثل النبي يوئيل بمواعظهم يطلبون بأن تمزّق القلوب لا الثياب. وكما نقرأ في المزامير (51: 17) «ذبائح الله هي روح منكسرة. القلب المنكسر والمنسحق يا الله لا تحتقره» ويدعون بذلك إلى تقريب الدين من نفس الإنسان، إلى أن بدأ عصر جديد وهو عصر «العهد الجديد» بمواعظ السيد المسيح ودعوته إلى عباده الله الرب رب البشر أجمعين بالروح وبالصدق.

نستنتج من كل ما سبق أن الشعوب المسيحية خلال ألفي سنة تقريباً

استقت تصوراتها عن باب وآشور والبابليين والأشوريين من التوراة فقط. فالأشوريون صُوّروا قساة دمويون. أما البابليون وملوكهم فقد شبهوا بالإناس الفاجرين، كل ذلك لأنهم كانوا مسلّطين على بني إسرائيل.

بينما، وعلى العكس كل هذه افتراءات وأباطيل لما تركه هؤلاء من تأثيرات في الحضارة الإنسانية في مجالات عدّة ـ كما ذكرنا ـ منها العلوم والتكنيك والتاريخ والميثولوجية والأدب والعمل العسكري والطب والزراعة والرياضيات وغيرها.

الملحق الأول

سقوط آدم
القصة في سفر التكوين وملحمة كلكامش

نقرأ في ملحمة كلكامش كيف أن اوتنابشتيم الإنسان المؤلّة، أفشىٰ للبطل جلجامش سر وجود نبات له مقدرة سحرية علىٰ إعادة الشباب إلى الإنسان، يطلق عليه اسم «الرجل الكهل يعود شاباً»، وكيف أن كلكامش اهتدىٰ إلى هذا النبات وإصابة الزهو بأنه سيأكل منه ويسترجع شبابه الذي ولى، ثم كيف أن حية تسللت، قبل أن يأكل كلكامش من هذا العشب، وسرقت النبات السحري بينما كان جلجامش يستحم في المياه الباردة في أحد الينابيع أو الغدران، ثم كيف أن كلكامش بعد أن فقد الأمل في اكتساب الخلود، جلس وبكىٰ. حقاً أن الملحمة لا تذكر صراحة أن الحية اكتسبت الخلود عندما التهمت ذلك النبات ولكن ربما كان حذف هذه مرده إلى غموض النص وما فيه من عيب.

وفي النص التوراتي الحية هي الأخرى التي تكون سبباً لسقوط الإنسان آدم وفنائه وإنه فقد الخلود عن طريق عصيانه[1].

(1) ج 1 ص 52 الفولكلور في العهد القديم جيمس فريزر.

الملحق الثاني

موسى في صندوق القش

تحيط ميلاد موسىٰ، شأن كل أحداث حياته، هالة من الخيال. فقد قيل أن سلالة يوسف وأخوته وهم أبناء إسرائيل، تكاثرت في سرعة في مصر بعد موت يوسف وأخوته، إلى درجة أن أخذ المصريون ينظرون إليهم بعين الفزع وعدم الثقة، وحاولوا أن يحوّلوا دون تكاثرهم عن طريق تشغيلهم في الأعمال الشاقة التي ربما قضت عليهم. ولكن لما فشلت هذه المعاملة في تحقيق النتيجة المرغوبة، أمر الملك المصري بقتل أطفالهم الذكور أثر ولادتهم. ولكن لما كانت القابلات اللاتي كلفن بتنفيذ هذا الأمر القاسي يتهربن من تنفيذ ذلك، فقد أمر الملك شعبه جميعاً بأن يطرح كل طفل ذكر يولد للعبريين في النهر. وعندما ولد موسىٰ في هذه الظروف، أخفته أمه أول الأمر طيلة ثلاثة شهور، ولكنها لما لم تستطع إخفاءه أكثر من ذلك، فقد صنعت له سفطاً من القش أو بالأحرىٰ من نبات البردي وطلته بالطين والقار، ووضعت فيه طفلها، ثم حملت السفط والحزن يملؤها، ووضعته بين الأعشاب على شاطىء النهر ورحلت، بينما ظلت أخت موسىٰ الكبرىٰ واقفة على شاطىء النهر لتراقب ما يحدث له. وتصادف أن كانت ابنة فرعون ملك مصر، تستحم في النهر. فلما أبصرت السفط بين الأعشاب أرسلت إحدى خادماتها لتحضره. ولما فتحت الأميرة السفط وأبصرت الطفل، مدت يدها لتمسكه فبكىٰ الطفل، فأشفقت عليه وقالت: «هذا من أولاد العبرانيين» (الخروج: 2: 6).

وبينما كانت تنظر للطفل، جاءتها أخت الطفل، التي كانت ترقب من بعيد ما يحدث وقالت للأميرة: «هل أذهب وأدعو لك مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد. فقالت لها ابنة فرعون، اذهبي. فذهبت الفتاة ودعت أم الولد. فقالت لها ابنة فرعون أذهبي بهذا الولد وأرضعيه لي وأنا أعطيك أجرك. فأخذت المرأة الولد وأرضعته. ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون فصار لها ابناً. ودعت اسمه موشي (موسى) وقال لأني انتشلته من الماء». (**الخروج 2: 7 ـ 10**).

وعلى الرغم من خلو قصة ميلاد موسى وترعرعه في كنف أمه ثم في كنف ابنة فرعون من العناصر الخارقة للعادة، إلا إنها تحتوي على ملامح يمكننا أن ننسبها، بعد شيء من التدبر، إلى مجال الفولكلور أكثر من أن ننسبها إلى التاريخ. إذ يبدو أن القاص، لكي يزخرف معجزات حياة البطل، رغب في أن يحكى كيف تعرض الرجل العظيم أو المرأة العظيمة للخطر ساعة ميلاد الطفل، وكيف أن الطفل لم ينقذ من الموت المحقق. إلا من خلال حادثة تبدو للعين العادية إنها حدثت صدفة، وأن تكن قد أثبتت حقاً أن يد القدر قد تدخلت لتنقذ الطفل العاجز من أجل المصير الكبير الذي ينتظره. ومثل هذه الأحداث ينظر إليها في كثير من الحالات بوصفها زخرفة اخترعها القاص. ولمسات تصويرية إضافها لكي يسمو بتأثير القصة البسيطة التي رأى إنها لا تليق بجلالة هذا الموضوع.

وقد أمدنا تاريخ الشرق بمثال لمثل هذه القصة التي ألقت الضوء على بداية عهد الامبراطورية القوية: فقد كان «سرجون» الأكبر أول ملك سامي حكم بابل في حوالي 2600 سنة ق. م وقد استطاع هذا الملك أن يخلد اسمه عن طريق انتصاراته الرائعة وأعماله البناءة. ولكنه على الرغم من ذلك فأنه لم يكن يعرف له أباً. وهذا هو كل ما نعرفه من النقوش التي قيل إنها كانت قد نقشت على أحد تماثيله. وقد نسخت هذه الكتابات في القرن الثامن قبل الميلاد، وأودعت في المكتبة الملكية في

نينوى حيث اكتشفت في العصر الحديث، وفي هذه الوثيقة يحكي الملك تاريخ حياته المبكرة على النحو التالي:

أنا «سرجون»، الملك القوي، ملك أكاد.

كانت أمي سيدة متواضعة، أما أبي فلا علم لي به

ولكن عمي كان يسكن الجبال

ومدينتي هي (ازوريبانو التي تقع على شاطىء الفرات

وقد حملتني أمي المتواضعة وولدتني سراً

ثم وضعتني في سلة من الأسل وأحكمت إغلاقها بالقار

وطرحتني في النهر الذي لم تغرقني مياهه

ثم حملني التيار إلى السقاء (آكي) فحملني معه

«آكي» السقاء. . . انتشلني من المياه

«آكي» السقاء كفلني كما يكفل ابنه

«آكي» السقاء عينني بستانياً له

وبينما كنت أعمل بستانياً أحبتني الآلهة عشتروت

ولمدة أربع سنوات حكمت المملكة

وحكمت الشعوب ذات الرؤوس السوداء وأخضعتها.

وتشبه حكاية أبعاد الطفل سرجون في سلة من الأسل وضعت عند شاطىء النهر حكاية أبعاد موسى الطفل في سفط من القش الذي وضع بين الأعشاب عند شاطىء النيل. وحيث إنه ليس هناك مجال للشك في أن الحكاية البابلية أقدم بكثير من الحكاية العبرية، فأنه يترتب على هذا أن كاتب سفر الخروج ربما كان يعرف الحكاية البابلية وإنه ألف الحكاية العبرية على نوطها. على إنه من المحتمل من ناحية أخرى أن تكون

الحكايتان قد نشأتا مستقلتين من الجذور العامة للخيال الشعبي. ومن ثم فحيث إننا نفتقر إلى دليل يمكن أن يحسم في تأثر أي الحكايتين بالأخرى، فلا مجال إذن لأن ندلي بوجهة نظر في هذا الموضوع[1].

(1) جيمس فريزر: الفولكلور في العهد القديم ترجمة د. نبيلة إبراهيم. مراجعة د. حسن ظاظا. الجزء الثاني. الهيئة المصرية العامة للكتاب 1974. ص 7 ـ 9.

الملحق الثالث

التوحيد
لدى العراقيين القدماء

تُظْهِر الأدبيات الدينية الرافدية، بشكل خاص هذا التوجه التوحيدي، وخصوصاً ما تعلق منها بالصلوات، والتراتيل. فهنا، يتم التوجه إلىٰ إلّه كل عبادة محلية علىٰ إنه الإلّه الحق وكبير الآلهة وأعظمهم.

ولنبدأ أولاً بهذه الترتيلة السومرية للإلّه انليل والتي كانت تنشد في معبده الرئيسي المدعو ايكور في مدينة نيبور. ونظراً لطول الترتيلة التي يبلغ حوالي المئة والسبعين سطراً، فأني اكتفي فيما يلي بمنتخبات منها تفي بالغرض:

1 ـ انليل ذو الكلمة والأوامر النافذة،

2 ـ يُقدّر المصائر للمستقبل البعيد وأحكامه لا مبدل لها،

3 ـ عيناه الشاخصتان تمسح الأمصار،

4 ـ وأشعته تفحص قلب البلاد،

5 ـ عندما يعتلي الأب انليل منصته السامية،

6 ـ عندما يقوم نونامنير بواجبات السيادة علىٰ أكمل وجه،

7 ـ ينحني أمامه آلّهة الأرض طوعاً،

8 ـ يتضع أمامه الانوناكي إلّهة الأرض،

9 ـ ويقفون في استعدادٍ وترقب لتنفيذ الأوامر،

10 ـ الرجل المبجّل في السماء والأرض، العليم الذي يفهم الأحكام،

92 ـ انليل راعي الجموع المؤلفة،

93 ـ راعي جميع الكائنات الحية وحاكمهم،

95 ـ عندما يعتلي منصته فوق ضباب الجبال،

96 ـ يزرع السماء غدواً ورواحاً، كقوس قزح،

97 ـ يجعلها تميد كغيمة سابحة،

98 ـ وحده أمير السماء، وحده عظيم الأرض،

99 ـ ووحده ربّ الانوناكي المبجّل،

100 ـ عندما، بكل ورع، يقرر المصائر،

101 ـ لا يجروء أحد من الآلهة على رفع البصر إليه،

109 ـ لولا انليل، الجبل العظيم، لم تبن المدن ولا القرى،

117 ـ ولم يفض البحر بكنوزه الوفيرة،

118 ـ ولم يضع السمك بيوضه بين أجمات القصب،

119 ـ ولم تصنع الطيور أعشاشها في طول البلاد وعرضها،

120 ـ لولاه لم تفتح الغيوم الماطرة أفواه السماء،

121 ـ ولم تمتلىء الحقول والمروج بخيرات الحبوب،

122 ـ ولم تطلع الحشائش والأعشاب بهيّة في البوادي

123 ـ ولم تحمل الأشجار الضخمة في البساتين ثمارها،

124 ـ لولا انليل العظيم.

125 ـ لم يكن للآلهة ننتو أن تجلب الموت، لم يكن لها أن تقتل

126 ـ ولم يكن لبقرة أن تضع عجلها في الأسطبل،

127 ـ ولم يكن لغنمة أن تنجب حملها في الحظيرة،

130 ـ ولم يكن لذوات الأربع نسل ولم يقفز ذَكَرها على أنثى

131 ـ أن أعمالك البارعة تثير الروع،

132 ـ ومراميها عصية كخيط متشابك لا يمكن فكّه،

136 ـ فمن يقدر على فهم أفعالك،

140 ـ أنت قاضي وصاحب الأمر فيه،

141 ـ عندما تنطق يلوذ الآلهة الانوناكي بالصمت،

143 ـ عندما تصعد كلمتك نحو السماء تغذُو عموداً، وعندما تهبط نحو الأرض تصير قاعدة وأساساً.

150 ـ كلمتك زرع، كلمتك قمح وحبوب

151 ـ كلمتك ماء الفيض الذي به تحيا البلاد،

170 ـ أي انليل أيها الجبل العظيم لك الثناء والحمد[1].

في ما قدمته أعلاه من هذه الترتيلة الطويلة، نجد انليل يمسك بيديه صلاحيات جميع الآلهة الرئيسية المعروفة في المجمع السومري، فهو ربّ السماء، ورب الأرض، ورب الشمس، ورب الخصب، والزرع، ورب الماء وواهب الحياة، ورب الموت. وباختصار إنه «الله» الذي لا شريك له في السلطان. أما بقية الانوناكي من آلهة المجمع السماوي فليس أكثر من مجمع ملائكة وقديسين يقفون في حضرة القدرة الإلَهية ولا يستطيعون رفع أبصارهم إلى مركز النور الأسمىٰ (انظر الأسطر: 7، 8، 101) خميرة الكون الفاعلة، ومصدر وجوده وصيرورته.

غير أنّ انليل لم يكن وحده من ارتدى قناع الإلَه الواحد الذي يجسد الألوهة المطلقة في المعتقد السومري. فهاهم كهنة إنانا يرفعون إلَهتهم إلى مقام انليل نفسه، ويقولون لنا في هذه الترتيلة المرفوعة إلى إنانا، إنها تعبد في كلّ المعابد السومرية الرئيسية المخصصة أصلاً للآلهة

(1) S. N. Kramer, Sumerian Hymn (in James pritchard, edi, Ancient Near Eastren Texts), P. 573 - 576.

المحلية. وهذا يعني إنهم لا يرون في آلهة المدن إلا صوراً وتجليات للألوهة المؤنثة الكونية المتمثلة في الأم الكبرى القديمة للثقافة الرافدية، وهذا هو النص الكامل:

أعطاني أبي السماء، وأعطاني الأرض
أني ملكة السماء، وملكة الأرض أنا
وما من إلّه قادر على منازعتي
أعطاني انليل السماء، وأعطاني الأرض
إني ملكة السماء، وملكة الأرض أنا
أعطاني انليل الربوبية
أعطاني الملوكية
أعطاني القتال والمعركة
أعطاني الطوفان وأعطاني العاصفة
أعطاني السماء لي تاجا
وربط الأرض إلى قدمي صندلاً
خلع عليّ طيلسان النواميس الإلّهية
وثبّت في يدي الصولجان المقدس
الآلهة...... إني أنا الملكة،
حولي يتراكض الآلهة، وأنا البقرة البرية واهبة الحياة
أنا البقرة البرية التي تتصدر الجميع
عندما أدخل الايكور، بيت انليل
لا يجرؤ الحراس على منعي
ولا يقول لي وزيره انتظري
لي السماء ولي الأرض، أنا سيدة المعارك
في مدينة اوروك، معبد الإيانا، لي

في مدينة زابالوم، معبد الجيجونا، لي

في مدينة اور، معبد إشدام، لي

في مدينة آداب، معبد العيشارا، لي

في مدينة كيش، معبد خورساخ كالاما، لي

في مدينة دير، معبد أماش لوجا، لي

في مدينة أشاك، معبد آن زاكار، لي

في مدينة اوما، معبد ايجال، لي

في مدينة إكاد، معبد ادلماش، لي

فهل هناك من إلّه قادر على منازعتي[2]..؟

ولدينا صلاة مرفوعة إلى الإلّهة إنانا من الكاهنة أنحيدوانا إبنة الملك سرجون الأول ملك أكاد، والصلاة مكتوبة باللغة السومرية (التي بقيت بمثابة لغة مقدسة لفترة طويلة بعد صعود العناصر السامية إلى سدّة السلطان). وفيها توكيد على جوانب القوة والجبروت في شخصية الإلّهة. يتألف النص من حوالي 150 سطراً أقدّم فيما يلي منتخبات منه:

1 ـ سيدة النواميس المقدسة، أيها النور المشع.

5 ـ من تمسك بيدها النواميس السبعة.

8 ـ من تجمع النواميس المقدسة إلى صدرها.

9 ـ من تنفث السمّ في الأرض كالتنين.

10 ـ تذوي المزروعات عندما تهدرين مثل أشكور (= إلّه الرعود والمطر).

11 ـ تأتين بالطوفان من الجبال العالية.

12 ـ تمطرين على البلاد لهباً وناراً.

---

(2) Ibid, P.P. 578 - 579.

26 ـ وفي معمعان القتال تقضين على كل ما أمامك.

27 ـ أي مليكتي، أنت المبيدة في قوتك.

28 ـ تهجمين كالأعصار الداهم.

30 ـ وترعدين بصوت أعلى من العاصفة الزاعقة.

31 ـ وتعولين بصوت أعلى من الرياح الشيطانية.

34 ـ أي مليكتي، إن إلّهة الانوناكي.

35 ـ يهربون أمامك كالخفافيش المرتعشة.

36 ـ لا يصمدون أمام وجهك الغضوب.

37 ـ لا يستطيعون اقتراباً من جبينك المهوب.

38 ـ وما من قادر على تهدئة قلبك المشبوب.

40 ـ أي مليكتي، أنت فرحة مبتهجة الفؤاد.

41 ـ ولكن (غضب) قلبك لا يمكن تهدئته يا ابنة سن.

42 ـ أي مليكتي المعظمة في البلاد، من يعطي طاعتك حقها.

43 ـ في الأقطار التي لم تعلن لك الولاء يذوي كالزرع.

55 ـ ولا تحدث المرأة زوجها حديث الحب.

56 ـ وفي ظلمة الليل لا تهمس له كلمات الحنان.

57 ـ ولا تظهر مكنون الفؤاد.

59 ـ أي مليكتي أنت أعظم من (كبير الآلّهة) أنّ من يعطي طاعتك حقها.

60 ـ وفق النواميس الواهبة الحياة، أنت ملكة الملكات.

61 ـ أنت أعظم من الأم التي ولدتك منذ خروجك من الرحم.

62 ـ أنت العلية الحكيمة، مليكة كل البلاد.

63 ـ يا من تكثيرين النسل للإنسان وكل الأحياء أغني بذكرك.

112 ـ أي ربة الأفق وذروة السماء.

113 ـ أن الانوناكي يخرّون أمامك راكعين.

116 ـ أن الآلهة يقبلون الأرض أمامك.

123 ـ أنت يا من تتسعين سعة الماء.

124 ـ أنت يا من تطولين طول الأرض.

153 ـ أي مليكتي، إنانا، المتشحة بالفتنة لك الحمد والثناء[3].

تكمل صلاة الكاهنة انحيدوانا هذه، الصورة التي رسمتها الترتيلة السابقة لإنانا بأعتبارها الآلهة العليا الوحيدة. فبعد أن رأيناها تُعبد في كل المعابد الرئيسية المخصصة لآلهة المدن المحلية، نراها هنا تمسك بيدها النواميس السبعة (السطر 5) وهي نواميس آلهة سومر الرئيسية: آن وانليل وانكي وننخرساج وأوتو وإنانا نفسها. وهذه النواميس هي التي تُمكّن الآلهة من الحكم وممارسة السلطان.

كما أن صلاة أنحيدوانا تنصّ بصراحة على أن مكانة إنانا هي فوق مكانة كبير الآلهة (السطر رقم 59)، وهذا يعني إنها الأول في مجمع الآلهة، حيث «يخر الانوناكي أمامها راكعين» (السطر رقم 113)، و «يقبلون الأرض أمامها» (السطر قم 116) و«يهربون أمامها كالخفافيش المرتعشة» (السطر رقم 35).

وفي ترتيلة بابلية أخرى إلى عشتار، نجد الوجه الأخر الصبوح للآلهة في مقابل الوجه الغضوب الذي طالعتنا به التراتيل والصلوات السابقة. فهنا يقدم لنا كاتب الترتيلة عشتار كسيدة للحب والشهوات ويطنب في وصف سحرها وجمالها، مع الحفاظ على مكانتها كسيدة للآلهة. وهذا النص أقصر من سابقه بكثير، أقدم فيما يلي بعضاً من سطوره:

لك الثناء أيتها الآلهة الأكثر روعاً بين الإلهات،

---

(3) Ibid, P.P. 579 - 581.

لك التبجيل يا سيدة البشر وأعظم آلهة السماء.
هي المتشحة بالحب والمتع والرغبات
هي الطافحة حياة وسحراً وشهوات.
هي شفاهها حلاوة، وفي فمها الحياة
بظهورها تكتمل البهجة والسعادة
هي الممجدة ورأسها يغطيه النقاب
هيئتها الجمال وفي عينيها الألق
بيدها تمسك مقادير الأمور جميعاً
حينما تنظر تخلق فرحاً وسعادة
هي الروح الحافظ، القوة والعظمة
تسكن في الحنان والألفة وترعاها
تحمي الأمهات والفتيات الوحيدات، والمستعبدات
وبين النساء اسم واحد يُنادي به، هو اسمها
رائعة أحكامها، سامية وقوية،
عشتار ما لها في العظمة من مثيل
رائعة أحكامها، سامية وقوية،
مكانتها عالية سامية، وكل الآلهة يقصدونها
كلمتها محترمة نافذة بينهم
هي الملكة عليهم ينفذون أوامرها على الدوام
وينحنون بخضوع أمامها، رجالاً ونساءً يوقرونها
وفي مجمعهم كلمتها هي المسيطرة، هي العليا... (4)
لقد وصفت إنانا في صلاة الكاهنة انحيدوانا بأنها أعظم من الإله

---

(4) P. J. stephans Ibid. P. 383.

آن، إلّه السماء وكبير الآلهة ورئيس مجمعهم ولكن الترتيلة التي سنقدمها بعد قليل تطلق على الإلّه نانا/ سن، إلّه القمر. اسم آن/ آنو بالذات، الأمر الذي يدلّ في اعتقادنا على أن لقب آن آنو ليس إلا فكرة عن الألوهة السامية، ومنصباً يمكن أن يرتقي إليه أي إلّه رئيسي من الإلّهة (آلهة المجمع).

نقرأ في هذا النص المكتوب بالسومرية والأكادية على لوح واحد ما يلي.

ويمكننا أن ندرجه نحن تحت عنوان «يلد ولم يولد، ينجب ولم ينجبه أحد»:

أيها الرب، بطل الآلهة، من مثلك مُعظَّم في السماء والأرض
أيها الأب نانا، الرب أنشار، بطل الآلهة.
أيها الأب نانا، الرب الكبير آنو، بطل الآلهة.
أيها الأب نانا، الرب سن، بطل الآلهة.
أيها الأب نانا، ربّ مدينة اور، بطل الآلهة.
أيها الأب نانا، ربّ التاج الساطع، بطل الآلهة.
أيها الأب نانا، صاحب الملك الكامل، بطل الآلهة.
أنت المولود الذي أنجب نفسه بنفسه تاماً كامل الهيئة
أن الرحم الذي أنجب كل شيء
الذي يقيم بين البشر في مسكنه المقدس.
الوالد الرحيم في قضائه، من يمسك بيديه حياة البلاد
أيها الربّ، يا من تملأ قداسته البحر الواسع روعاً وأعماق السماء،
أيها الأب الذي أنجب البشر والآلهة
الذي أوجد المقامات والهياكل، وأسس القوانين والتقدمات
أنت ربّ الملكية، واهب السلطان

أنت مقرر المصائر إلى نهاية الأزمان
أيها الأمير القدير الذي لا يستطيع إلّه سبر قلبه
شعاعك ينطلق من قاعدة السماء إلى ذروة السمت
وتفتح أبواب السماء لتهب النور لكل البشر
أيها الأب الوالد، الذي ينظر بعين العطف إلى كل الأحياء
أيها الرب الذي يقدّر مصائر السماء والأرض
صاحب الكلمة التي لا يقدر أحد على تغييرها
أنت المتحكم بالماء والنار، وليس لك بين الآلهة شبيه
من المبجل في السماء؟ أنت، أنت وحدك المبجّل
من المبجّل في الأرض؟ أنت، أنت وحدك المبجّل
عندما تُسمع في السماء كلماتك يخرّ الأيججي صاغرين
وعندما تُسمع كلماتك في الأرض يُقبِّل الانوناكي الأرض أمامك
عندما تنطلق كلماتك في السماء كالريح، تفيض خيرات الطعام والشراب
وعندما تستقر كلماتك في الأرض، يطلع كل زرع ونبات
كلماتك تملأ الحظائر والاصطبلات وتُغني أحوال البشر
كلماتك العالية في السماء والخبيئة في الأرض، خافية عن العيون
كلماتك لا يقدر أحد على فهمها وما لها من مثيل
أيها الرب في السماء سلطانك وفي الأرض بسالتك
ليس لك بين الآلهة من ندّ ولا مزاحم[5].

لا تترك هذه الترتيلة السومرية / الاكدية أي مكان آخر لإلّه آخر إلى جانب إلّه القمر نانا. فهو الإلّه الواحد الذي يجمع بين يديه كل صلاحيات الآلهة الأخرى التي تبدو أمامه إلا ظِلالاً وأشباحاً لاهوية لها.

---

(5) P. J. stephans Ibid, P. 385 - 386.

فهو الرحم البدئي الذي ولد الكون. الذي أنجب الآلهة البشر، وهو واهب النور، وهو سيد البحر، وهو سيد السماء والأرض، المتحكم بالماء والنار، وهو إلّه الخصب الذي يعطي الزرع والنبات.... إلخ.

ونلاحظ بشكل خاص أن التعبير الذي: أنجب نفسه بنفسه، يناقض التصوّرات الميثولوجية الرسمية التي تجعل من إلّه القمر نانا إبناً للإلّه انليل. فالإلّه الواحد هنا مولود من العدم وبقواه الذاتية، ومنه صدرت كل الموجودات. إنه يلد ولم يولد، يُنجِبْ ولم ينجبه أحد، على حد تعبير الفكر المسيحي والإسلامي معاً.

ولدينا صلاة آشورية مرفوعة إلى شماش، إلّه الشمس، يقول لنا كاتبها أن الالّهة الرئيسية آنو وانليل وأيا تستمد قوتها. وقدرتها على إداء مهمتها من إلّه الشمس. وهذا يعني أنها ليست إلا ظِلالاً للقدرة الإلّهية الواحدة التي يجسدها قرص الشمس. النص قصير، وهذه بعض سطوره:

أنت نور الآلّهة العظمى، نور الأرض الذي يضيء العالم، تعطي الوحي والإلهام، وفي كل يوم تصنع قرارات السماء والأرض.

شروقك نار باهرة تكسف كل النجوم
وأنت المتالق الذي لا يضاهيه أحد من الآلّهة
آنو وإنليل لا يصدران قراراً دون موافقتك
وإيا صاحب إقرار الأعماق ينظر بوجهك ويعتمد عليك
أنظار الآلهة جميعاً شاخصة في انتظار شروقك[6].

اكتفي بهذا القدر من الأمثلة التي لا يتيح المجال هنا لأكثر منها، لأخلص إلى القول بأن الإنسان، إنسان الشرق القديم لم يكن يأخذ مسألة تعدد الآلّهة على محمل الجدّ، ولم تكن الآلّهة المتعدة بالنسبة إليه

---

(6) P. J. stephans Ibid, P. 387.

إلاّ وجوها متكثّرة للقدرة الإلّهية الواحدة.

لقد آمن بألوهة منزّلة يتوسل إليها من خلال إلّه مشخص هو إلّه المدينة أو الإقليم، الذي رأى فيه التعبير الأسمىٰ عن فكرة الألوهة المزروعة في خمير الإنسان والسابقة لأي تصوّر بشخص هذه الألوهة ويحدّدها في كائنات روحية متفوّقة.

ويقودنا هذا الاستنتاج إلى القول بأن مفهوم مجمع الألّهة ليس مفهوماً دينياً بقدر ما هو مفهوم سياسي. فلقد ظهر مجمع الألّهة عقب ترسيخ السلطة المدنية في دويلات المدن وتوسيع بعض هذه الدويلات عن طريق ضمّها لأقاليم ريفية مجاورة لم تكن خاضعة من قبل لأية سلطة سياسية مركزية. ثم محاولتها أيضاً ضمّ وإلحاق دويلات مدن أصغر منها وأضعف. وهذا ما قاد في النهاية إلى قيام الأمبراطورية.

ورغم أن مفهوم الألّهة قد ساعد على توحيد الجماعات القروية والمدنية التي دخلت تحت لواء حكم مركزي سياسي، والتي يؤمن كل منها بإلّه خاص يجسّد عنده مفهوم الألوهة، إلا أنه بقي بمثابة بنية توفيقية تحاول من خلاله كل عبادة محلية توكيد سلطة وعلو إلّهها الخاص، وترى فيه الإلّه الأعلى المسيطر على بقية أعضاء المجمع.

أن استعراض الخصائص والصفات التي عزتها الصلوات والتراتيل، كل إلى إلّهها المعني يُظهر مدى تشابه التعابير والمصطلحات والأوصاف التي استخدمتها في مخاطبة ذلك الإلّه فهو:

ملك الإلّهة جميعاً وسيد السماوات والأرض

صاحب الكلمة النافذة، ولا مبدّل لكلماته إلى أبد الدهور

بيده النواميس الإلّهية وألواح الأقدار، وإليه تتوجه قلوب البشر

ربّ الناس وجميع الكائنات الحية ومصدر حياتهم

ربّ الخصب المسؤول عن تأمين معاشر البشر وبقية الأحياء

أفعاله خافية عن إفهام البشر والألّهة

منه يستمد بقية الألّهة مقدرتهم علىٰ أداء مهامهم

يعبد في جميع المعابد المكرّسة لألّهة المدن المحلية..... إلخ.

ولما كان من المستحيل على كل الألّهة الرئيسية أن تمتلك معاً هذه الخصائص والصفات. فأن فكرة مجمع الألّهة تَنحلُّ في الواقع إلى مفهوم عام وفضفاض، لا يملك تأثيراً فعلياً في الحياة الدينية على المستوى العام الشامل، لأنه ما الذي يبقى من فكرة المجمع إذا كان كل عضو فيه هو الأعلى مكانة، وإذا كان أعضاؤه يقبّلون الأرض أمام هذا الإلّه تارة وأمام ذاك تارة أخرى؟ وما الذي يبقى أيضاً من مفهوم رئيس المجمع، الذي هو آن عند السومريين وآنو عند الأكديين، إذا كانت كل صلاة تخاطب الإله المعني آن أو آنو؟ لقد خاطبت الصلاة المرفوعة إلى سن، الإلّه بقولها: «أنت آنو السماء، ومشيئتك الخافية لا يعرفها أحد». وخاطبت الصلاة المرفوعة إلى إنانا إلّهتها بقولها: «أنت أعظم من كبير الإلّهة آن».

وخاطبت الصلاة المرفوعة إلى إنانا، إلّهها قائلة: «أيها الأب نانا، الرب الكبير آنو، بطل الألّهة».

وهذا يعني أن فكرة رئيس مجمع الألّهة لم يؤخذ على محمل الجد، مثلما لم تؤخذ فكرة تعدد الألّهة على محمل الجدّ أيضاً، وأن أهل كل عبادة كانوا يرون في إلّههم رئيساً لذلك المجمع. وبذلك يتم تفريغ ما يدعىٰ «بالوثنية» من مضامين خلقتها أفكارنا اللاحقة عنها.

أن ما يبدو لنا بوضوح، ونحن نلقي هذه النظرة العلمية الحيادية على معتقدات الشرق القديم، ومن موقع غير متأثر بأفكار ومواقف مسبقة، هو إن المعتقدات قد طورت منذ فجر التاريخ مفهوماً مجرداً عن الألوهة المطلقة المنزهة التي لا يحِدها إطار ولا تتجسد في شكل أو هيئة.

وبما إنه لا بد للإنسان في تعامله مع فكرة الألوهة من وسيط يلخصها في عقله ويموضع تجربته الداخلية معها في الخارج، فقد ابتكر مفهوم الإلّه الأعلى الذي خلق نفسه بنفسه وخلق السماوات والأرض وكل نفس حية وخلق بقية الآلهة وأوكل لهم مهاماً ومجالات فعل ونشاط. لقد ارتبطت فكرة الألوهة بالسماء نظراً لما توحيه القبة الزرقاء من إحساس بالاتساع واللانهاية وتجاوز الحدود والأطر. ثم تجسدت في إلّه أعلى هو إلّه السماء ورئيس المجمع لمجمع الأرباب. إلا إنها بقيت في ضمير الإنسان بمثابة البعد الغير مرئي والقاع الكلي الذي يقوم عليه عالم المظاهر المرئية ويستمد منه كيانه وصيرورته إن الإلّه آنو وآيل أو رع، هو فكرة مجردة تحولت إلى إلّه على هذه الدرجة من التشخيص أو تلك. وكان كل إلّه من إلّهة العباداْت المختلفة يعتبر بمثابة آنو العظيم ويعبد على إنه الألوهة المطلقة وقد تجسدت في شخصية إلّهية. من شأنها جعل المطلق قريباً وحاضراً بين الناس، بؤرة يلتقي عندها المتناهي باللامتناهي. وعالم اللاهوت بعالم الناسوت. وبما أن ثقافات الشرق القديم قد بقيت حتىٰ فتراتها المتأخرة تعبّر عن حكمتها من خلال الميثولوجيا لا من خلال المفاهيم العقلية والمصطلحات الفلسفية القائمة على التأمل المنهجي، فأن معتقداتها الدينية بقيت مغلفة بضلالات كثيفة من التصورات الميثولوجية التي تحجب جوهرها وحقيقتها. وهذا ما يفرض على دارسها مزيداً من الانفتاح وسعة الأفق والتخلي عن الأفكار المسبقة والمغلوطة، عن «الوثنية» باعتبارها جاهلية التاريخ الديني للإنسان[7].

(7) راجع مقالة الأستاذ فراس السوّاح المنشورة في مجلة (الاتجاه) بعنوان «معتقدات الشرق القديم: وثنية أم التوحيد» العدد السابع، السنة الثانية، تشرين الثاني/ كانون الأول (1997) ص 13 ـ 22. وعليها اعتمدنا بتصرّف.

الملحق الرابع

قاموس الآلهة العراقية القديمة

نرىٰ من الفائدة ـ للقارىء الكريم ـ أن نضع بين يديه قاموساً مختصراً بالآلهة العراقية القديمة سيما التي أتىٰ ذكرها في متن كتابنا هذا لتتوضح الصورة الدينية القديمة بإطار الفكر العراقي القديم ويصبح على بيّنة من مراتب الآلهة واختصاصاتها ورموزها وأماكن عبادتها.

إجيجي:
تسمية اكدية لآلهة السماء (السبعة) العظام، ومصدر الكلمة غير معروف لغاية اليوم، وأول ذكر لها يرد في نصوص العصر البابلي القديم (عصر حمورابي) وعلى النقيض من (إجيجي) تسمىٰ آلهة العالم السفلي (تحت الأرض) أنوناكو في اللغة الاكدية، وتسمى هذه الآلهة في النصوص السومرية والاكدية التي دوّنت بعد العصر البابلي القديم (دينجر ـ نون ـ جال ـ إنه) وتعني الأمراء الكبار.

أدد:
إلّه الطقس، ويرمز إليه في اللغتين السومرية والاكدية بالإشارة المسمارية (دينجر ـ إم) التي تعني الريح. وقد يسمى (أدد ـ أدّا ـ ادّو) في العصر الاكدي القديم، ويقابله في اللغات السامية الأخرى (حدد) «اوغاريتي: حدد، وآرامي: حدد». وفي اللغة الأشورية القديمة يطالعنا الاسم المؤنث (ورتوم) كزوجة لـ «أدد». ويعتبر كل من (إشكور) السومري و(أدد) الاكدي ابني الإلّه (آن) وكانت قرينة أدد الاكدي (شالا). ومن

الآلِّهة الصغار التي كانت تقوم على خدمة (أدد) شولاّت وحانيش. وكان يصوّر على شكل ثور وحشي جامع كالصاعقة. ومن صفاته في المدائح الإلّهية (سيد حواجز السماء) وأماكن عبادته قرب مدينة (اور) وفي بلاد بابل وفي آشور كان يشارك (آن) في معبد واحد.

إرّا: إلّه اكدي معروف من خلال الأسماء اللاهوتية المركبة في العصر الاكدي القديم، فهو إلّه حرب ومختص بنشر الأوبئة. ويشابه في وظائفه إلّه العالم السفلي (نرجال) ويشاركه معبد واحد يدعى (إسلام) في مدينة (كوثا) الواقعة في شمال بلاد بابل.

إريشكيجال: يعني هذا الاسم في اللغة السومرية سيدة (؟) الأرض الكبيرة. ومن ألقابها إلّهة العالم السفلي، والأرض الكبيرة.. والمكان الواسع. تتولى حكم العالم السفلي في مقدمة الرواية السومرية لأسطورة (كلكامش) وهي أخت ومنافسة (إنانا ـ عشتار) في العالم السفلي، وتسلط عين الموت على كل من تطأ قدماه أرض العالم السفلي.

أساللوحي: هو ابن الإلّه (إنكي) في التعاويذ السومرية، وكاهن تعاويذ الآلّهة الكبرى. وهو الذي ينقل أخبار الأعمال الشريرة لعفاريت السوء إلى والده، ويتلقى منه الإرشادات على شكل تعاويذ ليتلافى بها مصائب البشر التي تسببها العفاريت. ويرقى إلى مرتبة إلّه بابل (مردوخ) ولكن بما أن له مكان عبادة خاص به في مدينة (كُوأرا) يعتقد إنه لم يكن في الأصل ابنا (لآنكي) وإنما أصبح فيما بعد.

إسيمو: سفير ووزير الإلّه (إنكي/إيا) ويسمى في اللغة الاكدية (أوسمو أو اوسومو)، ويشخص برأس بشري له وجهان.

إشخارا: إلّهة معروفة في بلاد بابل منذ عصر اور الثالث، وهي مختصة

بضمان تنفيذ العهود المقطوعة أمام الآلهة، وتسمى بسيدة القضاء والأضاحي، وتشارك (عشتار) في بعض صفاتها الحربية المقاتلة. والعقرب هو رمزها، وبذا يكون برج العقرب مناسباً لصفاتها، كما إنها أم لسبعة أولاد.

آشور: يحمل هذا الإلّه نفس اسم مدينة آشور، وقد أصبح إلّه الدولة الآشورية الرئيسي في أوج تعاظم دورها السياسي، واصل الاسم غير معروف، فهو ليس اسماً سامياً ولا سومرياً ولا يعرف معناه. وكان أول ذكر له في وثائق عصر أور الثالث كإلّه للشعب السامي في مدينة آشور، والدولة الآشورية. وآخر ذكر له ورد في الكتابات الأرامية في مدينة (الحضر) من العصر البارثي. وقد لمع نجمه مثل (مَردوخ) البابلي مع تعاظم دور الدولة الناهضة على المسرح السياسي وكان يوصف في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، بانليل الأشوري. لا يعرف أب لهذا الإلّه، وقرينته هي عشتار الآشورية (اشوريتو) من مدينة آشور أو من نينوى. ومنذ نهاية الألف الثاني وبداية الألف الأول قبل الميلاد، يُصوَّر الإلّه أشور على المنحوتات الحجرية داخل قرص الشمس حاملاً قوساً مشدوداً.

إشوم: إلّه أكدي، تذكره الروايات البابلية على إنه أخ إلّه الشمس (شماش)، وبطل ومستشار الإلّه (نرجال) وإلّه الطاعون (إرّا) وبشكل عام بطل الآلهة وناظرها، وهو على عكس سيده (إرّا) صديق البشر، يعمل دائماً على تهدئة (إرّا) وتطييب خاطره. ونراه في العالم السفلي شفيعاً عند الإلّه (نرجال) لانقاذ حياة البشر، ويقوم على رعاية حياة البشر في الليل وخاصة المرضىٰ منهم. ويوصف في المصادر السومرية ببطل سومر وحامي حمىٰ النظام:

آلهة الأمومة

وهي عديدة في التراث الديني العراقي منها:

أ ـ **ننخور سانجا**: ويعني هذا الاسم في اللغة السومرية (سيدة الجبل)، وتوصف في قصائد المديح بـ (أم الآلهة) و(أم كل الأولاد). وكثير من حكام وادي الرافدين يدعون بأنها أمهم، مثل (ميزيليم) و(إأناتوم من لجش) و(حمورابي) ونبوخذ نصر من بابل.

ب ـ **نينماخ**: ويعني هذا الاسم في اللغة السومرية كبرى السيدات، ويطلق عليها اسم (دينجر ـ ماخ) كبرى الآلهات، وقد ورد ذكرها في عصر (ميزيليم) في مدينة (آداب)، وكان لها هناك معبد، وكان معبدها في بابل يسمىٰ (إيماخ)، وتختفي (ننماخ) كخالقة للبشر خلف الإلّهة (نامو) في أسطورة (إنكي ونينماخ)، إذ تحمّلها الأسطورة مسؤولية فشلها في خلق إنسان كامل، حيث تخرج من بين يديها مخلوقات مشوهة غير كاملة التكوين.

جـ ـ **نيتو**: يرد هذا الاسم في مقدمة أسطورة الطوفان السومرية، وقد ورد وصف لتمثالها في أحد النصوص الاكدية الموجودة في معبد (دينجر ماخ) وهي تحمل طفلاً بيسراها ترضعه من صدرها المكشوف.

ء ـ **أرورو**: خالقة (انكيدو) في ملحمة كلكامش، وخالقة البشر في ملحمة التكوين.

هـ ـ **بلت ايلي**: بعلة الإلّهة اسم اكدي ويعني سيدة الإلّهة، وقد يكون هذا الاسم لقب لآلهاتٍ كبار مثل (نينليل وعشتار).

و ـ **ماما ومامي**: ألفاظ توددية للأم، أو مختصر اسم الإلّهة (ماميتو) زوجة (إرّا).

ز ـ نين صينا: ويعني هذا الاسم في اللغة السومرية سيدة القبعات الإلّهية، وهو اسم نادر جداً، ويستبدل في أنشودة المعول السومرية باسم (دامجلونّا)، ويرد في الأنشودة التعليمية هذه بأنها هي التي ولدت الكاهنة الملكية (؟) والملك، ومن غير المؤكد فيما إذا كانت هي المعينة بالاسم (دينجر ـ من) الوارد في قوائم أسماء الألّهة المكتشفة في فار.

إلّه الشمس: يسمى في السومرية (أوتو) وفي الاكدية (شاماش) وهو معروف بهذا الاسم في كل اللغات السامية، وهو على كل حال إلّه ذكر في الديانتين السومرية والأكدية، وهو ابن إلّه القمر (نانا) السومري و(سِن) الأكدي وأخو (إنأنا ـ عشتارا) وقرينته السومرية (شنيردا) وآيا الأكدية.

إلّه القمر: يسمى في اللغة السومرية (نانّا) والأكدية (سِن) وفي نصوص أكدية أقدم عهداً (سوإين). ويحمل الألقاب التالية: في السومرية (أشيم بابار) وفي الأكدية (نمرصيت) ويعني صاحب الشروق المشع. وإلّه القمر هو ابن الإلّهين (انليل ونليل) ويذكر في المدائح الإلّهية قبل العصر السرجوني (ثبور انليل الفتي). كان يعبد في معبد يدعىٰ (إكيشنوجال) في (اور)، وفي معبد آخر في حران الواقعة في شمال بلاد وادي الرافدين. يصوّر إلّه القمر على شكل هلال بقرنين بارزين على مشاهد الاختام الأسطوانية وعلى منحوتات أحجار الحدود.

آن: يعني هذا الاسم في اللغة السومرية (الأعالي، السماء) ويلفظ بالأكدية (آنوم) أو (آنو). وهو الإلّه الرئيس في مجمع الإلّهة السومري. ويحافظ على وضعه في العصر الأكدي. يأتي اسمه الأول في قوائم أسماء الألّهة ويقابل (آن) على الأرض الإلّهة (كي)

وتعني (الأرض ـ الأسفل) وزوجته (أوراش). ويظهر الزوجان معاً في النصوص البابلية القديمة (آن وكي) وفي العصر الأكدي تستبدل (كي) بـ (أنتوم) مؤنث (آن) لتكون قرينته، وتحل محلها (انانا ـ عشتار). ويرِ في ملحمة التكوين أن (آن) هو ابن (آنشار وكيشار) والابن البكر للإلّه (آن) هو الإلّه (انليل) الذي يصبح الإلّه الرئيس والإلّه القومي للشعب السومري.

إنانا ـ عشتار: وهي إلّهة سومرية تدعى في الأكدية (عشتار) وهي من أبرز وأصعب شخصيات الإلّهة في مجمع الإلّهة السومري والأكدي، حيث تأخذ أشكالاً وصفات كثيرة متباينة. كان مركز عبادتها الرئيس في كل العصور هو معبد إأننا (بيت السماء أو بيت الأعالي) للإلّه آن في مدينة اوروك في جنوب العراق. كما كان يوجد لها معبد في كل مدينة سومرية أو أكدية كبيرة وفي كل مدن الدولة الأشورية.

لدينا روايتان مختلفتان عن نسبها، والأولى من اوروك وتقول إنها ابنة إلّه (آن) والثانية تزعم أن إلّه القمر (نانا) هو أبوها وابنه شاماش أخوها. ومن صفاتها:

1 ـ إلّهة الحب والحياة الجنسية.

2 ـ إلّهة الحرب والنزعة القتالية المدمرة.

3 ـ إلّهة نجم (الزهرة) فينوس السماوي.

إنكي: ويعني في السومرية سيد الأرض أو سيد الأسفل، ويقابله في الأكدية اسم (إيا)، وربما كان يلفظ الاسم الأكدي في الأصل (آ) ولا نعرف مصدره أو معناه. ويعرف عن الإلّه (إنكي) إنه إلّه الحكمة وإلّه الخير والعذوبة ومانح الخصب ومفجّر الينابيع وزوجته

هي الإلّهة (دمجلنونا) التي يقابلها في الأكدية (دمنيكا) وسفيره (اسيمو) وهو والد الإلّه (اساللوحي). أهم مراكز عبادته هو مدينة (اريدو).

انليل: ويعني اسمه في اللغة السومرية (السيد نسيم) ويحافظ على اسمه في الأكدية بلفظه السومري، وقد يلفظ (الليل). وانتقل إلى الآداب اليونانية باسم (اللينوس).

عرف انليل كإلّه رئيس في مجمع الآلهة السومري. وزوجته هي (نينليل) أو الإلّهة الأم. ومن أولاده (نينورتا وننجرسو). وإلّه القمر وإلّه الطقس.

إنمة شرّا: إلّه من آلهة العالم السفلي، ويعني اسمه في السومرية سيّد كل القوى الإلّهية. ويعتبر مع زوجته (نينه شرّا) أسلاف الإلّه آن والإلّه انليل. وله سبعة أولاد.

أنونّا: يعني هذا الاسم في السومرية (بذور الحياة الأميرية) وإذ يصعب تحديد مجال استخدام هذا الاسم في اللغة السومرية المحكية في القديم. أحتفظ الأكديون بالاسم، وكان ينطق (أنوناكي) أو (أنوناكو) ويطلقونه على آلهة العالم السفلي المقابل لـ (أجيجي) إلّهة السماء.

أنونيتو: اسم إلّهة أكادية خلال عصر السلالة الأكدية (2350 ـ 2150) قبل الميلاد. تأخذ بعض الصفات الحربية من الإلّهة عشتار. وأماكن عبادتها، أكد وسوبّار، وتسمى أحياناً باسم معبدها (اولماش) أو (اولماشيتو).

أوراش: إلّه مدينة (ديليات) في بلاد بابل، ويصبح مساوياً لـ (آن ونينورتا) في عصور لاحقة، ويعني إسمه في اللغة السومرية (أرض)

والأرض كانت زوجة لإلّه (آن) وأم إلّهة الشفاء (نينسينا).

آيا: زوجة إلّه الشمس الأكدي واسمها معروف في أسماء الأشخاص قبل العصر السرجوني: وتعتبر من أقدم الإلّهة السامية في بلاد ما بين النهرين.

باب: إلّهة مدينة (لجش) السومرية. وهي ابنة الإلّه (آن) وزوجة (نينجرسو) وأم لسبع بنات.

ببسوكال: إلّه سومري يعني سفير أو حارس البوابة. وكان يقوم بمهمة السفير للإلّه (آن) وللإلّهة (عشتار) وللإلّهة بشكل عام.

ببيل سانج: إلّه سومري. هو ابن الإلّه (إنليل) وزوج إلّهة الشفاءء (نينسينا) سيدة مدينة (لاراك).

بيات سري: يعني هذا الاسم في اللغة الأكدية سيدة البادية، وهي زوجة إلّه البدو (مارتو) ومن وظائفها إنها قيّمة على الكتب وكاتبة العالم السفلي.

تيامات: يعني هذا الاسم في اللغة الأكدية (اليم)، وكانت تشكل هذه الإلّهة مع زوجها (أبزو) أو أبسو مياه المحيط الأولي قبل خلق العالم ونشوء الكون.

تيشباك: إلّه من أصل غير معروف، دخل مجمع الإلّهة الأكدية. كان إلّهاً لمدينة (إشنونا) في منطقة ديالى. وحلّ محل (نينازو) في العصر البابلي القديم.

جنومدو: إلّهة سومرية محلية لمدينة (لجش) وهي ابنة الإلّه (آن) وكان يطلق عليها في عهد الملك (جوديا) لقب (ام لجش).

جبيل: إلّه النار السومري ويقابله في اللغة الأكدية (جيّرا) أو (جيّرو)

وبصفته إلّهاً للنار فيمكن أن يكون مصدر خير أو شر للناس. وبما إنه ابن الإلّه (إنكي) الحكيم فهو إلّه التعويذات التي تقضي على السحرة والمشعوذين.

جشتينانّا: يعني هذا الاسم في السومرية (كرمة السماء) وهي إلّهة سومرية. وهي أخت (دوموزي) إلى جانب (بليلي)، وتقطن في حظيرة قطعان الماشية.

دامو: ابن إلّهة الشفاء نينسينا. ويعني (الطبيب) وكان مركز عبادته الرئيس في مدينة (إيسن) منذ عصر اور الثالث.

دجن: إلّه ليس من أصل بابلي، وقد ثبت تقديسه في العصر الأكدي في منطقة الفرات الأوسط، وفي بلاد آشور خلال العصر الأشوري القديم. وقرينته هي (شالا).

دمجلونّا: يعني اسم هذه الإلّهة في اللغة السومرية الزوجة الكبيرة للإلّه آنكي المتعالي.

دوموزي: يعني الاسم السومري (ابن شرعي) وانتقل إلى اللغة الأكدية بلفظ (تموز) يتحلى بثلاث صفات:

1 ـ عشيق وزوج الإلّهة إنانا.

2 ـ الزوج المخذول والمنفي إلى العالم السفلي.

3 ـ الإلّه الذي يجسد خصب البادية في الربيع وإلّه الخصب.

زُبابا: يرد ذكر هذا الإلّه في المراجع السومرية والأكدية حوالي 2500 سنة قبل الميلاد، على إنه إلّه محلي لمدينة (كيش) ويوصف بإلّه الحرب وزوجته هي الإلّهة (إنانا/ عشتار) بشخصيتها الحربية المقاتلة.

ساتران: إلّه غير معروف الأصل، من عصر الملك ميزيليم حوالي 2250 ق. م. وصف بأنه يحكم بالعدل في المنازعات لحدودية بين دولتي (اومّا) و(لجش). وجاء ذكره كإلّه للقضاء في مقطع من نصوص جوديا حاكم (لجش).

شارا: إلّه مدينة (اومّا) في جنوب الرافدين، لم يعرف بعد مجال عمله ولا طبيعة مهامه وصفاته، ولكن يعتقد إنه كان إلّه حرب بدليل وصفه في المدائح الإلّهية على إنه بطل (آن) وهو ابن الإلّهة (إنانا) في أسطورة (لوكال بندا) وشارا هو أحد الإلّهة الثلاثة التي كانت بانتظار عودة (إنانا) من العالم السفلي في الرواية السومرية.

شاكان: إلّه البادية والحيوانات البرية، وهو أحد آلهة العالم الأرضي، ويسمىٰ في الأكدية (سومركان) يقابله كلكامش في العالم السفلي.

شالا: إلّهة غريبة يعتقد إنها من أصل حوري، ومن زوجة إلّه الطقس الأكدي (أدد) والإلّه (دجن) وأم إلّه النار (جبيل) في نصوص التعويذات المعروفة بعنوان (مقلو).

شولباه: يعني هذا الاسم في اللغة السومرية (الشاب البهي الطلعة)، ويرد اسمه في قوائم الإلّهة المكتشفة في (فارا) واسمه معروف في اسماء الأشخاص في العصر السومري القديم. لم تذكر النصوص اسم والدي الإلّه (شولباه) ولكنها تسمي ثلاثاً من أبنائه الذكور الذين أنجبهم من الإلّهة الأم (ننخورسانجا).

صربنيتو: يعني هذا الاسم بالأكدية. «الفضة اللامعة» وهو اسم زوجة الإلّه البابلي (مردوخ) وإلّهة بابل الرئيسة المختصة بشؤون الحمل و

الولادة. وتعرف باللقب (إروى) ويقابله لدى الآشوريين (شرويا) زوجة الإلّه (آشور).

لاحار وأشنان: إلّهتان سومريتان، وقد يعني اسم الأولى نعجة (واللفظ لا حار غير مؤكد) أما الثانية (أشنان) فهي إلّهة الحبوب.

مارتو: هو الاسم السومري لإلّه البدو القاطن في الصحراء. ويقابله في الأكدية (عمورو). وأول ذكر لهذا الإلّه كان في الأسماء المركبة من عصر اور الثالث. وكان يعتبر واحداً من أبناء الإلّه (آن). وله زوجات عدة نعرف منهن (بلت صري) سيدة البادية، وإشراتو.

ماميتو: إلّهة أكدية من آلهات العالم السفلي وإحدى زوجات الإلّه (نرجال) وتقوم بعمل القاضية في العالم السفلي، وتقرر مصير البشر المحتوم بالموت مع إلّهة (الأنوتّا) وتظهر ماميتو في رؤى العالم السفلي برأس عنزة.

مردوخ: كان اسمه في الأصل السومري (أمار ـ اوتوك) ويعني عجل إلّه الشمس الفتى. ثم شاع اسمه المعروف (مردوخ) ويفسر اسمه (مار ـ دوكو) من قبل علماء اللغات على إنه ابن الإلّه (دوكو) وأقدم ذكر له ورد في نص تدشين وحيد من عصر الملك ميزيليم حوالي (2600 ق. م) وعرف كإلّه لمدينة. بابل في عصر اور الثالث. وكونه إلّه القضاء ومانح النور فهو قريب جداً من إلّه الشمس، ويوصف أحياناً إنه أخوه ومن جملة ألقابه (سيد الألّهة) و(أبو الألّهة) مما يجعله إلّهاً رئيساً فوق كل الآلهة.

نابو: إلّه أكدي ظهر في وثائق عصر اور الثالث والعصر البابلي القديم على شكل (نبيوم) ثم تحوّل إلى نابو في عصر أحدث وعرف في التوراة واللغة اليونانية باسم (نبو) ونابو هو ابن الإلّه (مردوخ) والإلّهة (صربنيتو) وكان يشارك زوجته (تشمتو) في معبد واحد في بورسيبا المدينة المجاورة لمدينة بابل. ومن صفات نابو إنه كان إلّه

الكتابة وحامي حمىٰ الأدباء والمدافع عنهم وبهذا يكون قد اكتسب صفة الحكمة التي كانت تتمتع بها الإلّهة (نيسابا). وبصفته كاتباً، فقد كان يحتفظ بألواح القدر، وهذا يعني إنه كان يتحكم كإلّه رئيس بمقدرات الكون فانتزع بذلك أسماء مردوخ الحسنىٰ في المدائح الإلّهية، وكان يوصف في أحد الأناشيد العائدة للعصر الأشوري الحديث بمفجر الينابيع ومانح الخصب والنمو للمزروعات، وهذه صفات من صفات الإلّه (انكي) إلّه الحكمة والمياه العذبة، وربما كان نابو يجسد اتجاهاً جدياً في تكوين ديانة توحيدية منذ القرن الثامن قبل الميلاد حيث تذكر كتابة مدونة على أحد التماثيل في نهايتها ما يلي: «أثق بنابو ولا أثق بغيره من الإلّهة». وبلغت قدسية نابو أقصىٰ مداها لدى الملوك الكلدانيين في العصر البابلي الحديث إلا أن المحاولة في تنصيبه إلّهاً فوق كل الآلهة لم تنجح كلياً. يرمز إلى الإلّه نابو بالقلم وهو نفس رمز الآلهة (نيسابا).

نانشة: إلّهة سومرية محلية في مدينة (لجش) وهي ابنة الإلّه (إنكي) وأخت (نينجرسو) و(نيسابا) وكزوجة (اورشنابي) كانت تقوم بطقوس الطالع وتفسير الأحلام. وتظهر في أحد الأناشيد السومرية رسولة الإرادة الإلّهية والنظام الأخلاقي، وكان يستعان بها مع (نمو) أم (إنكي) ضد العفاريت (عفاريت أوتوكو الشريرة) ومكان عبادتها الرئيس هو منطقة مدينة (لجش).

نانايا: إلّهة ورد ذكرُها في وثائق عصر اور الثالث، وهي قريبة جداً من صفات الإلّهة (عشتار) إذ أن لها نفس وظائفها المتعلقة بالحياة الجنسية والمعارك والحروب. وتظهر في نصوص الألف الأول قبل الميلاد مساوية (تشمتو) زوجة الإلّه (نابو).

نرجال: إلّه سومري تسرّب إلى الديانة الأكدية بنفس الاسم، وهو إلّه من

آلهة العالم السفلي وزوج الإلّهة (أريشكيجال) وله ظواهر وأسماء عديدة: (مسلمتئيا) و(لوكال جيرا) و(لوكال جودوا) و(لوكال أبياك) وملك كوتا وبالأحرى أبياك وهما مدينتا عبادته الرئيستان. وفي الروايات السومرية يذكر كإلّه للطب وللعالم السفلي إلى جانب (نينازو) وابن الإلّه (انليل) والإلّهة (ننليل) وفي الرواية الأكدية ابن الإلّهة (بلت أيلي).

نمتار: اسم سومري يعني (الشيء الذي يقتطع) ويعني أيضاً (القدر ـ النصيب) وصاحب هذا الاسم هو الإلّه الذي يجسد قدر الإنسان ونصيبه في الحياة ويقوم بدور سفير الموت (اريشكيجال). ونمتار في كلا التصويرين السومري والأكادي إلّه غير محبوب يجثم فوق رقاب البشر منتظراً إشارة إلّهة الموت لانتزاع أرواحهم وإخماد أنفاسهم.

نمّو: إلّهة سومرية من آلهات الأمومة الأصول التي ولدت السماء والأرض وكل الآلهة. ولابما تجسّد في شخصها المياه الجوفية العذبة (ابزو).

نوسكو: إلّه سومري تسّرب إلى الديانة الأكدية بنفس الاسم وهو معروف على أنه ابن ووزير الإلّه (انليل)، ويظهر في النصوص الأكدية إلّهاً للضوء والنار، وكان يُستدعى في التعاويذ التي نشأت بعد العصر البابلي لحرق السحرة والمشعوذين. ورمزه السراج على منحوتات الحدود في العصر البابلي الوسيط.

نوموشدا: إلّه سومري ورد ذكره في قوائم أسماء الآلهة المكتشفة في (فارا) وهو إلّه محلي لمدينة (كازالّو) في أواسط بلاد بابل وابن إلّه القمر، مجال عمله غير معروف.

نيسابا: إلّهة سومرية كانت في الأصل إلّهة الحبوب، ثم أصبحت إلّهة الكتابة والحساب والعلوم والعمران والفلك. وهي ابنة الإلّهة (آن) وفي مجمع آلهة (لجش) أخت (نينجرسو) وابنة انليل وزوجها (حيا) منذ عصر النهضة السومرية والعصر البابلي القديم وكان يقرأ سابقاً (حاني). ويصبح زوجها (نابو) منذ الألف الأول قبل الميلاد. وهي مثل (إنكي) تمنح الناس الحكمة وتفتح آذانهم (تهبهم المعرفة) ورمزها القلم الذي يشاركها فيه الإلّه (نابو) ومركز عبادتها في مدينة (اومّا) و(إريش).

نينازو: إلّه من آلهة العالم السفلي، ويعني اسمه في اللغة السومرية (السيد الطبيب) وهو ابن الإلّهة (إريشكيجال) وأب الإلّه (نينجيزيدا). يوصف بصفات حميدة مثل إلّه الشفاء والاغتسال في العالم السفلي. وكانت عبادته منتشرة في منطقة ديالى حتىٰ عصر اور الثالث. وحلّ محله فيما بعد الإلّه (تيشباك).

نينجال: إلّهة سومرية يعني اسمها «السيدة الكبيرة» وهي زوجة إلّه القمر السومري (نانا) والأكدي (سين) وأم إلّه الشمس، انتقلت عبادتها إلى سورية منذ نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، وأصبحت تعرف باسم (نيكّال).

نينجرسو: يعني اسم هذا الإلّه في اللغة السومرية (سيّد جرسو)، ويذكر ضمن أسماء آلهة مقاطعة (لجش) في قوائم أسماء الآلهة المكتشفة في (فارا)، وزوجته هي الآلهة (بابا) وأختاه (نانشة) و(نيسابا) وأبوه (انليل) ويحمل لقب بطل انليل الجبار. ومركز عبادته في لجش.

ننجيزيدا: معنىٰ الاسم السومري غير واضح (سيّد شجرة العدل) ربما كان المقصود (شجرة الحياة؟) وهم إلّه سومري من إلّهة العالم

السفلي ويلقب في المدائح بخادم الأرض الواسعة (حرفيا: محرك كرسي الأرض الواسعة) المقصود بالأرض الواسعة العالم السفلي، ويرمز الثعبان ذو القرون إليه.

نينسونا: زوجة الملك المتألّه (لوكال بندا) وأم كلكامش، ويعني اسمها السومري (سيدة البقرة الوحشية) وتقوم في ملحمة كلكامش بدور الناصحة والمرشدة لكلكامش ومفسّرة أحلامه.

نينشوبور: إلّهة سومرية، سفيرة ومرافقة الإلّهة (إنانا). تسميها إحدى قصائد العصر البابلي القديم زوجة الإلّه (نرجال).

نينليل: إلّهة سومرية (اسمها سيدة النسيم) وهي الصيغة المؤنثة لاسم الإلّه (انليل) وهي على كل حال قرينته. وفي عصر نهوض الدولة الآشورية وبروز إلّه آشور كإلّه قومي للدولة الفتية تحتل مقعدها إلى جانبه مثل عشتار كزوجة.

نينورتا: إلّه سومري يعني اسمه (سيّد الأرض) تسّرب إلى الديانة الأكدية وحافظ على شكل اسمه السومري وهو ابن الإلّه انليل وشاركه في أماكن عبادته في (نفر) وزوجته هي إلّهة الشفاء (جولا) أو مساويتها في المرتبة الإلّهة (بابا) زوجة الإلّه (نينجرسو). والإلّهان (نينورتا) و(نينجرسو) ظاهرتان تجسدان مفهوم إلّه واحد في الأصل فكلاهما من شجرة نسب واحدة ويقومان بعمل واحد فكل منهما هو إلّه الخصب وإلّه قتال.

المصادر والمراجع

أولاً: الكتب العربية

1 ـ **الكتاب المقدس (العهد القديم)**، المطبعة الكاثوليكية، بيروت (1960).

سفر التكوين * سفر الخروج * سفر الأحبار (اللاويين) * سفر العدد * سفر تثنية الإشتراع * سفر المزامير * سفر الأمثال * سفر الجامعة * سفر يشوع بن سيراخ * سفر طوبيا.

2 ـ الأمين، محمود (الدكتور). **قوانين حمورابي**، مستل من مجلة كلية الآداب عدد 3 كانون الثاني، (بغداد 1961).

3 ـ بهنام، بولس (المطران غريغوريوس) **احيقار الحكيم**، منشورات مجمع اللغة السريانية، مطبعة التايمس، (بغداد، 1976).

4 ـ جلال، ألفت محمد (الدكتورة). **العقيدة الدينية والنظم التشريعية عند اليهود**، مكتبة سعيد رأفت، المطبعة الفنية الحديثة، (1974).

5 ـ ديلي (الأب). **تاريخ شعب العهد القديم**، تعريب الأب جرجس المارديني، المطبعة الكاثوليكية، (بيروت، 1962).

6 ـ رشيد، فوزي (الدكتور). **الشرائع العراقية القديمة**، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة والنشر، (بغداد، 1973).

7 ـ روبس، دانيال. **ما هو الكتاب المقدس**، تعريب مخايل الرجي، دار

المكشوف، (بيروت، 1959).

8 ـ الروس، **إيليا أبو اليهودية العالمية وحربها المستمرة على المسيحية**، دار الإتحاد، (بيروت 1964).

9 ـ الرويح، صالح حسين. **العبيد في العراق القديم**، مطبعة أوفسيت الميناء، (بغداد، 1977).

10 ـ ريك، جان إمل. **مركز المرأة في قانون حمورابي وفي القانون الموسوي**، تعريب سليم العقاد، المطبعة العصرية، (مصر، 1926).

11 ـ سمار، جورج بوبييه. **المسؤولية الجزائية في الآداب الأشورية والبابلية**، ترجمة سليم الصويص، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة والنشر، (بغداد، 1981).

12 ـ سوسه، أحمد (الدكتور). **العرب واليهود في التاريخ**. الطبعة الثانية. دون ذكر المكان والتاريخ.

13 ـ الطعان، عبد الرضا (الدكتور). **الفكر السياسي في العراق القديم**، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، دار الخلود للطباعة والنشر (بيروت، 1981).

14 ـ عقراوي، ثلماستيان. **المرأة، دورها ومكانتها في حضارة وادي الرافدين**، منشورات وزارة الثقافة والفنون، دار الحرية للطباعة والنشر (بغداد، 1978).

15 ـ عون، كمال أحمد. **اليهود من كتابهم المقدس**، مطبعة الشعب، (مصر، 1969).

16 ـ علي، فؤاد حسنين (الدكتور). **التوراة الهيروغليفية**، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة (بلا تاريخ).

17 ـ شوستر وماي. **تاريخ الكتاب المقدس**، ترجمة الأبوان فرنسيس دونيكل ويوسف علوان. مطبعة بطريركية اللاتين، (القدس، 1962).

18 ـ قاشا، سهيل. **الحكمة في وادي الرافدين**، مطبعة شفيق، (بغداد، 1983).

19 ـ كريمر، صمويل. **من ألواح سومر**، ترجمة طه باقر. نشر الكتاب بالإشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة (بلا تاريخ).

20 ـ مؤلف مجهول. **الأسفار المقدسة**، الجزء الأول، تعريب الأب يوسف قوزي، المطبعة العصرية (الموصل 1965).

21 ـ مؤلف مجهول. **التوراة والتاريخ**، تعريب الأب عمانوئيل رئيس، المطبعة العصرية (الموصل، 1965).

22 ـ مؤلف مجهول. **القراءة الصحيحة للكتاب المقدس**، عربه الأب جرجس المارديني، المطبعة الكاثوليكية (بيروت، 1971).

23 ـ النجفي، حسن. **الشيقل**، مطبعة البنك المركزي، (بغداد، 1981).

24 ـ الهاشمي، رضا جواد. **نظام العائلة في العهد البابلي القديم**، مطبعة الآداب، النجف الأشرف (1971).

25 ـ ادوارد كييرا، **كتبوا على الطين**، ترجمة الدكتور محمود حسين الأمين، نشر بالمشاركة مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بغداد نيريوزرك، مكتبة دار المثنى، بغداد 1964.

26 ـ فراس السواح، **مغامرة العقل الأولى**، دار الكلمة، ط 4، بيروت ـ 1985.

27 ـ سهيل قاشا، **حكمة احيقار وأثرها في الكتاب المقدس**، دار المشرق، (بيروت 1996).

28 ـ جيمس فريزر، **الفولكلور في العهد القديم ترجمة**، د. نبيلة إبراهيم، الجزء الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة ـ 1974).

29 ـ ج. ك. كوربيّون، **اقرأ طوبيا**، ترجمة الأب يوحنا عيسى، (بيروت ـ 1975).

30 ـ رضا جواد الهاشمي، **نظام العائلة في العهد البابلي القديم**، مطبعة الآداب، منشورات مكتبة الأندلس (النجف ـ 1971).

31 ـ سهيل قاشا، **المرأة في قانون حمورابي**، الموصل، جامعة الموصل ـ 1985.

32 ـ عباس العبودي، **شريعة حمورابي** (دراسة قانونية ـ مقارنة مع التشريعات الحديثة جامعة الموصل (الموصل ـ 1990).

33 ـ مفيد عرنوق، **التوراة والتراث السوري**، دار النضال للطباعة والنشر، بيروت 1986.

34 ـ د. ايفلين كلنيكل ـ برانرت، **رحلة إلى بابل العظيمة**.

35 ـ س. كريمر، **طقوس الجنس المقدس عند السومريين**، ترجمة نهاد خياطة، دمشق ـ 1986.

36 ـ ك. ماتييف وا. سازونوف، **حضارة ما بين النهرين العريقة**، ترجمة د. حنا آدم. دمشق ـ 1991.

37 ـ الدكتورة ايفلين كلنيكل ـ برانرت، **رحلة إلى بابل القديمة**، ترجمة الدكتور زهدي الداوودي، دمشق ـ 1984 والكتاب المقدس، ترجمة: ايرينا داود، دمشق ـ 1987.

39 ـ فراس السوّاح، **قراءة في ملحمة جلجامش**، دمشق ـ 1987، طبعة أولى.

40 ـ د. اذزارد، م. هـ. بوب، ف. روليىنغ، **قاموس الآلهة والأساطير**، ترجمة. محمد وحيد خياطة حلب ـ 1987.

41 ـ أنيس فريحة، **دراسات في التاريخ**، طرابلس، جرّوس برس، (1991).

42 ـ الدكتور عبد الهادي عبد الرحمن، **التاريخ والأسطورة**، دار الطليعة، بيروت ـ 1994.

43 ـ زنون كومسيروفكي، **الأسطورة والحقيقة في التوراة**، ترجمة الدكتور محمد مخلوف. (دمشق ـ 1996).

44 ـ د. عبد الباسط سيدا، **من الوعي الأسطوري إلى بدايات الفكر الفلسفي النظري**، (بلاد الرافدين) (دمشق ـ 1995).

45 ـ تركي علي الربيعو، **من العين إلى الحجر**، المركز الثقافي العربي، (بيروت ـ 1997).

46 ـ يوسف الحوراني، **جماليات الحكمة، في التراث الثقافي البابلي**، دار النهار للنشر، بيروت (1994).

47 ـ علي الشوك، **الأساطير بين المعتقدات القديمة، والتوراة**، دار اللام، لندن، 1987.

48 ـ فرج الله صالح ديب، **التوراة العربية واورشليم اليمنية**، نوفل، بيروت، 1994.

49 ـ الدكتور كمال صليبي، **التوراة جاءت من جزيرة العرب**، مؤسسة الأبحاث العربية، ط 4 (بيروت ـ 1991).

50 ـ هنري ساغبس، **جبروت آشور الذي كان**، ترجمة الدكتور آحو يوسف، دار الفارابي، (بيروت ـ 1995).

51 ـ الدكتور فاضل عبد الواحد علي، **الطوفان**، مطبعة الأوفست الإخلاص، (بغداد ـ 1975).

52 ـ حسن الكرباسي، **مطالعات في الكتب القديمة**، (بيروت ـ 1997).

53 ـ هـ. ا. ديل ميريكو، **التوراة الكنعانية**، ترجمة جهاد هوّاش وعبد الهادي عباس، (دمشق ـ 1988).

54 ـ الدكتور أحمد حجازي، السقا، **التوراة السامرية**، دار الأنصار، (مصر ـ 1977).

55 ـ الدكتور وديع بشّور، **الميثولوجيا السومرية**، أساطير آرام، ط 2 (دمشق ـ بلا تاريخ).

56 ـ فريدريك دبليتش، **بابل والكتاب المقدس**، ترجمة ايرينا داود ـ ط 1 (دمشق ـ 1987).

57 ـ عباس العبودي، **شريعة حمورابي**، مطبعة جامعة الموصل. (الموصل ـ 1990).

58 ـ شفيق مقار، **قراءة سياسية للتوراة**، لندن ـ قبرص، طبعة أولى، 1991.

ثانياً: المقالات

1 ـ حكمت بشير الأسود. التوراة وتأثرها بحضارة وادي الرافدين. مجلة بين النهرين (الموصل)، العدد 30 ـ 31، السنة الثامنة (1980) ص 139 ـ 144 ـ 267 ـ 272.

2 ـ حكمت بشير الأسود. الموت والخلود بين حضارة وادي الرافدين والتوراة. مجلة بين النهرين (الموصل)، العدد 36، السنسة التاسعة (1981) ص 321 ـ 324.

3 ـ الأب يوحنا عيسى: بابل، مجلة الفكر المسيحي (الموصل)، العدد 14 نيسان 1972، ص 268 ـ 271.

4 ـ الأب عمانوئيل حنا سمعان: العراق القديم والتوراة مجلة الفكر المسيحي (الموصل)، العدد 84، حزيران 1979، ص 266 ـ 270.

5 ـ حكمت بشير الأسود. العشر في التوراة وشريعة حمورابي، مجلة الفكر المسيحي (الموصل)، العدد 94، حزيران 1980، ص 268 ـ 271.

6 ـ الدكتور فاضل عبد الواحد أحمد بين سومر وسفر التكوين مجلة كلية الآداب، عدد 23 (بغداد ـ 1978).

7 ـ الدكتور فاضل عبد الواحد أحمد، جنة عدن والفردوس المفقود، مجلة كلية الآداب العدد 22 (1978) جامعة بغداد.

8 ـ الأستاذ فراس السوّاح، معتقدات الشرق القديم: وثنية أم توحيد، مجلة الاتجاه العدد 7 (بيروت 1997).

9 ـ الأب سهيل قاشا، مقارنة بين قصة الخلق البابلية القديمة وقصة الخلق التوراتية، مجلة الاتجاه، العدد (بيروت ـ 1998).

المحتويات

القسم الثاني

أثر الحكمة العراقية القديمة في أسفار التوراة

القسم الثالث

بابل والتوراة

المؤلف في سطور

- ولد في باحذيدا/ العراق، عام 1942 وفيها أكمل دراسته الإبتدائية. وواصل دراسته الإعدادية والثانوية في الموصل، مركز محافظة نينوى.
- تخرّج من كلّية التربية/ جامعة الموصل/ قسم التاريخ، وحصل على بكالوريوس آداب بدرجة جيد جداً.
- أكمل دروسه اللاهوتية في اكليريكية مار انطون البادواني كرمرة/ لبنان عام 1993.
- ارتقى إلى الدرجة الكهنوتية في دير الشرفة/ لبنان يوم 17 تموز 1994.
- عضو إتحاد المؤرّخين العرب.
- عضو إتحاد الأدباء والكتّاب العراقيين.
- أستاذ مادة الإسلاميّات في معهد القديس بولس للفلسفة واللاهوت/ حريصا/ لبنان.
- حضر أكثر من ثلاثين مؤتمراً وندوة تاريخية وتراثية وقد اشترك كباحث في العديد منها.

من آثاره المنشورة

1 ـ أنت من انت — بغداد 1963
2 ـ سيرة الشهيدة مارزينا — الموصل 1965
3 ـ عبير الخزام — الموصل 1966
4 ـ صور من المجتمع — الموصل 1970

5 ـ سيرة الشهيدة شموني — بغداد 1980
6 ـ لمحات من تاريخ نصارى الشرق — بغداد 1982
7 ـ كنائس باخديدا — بغداد 1982
8 ـ الحكمة في وادي الرافدين — بغداد 1983
9 ـ فهارس مجلة بين النهرين — بغداد 1983
10 ـ تاريخ أبرشية الموصل للسريان الكاثوليك — بغداد 1985
11 ـ المرأة في قانون حمورابي — الموصل 1986
12 ـ القيثارة النارية — بيروت 1994
13 ـ خواطر من لبنان (شعر) — بيروت 1994
14 ـ تكريت حاضرة الكنيسة السريانية — بيروت 1994
15 ـ أثر حكمة أحيقار في الكتاب المقدّس — بيروت 1996
16 ـ المسيحيون في العهد الأموي ـ جزءان — بيروت 1998
17 ـ رؤية جديدة في المعتزلة — بيروت 1997
18 ـ كما ونشر ما ينيف على 200 بحثاً أدبياً وتاريخياً ومقالات نقدية ودينية واجتماعية في الصحف والمجلات العراقية والعربية. وقريباً سيصدر له ديوان شعر بعنوان «أغاني المنفى وأناشيد الحصار» وكتاب «الصهيونية تحرّف الكتاب المقدّس».




أثر الكتابات البابلية في المدونات التوراتية
إن القصص التي كتبها اليهود استناداً إلى الرواية المتناقلة، ليست بتاريخ إنما نفحة
تاريخية وطيلة عشرين قرناً الماضية، تمكن اليهود من تكريس الكثير من المفاهيم
المخطوءة القائمة على التحريف والانتساب المزوّر للحوادث والشخصيات
تاريخية، من أجل أن يجعلوا لهم امتداداً تاريخياً مرتبطاً بحضارات العالم القديم،
لى الأخص، الحضارتين العراقية والمصرية العريقتين
وقد توصل العديد من العلماء إلى أن ما تضمنته أسفار (العهد القديم) من
قصص وأساطير وشرائع، إنما يرجع أصله إلى المدونات السومرية،
والبابلية، والأشورية، وأن اليهود اقتبسوا منها ما ينفعهم، وحذفوا
بلا هوادة، كل ما لم يلق استحسانهم.
وحتى الوصايا العشر التي يكاد العلماء يجمعون على
أنها الشيء الوحيد المتبقي من التوراة الأصلية لم
تكن بكاملها، وعلى هيئتها الحالية كالتي جاء بها
موسى. وهناك الكثير من التشابه والتطابق
بين قوانين موسى، والقوانين البابلية التي
سبقتها بأمد بعيد.